هذه المجلّة.. إلى أين؟

أ.د. فاروق اسليم

ورد إليّ من طالب جامعيّ تعليقٌ في صيغة تساؤلين مضمونُهما: لماذا نهتمّ بالتراث، ونحن في هذه الحال من الحياة البائسة؟ ولماذا نهتمّ بالتراث، وهو مسؤول إلى حدّ ما عمّا نحن فيه؟

لهذين التساؤلين تفريعات من الأسئلة المحقّة، ومن المؤكّد أنّ الإجابات عنها ستكون إشكاليّة جدًّا؛ لأنّنا نعيش في واقع لا يمكن له أنّ ينتج غير أسئلة إشكاليّة، وبعضها إشكاليّ وصداميّ معًا.

تبدو الإجابة عن السؤال الأوّل: (لماذا نهتمّ بالتراث؟) في غاية البساطة **أوّلًا**، وفي غاية التعقيد **ثانيًا**. أمّا **البساطة** فتأتي من كوننا أمّة لها تراث عربيّ عريق وعميق وممتد دون انقطاع منذ ألف وستّمئة سنة، ولهذا التراث جذور، هي أكثر عمقًا في تاريخ الأرض العربيّة، وفي تاريخ الإنسانيّة أيضًا.

إنّ وصف هذا التراث بأنّه ممتد؛ يعني أنّه ما يزال مؤثّرًا على نحو فاعل، في نواح كثيرة من حياتنا الثقافيّة والاجتماعيّة، مع أنّ أكثرنا قد لا يعي حقيقة هذا التأثير؛ لأنّه غدا بفعل الاستمراريّة والمعايشة أمرًا مسلّمًا بشرعيّة وجوده في نسيج حياتنا المعاصرة.

وأمّا **التعقيد** فيأتي **أولًا** من قدامة هذا التراث؛ فامرؤ القيس الذي قال قبل الإسلام: "**إلى عرق الثرى وشجت عروقي**" يبدو مستجدًا أمام عروق حضارات اليمن ومصر والرافدين التي ورثتها حضارة جديدة هي الحضارة العربيّة.

ويأتي **ثانيًا** من اتّساع دائرة تراثنا مكانًا؛ فهو شامل للأقطار العربيّة المعاصرة التي تشكّل وطنًا ثقافيًّا واسعًا جدًّا، وله حضور يتجاوز حدود الوطن الحالية؛ لأنّه ممتدّ إلى مسافات شاسعة من الأماكن التي سُلِخَتْ من العرب حديثًا، وهو ممتد أيضًا إلى الأماكن التي تجذَّر فيها هذا التراث من إسبانيا غربًا إلى الصين شرقًا.

ويأتي **ثالثًا** من تنوّعِ تراثنا انفتاحًا وانغلاقًا، فثقافة الانفتاح هي أصل راسخ في تراثنا العربيّ الحضاريّ، وهذا أمر بدهيّ؛ إذ لا يمكن بغير الانفتاح أنّ تزدهر الحضارة العربيّة إلى درجة أن تصير قِبلة العلوم والمعرفة الممتدة من بغداد إلى قرطبة، مرورًا بدمشق والقاهرة. وفي مقابل ثقافة الانفتاح حضرت ثقافة الانغلاق على الذات، والإقصاء للآخر، في سياقات ومجالات دينيّة وطائفيّة ومذهبيّة وعنصريّة ومكانيّة.

إضافة إلى ما سبق، نجد تنوّعًا في التراث عمقًا وضحالة، وتفاوتًا شديدًا في الموقف منه، بسبب خصوصيّة حضوره ونوعيّته لدى هذا المجال العربيّ أو ذاك؛ فالتراث المهيمن في العراق مغاير لنظيره في بلاد الشام، وهما معًا مغايران لنظيرهما في اليمن أو مصر أو المغرب العربيّ، مع الإقرار بوجود شبكة واسعة من المشترك بين هذه الأمداء، ولا سيّما في مجالات الفنون والآداب.

إذن، للتراث حضور مهمّ جدًّا في الثقافة العربيّة، وهو متنوّع ومتفاوت في قوته وتأثيره في الحياة، وهذا يعني أنّه جزء أصيل من نسيج حياتنا، وأنّ دراسة هذا الجزء تندرج في دراستنا لمجمل نسيج هذه الحياة التي نعيشها.

في الإجابة عن السؤال الثاني (لماذا نهتمّ بالتراث، وهو مسؤول إلى حدّ ما عمّا نحن فيه؟) إشكاليّة ترجع إلى الدهشة من الاهتمام بما هو مسؤول عن مصائبنا. نحن أمام إجابتين: أمّا **الأولى** فتُقرّ بمسؤوليّة التراث عن تلك المصائب، وهذا الإقرار يوجب الاهتمام به؛ لأنّ معالجة أيّ مرض مستوطن بالجسم تكون بدراسته لمعرفة كنه إضعافه للجسم، وأمّا **الثانية** فترفض الإقرار بتلك المسؤوليّة للتراث عن مصائبنا، وتعزوها إلى إشكالات داخليّة إداريّة وسياسيّة ومدنيّة وإلى مؤامرة أجنبيّة تستهدف العرب من المحيط إلى الخليج. وفي هذه وتلك ما يُشير إلى أهمّيّة هذه المجلّة (**التراث العربيّ**)؛ فهي تسعى للإسهام في خوض غمار الإضاءة على تراثنا في تنوّعه وشموله وامتداده وعمقه وضحالته، على نحو مسؤول علميًّا وعروبيًّا معًا، وفي سياق الاستجابة الفاعلة للإسهام في تحقيق أهداف اتّحادنا اتّحاد الكتّاب العرب.

من الظاهر أنّ إدراك زملائنا في المكاتب التنفيذية السابقة لأهمّيّة المسؤوليّة تجاه تراثنا العربيّ هو ما جعلهم يخصّون هذه المجلّة بأنّ تكون وحدها محكّمةً بين إصدارات الاتّحاد الأخرى من المجلّات (الموقف الأدبيّ –الفكر السياسيّ – الآداب العالميّة).

وعلى هذا النهج يتابع المكتب التنفيذيّ الاهتمام بهذه المجلّة، وكان التعبير عن ذلك ظاهرًا جدًّا في مذكّرة التفاهم التي وُقّعت بين اتّحاد الكتّاب العرب ممثّلًا برئيسه السيّد الدكتور **محمّد الحوراني** ووزارة التعليم العالي والبحث العلميّ ممثّلةً بالسيّد الوزير الدكتور **بسّام إبراهيم**؛ فقد تضمّنت المادة الرابعة من مذكرة التفاهم ما يلي: **تشجيع الوزارة طلبة الدراسات العليا لنشر أبحاثهم في مجلّة التراث العربيّ المحكّمة التي يصدرها الاتّحاد.**

إنّ دعوة طلّاب الدراسات العليا إلى نشر بحوثهم العلميّة في هذه المجلّة تُمثّل توجّهًا مهمًّا نحو تطويرها بتوسيع دائرة المشاركين في بحوثها ومتابعيها والمستفيدين منها من فئة الشباب بخاصّة، إضافة إلى ما لديها من رصيد وافر من الباحثين والقرّاء.

وفي سياق السعي لتطوير أداء المجلّة حدث تحوّل واضح من مركزيّة جامعيّة دمشقيّة في تشكيل هيئة التحرير إلى انفتاح على أكثر الجامعات السوريّة الرسميّة (دمشق – حلب – البعث – تشرين – حماة)، مع حرص على الوصول إلى الجامعات الرسميّة الأخرى وبعض الجامعات الخاصّة.

إضافة إلى ذلك ستستأنس هذه المجلّة بخبرات مجلّات الجامعات الحكوميّة في مجال الاعتماد الداخليّ وفق متطلّبات وزارة التعليم العاليّ والبحث العلميّ، كما ستسعى في السياق نفسه إلى الحصول على الاعتماد العلميّ عربيًّا، وإلى وضع نظام داخليّ وماليّ، تُضبط به عمليّة إرسال البحوث، وآليّة تحكيمها، ونشرها على نحو واضح وميسّر إداريًّا وعلميًّا.

ثمّة رغبة في التجاوز نحو المحيط العربيّ، وهذا منوط بتطوير وسائل الاتّصال الخاصّة بالمجلّة، إضافة إلى معالجة الإشكالات الماليّة التي ترجع إلى ظروف قاهرة تعانيها سورية في الإرسال والاستقبال للحوالات الماليّة.

وقد جاء هذا العدد المزدوج (١٥٩–١٦٠) ليمثّل بدايةَ مرحلة جديدة في عمر هذه المجلة، وهي تطمح إلى التجاوز نحو الأفضل بجهود مشتركة ومستنيرة بالأفكار والآراء والتجارب ليكون عملها علميًّا مؤسّساتيًا محترفًا، ومؤثّرًا في مجاله.

ثمّة ملفّات تطمح مجلّة **(التراث العربيّ)** إلى إنجازها، ومنها **الأبعاد الإنسانيّة للتراث العلميّ العربيّ، وأثر العربيّة في اللغات العالميّة، والقدس في التراث العربيّ،** ويسرّ المجلّة أن تدعو الزملاء الباحثين من أعضاء الهيئة التدريسيّة وطلبة الدراسات العليا إلى المشاركة في تحقيق ذلك، وهي منفتحة على النظر في أيّ مقترح يصل إليها لتطوير مجالاتها في البحث والنشر والاتصال.

ابن خفاجة الأندلسي ناثراً

(٤٥١ - ٥٣٣ هـ)

أ.د. أحمد عبد القادر صلاحية*

الملخص

يحاول هذا البحث تبيان الوجه الآخر لإبداع أديب الأندلس ابن خفاجة الشُّقري ألا وهو نثره الفنّي، فقد اشتهر ابن خفاجة بوصفه شاعرَ الطبيعة في الأندلس، وبشاعر الصورة الفنّيّة الخيالية المبدعة، وبالشاعر الأندلسي الأعظم في عصر المرابطين، ولكنّه لم يشتهر بوصفه كاتباً مبدعاً من كبار كتّاب عصره ومصره، ولم يحظ نثره – قديماً وحديثاً– بما يستحقّه من اهتمام على علوّ طبقته وسموّ صنعته، واتّسامه بالصبغة الذاتيّة، وشفوفه بصفاته المعنويّة الخاصّة التي بدأت بها البحث، ثمّ عرّجت على الإشارات اليسيرة التي أثنت على نثره، مع سرد يسير لآثاره الأدبية المتبقية، ثمّ نبّهت على وجود نصوص نثريّة لابن خفاجة موزّعة في ديوانه الشعري الذي صنعه ابن خفاجة بنفسه في العقد السابع من عمره، وضمّ إليه «بعض ما اقترن به من نثره»، وقدّم له بمقدّمة نثريّة أدبيّة نقديّة فائقة الأهمّيّة، ونبهت كذلك على نصوص مفرّقة في ذيل الديوان، ونصوص أخرى منه في بعض المظانّ التراثيّة الأندلسيّة والمشرقية، ولاسيّما "الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة لابن بسّام" ثمّ "خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصبهاني"، و"مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري"، فأوردت نماذج محدودة وواضحة منها بحسب أنواعها المتعدّدة؛ من رسائل ديوانيّة وإخوانيّة ونقديّة وأدبيّة، مع ذكر السمات العامّة لها، لتبيان أهمّيّة هذا النثر وقيمته العالية، ولتكون مدخلاً لدراسة نثره دراسة فنّيّة مفصّلة.

كلمات مفتاحية:

ابن خفاجة – النثر الأندلسي

* عضو هيئة تدريسيّة في قسم اللغة العربية، جامعة حلب.

مقدمة:

أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبيد الله بن خفاجة الشُّقْرِي الأندلسي شاعر كبير وناثر مجيد، نال شعره الفائق الرائق – وما يزال – قسطاً كبيراً من اهتمام الدارسين وبحوثهم، بيد أن نثر ابن خفاجة ما يزال روضة أنفاً لم ترع فيه أقلام الباحثين، وما زال بحاجة إلى دراسة أو دراسات موسّعة ومعمّقة في آن معاً، فيحثّ البحث على درسه وتحليله وتقويمه وتسليط الأضواء عليه.

يتميز نثر ابن خفاجة – زيادة على روعة بيانه وجودة صنعته وعلو طبقته– بوضوح الصفة الذاتيّة لنثر ابن خفاجة التي جعلت منه مرآة واضحة يتجلى فيها كثير من صفاته، ولاسيما الصفات الخلقيّة المعنويّة فهي الأكثر، وكثيراً ما تتبدّى الصفات الانفعاليّة الحارّة في نثره، ومن أهمّ صفات ابن خفاجة التي تحدث عنها في نثره هي النبل والعزّة والمروءة والأنفة فهو يرى نفسه من الجلّة النبهاء، والأعيان النبلاء، فقد كان يحترم نفسه ويصونها ويوقّرها، لا يرضى لها ما ينقصها ويشينها، وكان يأبى أن يعامل معاملة الرعيّة، أو يتعسّف بأمر الحريّة، وقد ذكر ذلك غير مرّة في خطابه لأمراء المرابطين كقوله:

إنّي « مَا زِلْتُ مُنْذُ شَبَبْتُ، إِلَى أَنْ شِبْتُ،

مُرْتَسِماً بِمَكَانَةٍ أُؤَهَّلُ إِلَيْهَا، وَصِيَانَةٍ أُحْمَلُ عَلَيْهَا»(١)

ويتبدّى هذا الاحترام والصيانة حتّى مع من هم دون الأمراء كالقضاة، كقوله في عتاب أحدهم: « وَإِنَّنِي مَسَحْتُ الأَرْضَ غَرْباً وَشَرْقاً، وَلَقِيتُ جُهْماً وَطَلْقاً، وَشَرِبْتُ العُمْرَ صَفْواً وَرَنْقاً، وَحَلَلْتُ بِأَنْدِيَة القُضَاةِ وَالقَضَاءِ، وَحَطَطْتُ بِأَوْدِيَةِ الفَضْلِ وَالفُضَلاءِ، فَمَا وَطِئْتُ لِأَحَدِهِمْ سَاحَةً إِلَّا رَاقَ بِشْرُهُ، وَرَقَّ قِشْرُهُ، فَمَا الفَضْلُ كُلُّهُ فِي الصَّمْتِ

(١) ديوان ابن خفاجة : ٩٥ .

وَالجُمُودِ، حَتَّى يَلْتَبِسَ الإِنْسَانُ بِالجُلْمُودِ»[١]. ويبرز التزامه السجع بوصفه ضربة لازب لا بد منها بنوعيه؛ بحرف واحد بجملتين أو أكثر (شرقاً، طلقاً، رنقاً) أو بلزوم ما لا يلزم بحرفين(القضاء، الفضلاء) أو أكثر(بشره،- قشره، الجمود- الجلمود) مع الاهتمام بالجناس كما في المثالين الأخيرين، والاهتمام بالطباق (غرباً- شرقاً، جهماً- طلقاً، صفواً- رنقاً).

ويتجلّى الاحترام –كذلك – في عدم إراقة ابن خفاجة ماء وجهه في الطلب والإلحاح والكدية بل كان زاهداً بما في أيدي الناس ،غنيّاً عنهم، وكان قنوعاً بما كتبه الله، وقد ذكر ذلك مجملاً في قوله: «معَ اقتناعٍ، قامَ مقامَ اتّساعٍ، فأَغناهُ عنْ تبذُّلٍ وانتجاعٍ[٢]، وذكره مفصّلاً في رقعة له بيّن مذهبه في الحياة فيها، وقنوعه بما توافر عنده من وفر تالد ومال طارف، وعدم تهافته على أبواب الملوك والأمراء:

«وَلَوْ أَنَّنِي شِئْتُ اسْتِدْرَارَ أَخْلافِ العَيْشِ، وَقَرَعْتُ أَبْوَابَ الرِّزْقِ، لَكَدَدْتُ وَجَدَدْتُ، وَحَثَثْتُ الرَّكْضَ وَجَهَدْتُ، وَجُبْتُ السَّبَاسِبَ أَرْدِيَةً، وَخُضْتُ النَّوَائِبَ أَوْدِيَةً، وَرُعْتُ الكَوَاكِبَ أَنْدِيَةً، حَتَّى أُخَيِّمَ حَيْثُ السَّمَاءُ دَارٌ، وَالسِّمَاكُ جَارٌ، وَأَرْفُلُ حَيْثُ العِزَّةُ حُلَّةٌ، وَالثَّرْوَةُ حِلْيَةٌ. وَلَكِنَّ بَيْنَ جَنْبَيَّ قَلْباً هِمَّتُهُ مَا هِمَّتُهُ، فَهُوَ يَرَى الصَّبْرَ أَيْمَنَ رَفِيقٍ يَصْحَبُهُ، وَالقَنَاعَةَ أَكْرَمَ ذَيْلٍ يَسْحَبُهُ. وَعَلامَ يَبْتَذِلُ الوَجْهُ مَصُونَ مَائِهِ، وَيُلْقِي عَنْهُ قِنَاعَ حَيَائِهِ، وَإِنَّمَا الدُّنْيَا- وَبِئْسَ الطَّمَعُ- سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَرِيبٍ تَقَشَّعُ[٣][٤]. ويتسم هذا النص الخفاجي –زيادة على ما ذكرت من سجع بسيط ومركب، وجناس وطباق- بوفرة الصور الفنية (جُبْتُ السَّبَاسِبَ أَرْدِيَةً، وَخُضْتُ النَّوَائِبَ أَوْدِيَةً، وَرُعْتُ الكَوَاكِبَ أَنْدِيَةً، السَّمَاءُ دَارٌ، وَالسِّمَاكُ جَارٌ)، والتوقيع الموسيقي (لَكَدَدْتُ وَجَدَدْتُ، وَحَثَثْتُ

(١) ديوان ابن خفاجة : ٣٣٠ .

(٢) ديوان ابن خفاجة: ٢٩٠.

(٣) عجز بيت شعر لابن شبرمة، البيان والتبيين: ٣/١٤٦.

(٤) ديوان ابن خفاجة: ٣٢٩.

الرَّكْضَ وَجَهَدْتُ)، والتوازن (وَجُبْتُ السَّبَاسِبَ أَرْدِيَةً، وَخُضْتُ النَّوَائِبَ أَوْدِيَةً، وَرُعْتُ الكَوَاكِبَ أَنْدِيَةً) والاستفادة من الشعر القديم (سَحَابَةُ صَيْفٍ..).

وكان ابن خفاجة يتعامل مع الناس عامّة وخاصّة بمودّة وأدب عالٍ، ولا يتكبّر عليهم، ولا يرى نفسه أعظمهم، وكان يقوم بمدّ يد العون لأهل بلدته والمحتاجين بمروءة وطيبة ظاهرتين في شعره ونثره ، كقوله: «في فصل يشفع لرجل كحَّال:

وَمُؤَدِّيْهِ أَبُو فُلَانٍ الكَحَّالُ وهو- وَإِنْ كَرُمَتْ أكحَالُهُ' وَأُحْمِدَتْ فِي الصَّنْعَةِ حَالُهُ- لَمْ تَبْلُغْ قُوَّةُ كُحْلِهِ إِلَى أَنْ تَجْلُوَ البَصَرَ، حَتَّى تَرَى الغَيْبَ وَتُشَاهِدَ القَدَرَ، وَقَدْ وَرَدَكَ يَخْبِطُ مِنْ نَهَارِهِ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ، وَيُقَلِّبُ مُقْلَةً صَحِيحَةً عَمْيَاءَ ، وَلَا غَرْوَ فَالعَيْنُ هِيَ العَيْنُ، وَلَعَلَّهُ وَعَسَاهُ، أَنْ يَكُوْنَ عِيْسَاهُ(١).

وفي قبالة ما عرف به من ذكر مجالس اللهو والمرح والسرور لا نجد أيّ عبث بالدين وفرائضه، بل كان يؤدّي فروضه ويذكر الله تعالى ويتوكّل عليه، كقوله في رسالة يصف عودته إلى دياره: «وَذِكْرُ اللهِ- تَعَالَى- مِلْءُ الصُّدُورِ وَالأَفْوَاهِ وَشِعَارُ الأَلسِنَةِ وَالشِّفَاهِ. وَمَا كُنَّا لِنَعْبُرَ مَسَافَةَ تِلْكَ المَجَابَةِ، إِلَّا بِدَعْوَةٍ اتَّفَقَتْ هُنَاكَ مُجَابَةٍ، وَعَطْفَةٍ لِحَلِيمٍ حَكِيمٍ، وَنَظْرَةٍ مِنْ رَحِيمٍ كَرِيمٍ. وَتَلافَانَا اللهُ بِحَافِلِ نُعْمَاهُ، وَشَامِلِ رُحْمَاهُ..

وَلَمَّا قُمْتُ لأَدَاءِ المَكْتُوبَةِ، فَتَلَقَّيْتُ بِوَجْهِي الأَرْضَ، وَقَضَيْتُ الفَرْضَ »(٢)

وقد وصفه الرشاطي بـ «الطبع الكريم والهدي القويم»(٣).

وأذكر- هنا - الإشارات اليسيرة التي أثنت على نثره، مع سرد يسير لآثاره، وعرض واف لأنواع نثره، بإيراد نماذج موضّحة لنثره مع ذكر السمات العامّة له، لتكون مدخلاً لدراسة نثره دراسة فنّيّة مفصّلة.

(١) الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة: ٣/ ٢/ ٥٥٠.
(٢) ديوان ابن خفاجة: ٣٠٤ – ٣٠٦.
(٣) التكملة: ١٧٦

فقد أثنى النقّاد الأندلسيّون والمشارقة على شعر ابن خفاجة في حياته وبعد مماته ثناء كثيراً، وقد نال النثر جانباً يسيراً من هذا الثناء، فقد ذكر ابن فضل الله العمريّ(ت ٧٤٩هـ) نثره وأشار إلى كثرته وجودته فقال «وله نثر كثير، وآخى فيه نظمه، وإن كان ما زاد عليه رونقاً، وجرى لا تردّه القافية متدفّقاً، ولا إخال الدرّ يؤاخيه، ولا أراه في الحسن دون أخيه»[١].

قال ابن الأبّار (ت ٦٥٨ هـ) في تكملته عن أدبه عامّة: «وكان عالماً بالآداب، صدراً في البلغاء، متقدّماً في الكتّاب والشعراء، يتصرّف كيف يريد، فيبدع ويجيد ناظماً وناثراً ومادحاً وراثياً ومشبّباً ومشبّهاً»[٢]. وقوّم الصفديّ (ت ٧٤٩ هـ) نثر ابن خفاجة باختصار، ووصفه بالجودة؛ فقال: «وله نثر جيد»[٣]. ووصفه الحافظ الذهبيّ (ت ٧٤٨ هـ) بأنّه له « النثر الرائق »[٤].

وقرّظه ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ) بقوله: «هو للفضل نبعه وغربه، وضبعه ومذهبه، كان في الأندلس للأدب إبراهيمه الذي وفّى، والذي أبرا هيمه[٥] بمورده الأصفى، أجاد الصناعتين إتقاناً، وسحر خيل الدراري إتقاناً، وأحمّ قريحته فقذف بحره جماناً، وأتى بفرائده خلجى وسلوكة، وبجواره مجهولة ومسلوكة، معين صباح ما أعذبه، ومنير فجر ما أكذبه، أخفى خفاجيّه سنا كلّ متقدّم، وترك خفاجيّ حلب[٦] لا يعرّج عليه إلّا متندم»[٧]. وعلق شهاب الدين المقّري على قطعة نثرية له: «وما أحلى ما كتب به أبو إسحاق بن خفاجة من رسالة في ذكر منتزه»[٨].

(١) مسالك الأبصار: ٩١.
(٢) التكملة: ١٧٦
(٣) الوافي بالوفيات: ٥٥/٦.
(٤) تاريخ الإسلام: ٣٠٣/٣٦.
(٥) أبرا هيمه، أبرأ هيمه: عافاه من عطشه.
(٦) هو الأديب الشاعر عبد الله بن محمّد ابن سنان الخفاجي الحلبي (ت٤٦٦). له كتاب سر الفصاحة، وديوان شعر. الأعلام:١٢٢/٤.
(٧) مسالك الأبصار: ٧٩
(٨) نفح الطيب: ٥٣٦/١.

ويدل ذاك الثناء وتلك الأحكام التعليقات الصادرة من الأدباء والنقاد المشارقة غالباً على أن في نثره ما يستحق الدرس والاهتمام به.

وقد ذُكِرَتْ لابن خفاجة أسماء مؤلفات التي لم تصل إلينا، أهمها:

١- تأليف لغوي: نقل جلال الدين السيوطيّ عن ابن الزبير في كتابه "صلة الصلة" أنّ لابن خفاجة «تآليف لغويّة»(١)، ولكنه لم يذكر لنا أسماءها، ولم يشر إلى محتوياتها، ولم تصل إلينا.

وذكر الحافظ الذهبي في ترجمته لابن خفاجة أنّه: «له تأليف في غريب اللغة»(٢)، وقال صلاح الدين الصفدي: «وله تأليف في اللغة غريب»(٣)، ولا نعرف عن هذه الكتب أو هذا الكتاب شيئاً، بيد أنّ اهتمام ابن خفاجة باللغة واضح، ومعرفته واسعة بها، تبدّى ذلك بوضوح في غنى مفرداته اللغويّة وسلامة تركيبه اللغويّ، وظهر في تعليقاته النقدية(٤).

وثمّة رسالة لابن خفاجة فريدة في نوعها استعمل فيها المصطلحات النحوية والصرفية وبعض المصطلحات العروضيّة من أوّلها إلى آخرها، وفي ذلك تكلف شديد، قال: «وكانت بينه وبين بعض إخوانه مقاطعة، فاتّفق أن ولي ذلك الصديق حصناً ، فخاطبه أبو إسحاق برقعة منها:

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ سَيِّدِي النَّبِيهَةِ أَوْصَافُهُ النَّزِيْهَةِ عَنِ الاسْتِثْنَاءِ، المَرْفُوعَةِ إِمَارَتُهُ الكَرِيمَةِ بِالابْتِدَاءِ، مَا انْحَذَفَتْ يَاءُ يَرْمِي لِلْجَزْمِ، وَاعْتَلَّتْ وَاوُ يَغْزُو لِمَوْضِعِ الضَّمّ.

كَتَبْتُ عَنْ وُدٍّ قَدُمَ هُوَ الحَالُ لَمْ يَلْحَقْهَا انْتِقَالٌ، وَعَهْدٍ كَرُمَ هُوَ الفِعْلُ لَمْ يَدْخُلْهُ اعْتِلالٌ، وَاللهُ يَجْعَلُ هَاتِيكَ مِنَ الأَحْوَالِ الثَّابِتَةِ اللَّازِمَةِ، وَيَعْصِمُ هَذَا بَعْدُ مِنَ الحُرُوفِ

(١) بغية الوعاة: ٤٢٢/١.

(٢) تاريخ الإسلام: ٣١٣/٣٦.

(٣) الوافي بالوفيات: ٥٥/٦.

(٤) ديوان ابن خفاجة: ٢٨٣، ٢٨٤.

الجَازِمَةِ. وَأَنا أَسْتَنْهِضُ طَوْلَكَ، إِلَى تَجْدِيدِ عَهْدِكَ، بِمُطَالَعَةِ أَلِفِ الوَصْلِ، وَتَعْدِيَةِ فِعْلِ الفَصْلِ، وَإِلَى عُدُولِكَ عَنْ بَابِ أَلِفِ القَطْعِ، إِلَى بَابِ أَلِفِ الوَصْلِ وَالجَمْعِ، حَتَّى تَسْقُطَ لِدَرْجِ الكَلَامِ بَيْنَنَا هَاءُ السَّكْتِ، وَيَدْخُلَ الانْتِقَالَ حَالُ الصَّمْتِ»[١].

٢_ مقامة: في الديوان ما نصّه: «وقال من مقامة في صفة سيل حدث بالجزيرة سنة ثمانين وأربعمئة»[٢]، بيد أنّه في بعض نسخ مخطوطاته: "مقالة" بدل "مقامة".

ونثر ابن خفاجة الفنيّ أنماط، منها قسم في ديوان شعره الذي جمعه وضمّ إليه «بعض ما اقترن به من نثره»[٣]، وقسم آخر منه في بعض كتب التراث الأندلسيّ والمشرقي، ولاسيّما "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" ثمّ "خريدة القصر وجريدة العصر"، و"مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"[٤]. ويتوزع نثره الفنّي إلى خمسة أقسام، وفيما يلي بيان لها:

أولاً: مقدمة ديوان شعره:

جمع ابن خفاجة أكثر شعره في ديوان، وضمّ إليه شطراً من رسائله النثريّة المتعلّقة بهذا الشعر غالباً، وصدّر ديوانه بخطبة نقديّة مطوّلة مهمّة، تتحدّث عن مفهومه للشعر وتجربته الشعريّة المتفرّدة.

وقد وضع ابن خفاجة لأكثر مقطوعاته وقصائده التي جمعها في ديوانه مقدّمات نثريّة توضّحها وتذكر مناسبتها وغرضها، وربّما علّق على بعضها تعليقاً نثريّاً نقديّاً أو لغويّاً، وقد أورد ما أبدعه من شعر ونثر بحسب صدورهما عنه لينشّط ذهن القارئ ويروّح عنه، ويبعد الملالة منه من توالي النظم، فثمّة قصائد مفردة، وقصائد مذيّلة بقطع نثريّة، وثمّة قطع نثريّة موشاة بشعره أو شعر غيره، وقطع نثريّة مفردة، وإن كان الشعر

---

(١) ديوان ابن خفاجة: ٣٢٦.

(٢) ديوان ابن خفاجة: ٣٠٨.

(٣) ديوان ابن خفاجة: ٥.

(٤) الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة :٣/٢/٥٤٢ – ٥٦٢ ، خريدة القصر – قسم المغرب والأندلس: ٢/٥٤٨ – ٥٥٢، مسالك الأبصار: ٩١ – ٩٣.

هو الغالب على الديوان؛ فلا تكاد تزيد قطعه النثريّة على السدس منه. قال ابن خفاجة:

«وَإِنَّ مِنْ قَوْلِنَا مَا كُنَّا قَدِ افْتَتَحْنَاهُ بِمَنْثُورٍ، وَوَشَّحْنَاهُ بِفِقَرٍ مُزْدَوَجَةٍ وَشُذُورٍ. وَهَا نَحْنُ قَدْ أَوْرَدْنَاهُ، كَمَا كُنَّا سَرَدْنَاهُ، وَنَقَلْنَاهُ، بِحَسَبِ مَا قُلْنَاهُ، تَعَلُّقاً بِحُرٍّ مِنَ النَّثْرِ يُسَاقُ خِلالَ النَّظْمِ، وَيَنْتَقِلُ مُطَالِعُهُ عَنْ قِسْمٍ مِنَ الكَلامِ إِلَى قِسْمٍ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ أَبْسَطُ لِلنَّفْسِ وَأَنْشَطُ، وَأَذْهَبُ مَعَ الأُنْسِ وَأَهْذَب»[1].

إذاً فالقسم الأكبر من رسائله الفنيّة في ديوان شعره الذي جمعه ابن خفاجة بنفسه وضمّ إليه «بعض ما اقترن به من نثره»[2]، كما يقول بنفسه، ولكن قسماً آخر من رسائله في بعض كتب التراث الأندلسيّ والمشرقي، وقد وجدت أن نصوصه النثريّة – في الديوان وذيله، وما تناثر في كتب الأدب مما فات المحقّق منها من رسائل ديوانيّة وإخوانيّة وأدبيّة ونقدية – تشكل جانباً أساسياً من أدبه، لأهمّيّة هذا النثر ودلالته على صاحبه، وقيمته الفنية العالية، وكونه الجانب الغامض غير المعروف لدى كثير من الخاصة بله العامة من أدب ابن خفاجة؛ فيحض على درسه وتحليله وتقويمه واستنباط ما يحويه من أمور فائقة الأهمية.

لقد وصل إلينا ديوان شعريّ لابن خفاجة على قدر كبير من الأهمّيّة، لأهمّيّة هذا الشعر ذاته، ولأنّه من صنع مؤلِّفه وناظمه، وقد جمعه ابن خفاجة في منتصف العقد السابع من عمره بناء على طلب بعض أصدقائه منه ذلك، قال: «وَلَمَّا ارْتَقَتْ بِي السِّنُّ مُرْتَقَاهَا، وَشَارَفَتِ الحَيَاةُ مُنْتَهَاهَا، وَتَوَالَتْ رَغْبَةُ الإِخْوَانِ فِيهِ تَتَجَدَّدُ، وَحِرْصُ الأَعْيَانِ عَلَيْهِ يَتَأَكَّدُ، تَوَخَّيْتُ أَنْ أَقْصُرَهُ، فِي مُجَلَّدٍ وَأَحْصُرَهُ، وَأَحْشُرَهُ جُمْلَةً وَأَنْشُرَهُ. وَكَانَ قَدْ بَادَ، أَوْ كَادَ، لِدُثُورِ رِقَاعِ مُسْودَّاتِهِ، وَإِخْلاقِ حَوَاشِي تَعْلِيقاتِهِ. وَاقْتَضَى النَّظَرُ فِيمَا حَاوَلْتُهُ أَنْ أَتَعَهَّدَهُ ثَانِياً تَعَهُّدَ مُؤَلِّفٍ، وَأَتَفَقَّدَهُ عَائِداً تَفَقُّدَ مُتَأَمِّلٍ مُثَقِّفٍ، فَمِنْهُ مَا

(١) ديوان ابن خفاجة: ١٠.

(٢) ديوان ابن خفاجة: ٥.

تَعَهَّدْتُهُ فَقَيَّدْتُهُ، وَمِنْهُ مَا لَحَظْتُهُ فَلَفَظْتُهُ، وَمِنْهُ مَا تَصَفَّحْتُهُ فَأَصْلَحْتُهُ، إِمَّا لاسْتِفَادَةِ مَعْنىً، وَإِمَّا لاسْتِجَادةِ مَبْنىً. وَكَانَ قَدْ شَاعَ كَثِيرٌ مِنْهُ وَذَاعَ، فَمِنْ مُتَعَلِّقٍ بِنَفْسٍ، وَمِنْ مُعَلَّقٍ فِي طِرْسٍ. وَسَيَخْتَلِفُ وُجُودُهُ بِمَا عَاوَدْنَاهُ مِنْ مُفْتَقَدِهِ وَمُنْتَقَدِهِ، فَلا يَوجَدُ وَاحِداً، لا مِنْ طَرِيقِ صِيغَتِهِ، وَلا مِنْ جِهَةِ عَدَدِهِ»[1].

إذاً فهذا الديوان الذي جمعه ابن خفاجة بنفسه لا يحوي كلّ شعره ونثره الذي قاله بل قد حذف منه ما لم يرق له مستواه الفنّيّ، أو ما لا يريد إظهاره لسبب من الأسباب، كما أنّه عدّل بعضه، وقد أشار إلى ذلك مرّة فقال: «وممّا قاله في الشبيبة ثمّ غيّره مع الكهولة»[2] وغيّر فيه كلمات وعبارات، لذلك قد نرى بعض الاختلاف في نصّه في المصادر التي ذكرت شعره عمّا أثبته هو في ديوانه.

كما نصّ على أنّه أكثر من سرد قسم كبير من شعر عصر الشبيبة — حرصاً عليه وتعلّقاً به — في الديوان ؛ من باب الدعابة والظرف[3].

ثمّ وعد ابن خفاجة أن يجعل ديوانه مرتّباً على حروف الهجاء، إن أطال الله تعالى عمره، فقال: «ثُمَّ إِنِّي أَعُودُ فَأَقُولُ: إِنْ نَسَأَ اللهُ فِي الأَجَلِ، وَفَسَحَ فِي المَهَلِ، انْتَظَمَ هَذَا الكِتَابُ فِي نَسَقِ القَوَافِي غَيْرَ هَذَا المُنْتَظَمِ، وَثَبَتَ عَلَى تَرْتِيبِ حُرُوفِ المُعْجَمِ»[4]، ولكنّ النسخ المخطوطة التي حقّق عليها الديوان غير مرتّبة، بيد أنّ ابن بشكوال قال: «جمع ذلك في جزء فائق على حروف المعجم»[5].

لذلك فإنّ هذا الديوان المطبوع لا يحتوي على كثير من أدب ابن خفاجة الذي كتبه بعد صنعه حتى وفاته، ويفصل بينهما زهاء ثمانية عشر عاماً، وقد ذيّله محقّقه الباحث الفاضل الدكتور السيد مصطفى غازي بملحق بما وجده في المصادر الأندلسيّة

(١) ديوان ابن خفاجة: ٨-٩.

(٢) ديوان ابن خفاجة: ١١٢.

(٣) ديوان ابن خفاجة: ١٠.

(٤) ديوان ابن خفاجة: ١١.

(٥) الصلة: ٩٩.

فالمشرقيّة، وإن لم يستقص شعره ونثره ولم يستوفهما ،كما خلط بين شعره وشعر ابن سنان الخفاجي الحلبي (ت٤٦٦هـ).

ثانياً: الرسائل الديوانيّة:

لم يكن ابن خفاجة كاتباً من كتّاب الإنشاء في ديوان أحد من الأمراء المرابطين أو الولاة أو الوزراء أو القضاة، بل كان يرى نفسه فوق ذلك، ولكن ثمّة بعض الرسائل القليلة شديدة الصلة بالرسائل الديوانيّة بل تعدّ فيها، إذ جعلها ابن خفاجة لأغراض سياسيّة صرفة فهو في إحداها يبشر بدعوة المرابطين ويدعو للدخول في طاعتهم، ويحاجج من يناصبهم العداء، وكأنّه أحد دعاتهم، قال:

«هَا أَنْتُمْ – أَيَّدَكُمُ اللهُ – قَدْ أَظَلَّتْكُمُ الدَّوْلَةُ الـمَيْمُونَةُ، وَوَافَتْكُمُ الإِمْرَةُ الـمَأْمُوْنَةُ وَلَطَالَمَا وَرَدَتْنَا تَسِيْرُ بِهَا الرِّفَاقُ، فَتَطَلّعتْ إِلَيْهَا النُّفُوْسُ وامْتَدَّتِ الأَعْنَاقُ، وَهَذِهِ كَتَائِبُ النَّصْرِ قَدْ طَلَعَتْ عَلَيْكُمْ بَشَائِرُ صَبَاحِهَا، وَأَظَلَّتْكُمْ قَادِمَةُ جَنَاحِهَا، وَإِنَّ مَنْ نَاصَبَهَا فَحَاوَلَ أَنْ يَدْفَعَ فِيْ صَدْرِهَا وَيُقَصِّرَ مِنْ تَطَاوُلِ عِنَانِهَا عَنْ شَانِهَا:

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْماً لِيَفْلِقَهَا   فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعِلُ[1]

هَيْهَاتَ تَوَخَّى مِنَ الفَلَكِ أَلَّا يَسْتَدِيْرَ، وَابْتَغَى مِنَ الشَّمْسِ أَلَّا تَسْتَنِيْرَ، وَاعْتَرَضَ فِي مَطْلَعِ اللَّيْلِ يَأْمُلُ أَلَّا يُظِلَّ، وَنَصَبَ رَاحَتَهُ تِلْقَاءَ الفَجْرِ يُحَاوِلُ أَلَّا يُطِلَّ»[2].

ثالثاً: الرسائل الإخوانيّة :وهي قسمان:

١ – الرسائل الإخوانيّة مع الأمراء والوزراء: ولها موضوعات متعددة منها الشكوى، كقول ابن خفاجة في مقدمة قصيدته البائية: «ولـمّا ولي مُرْسِيَةَ – حماها الله تعالى – الأمير الأجلّ، أَبُو الطَّاهِرِ تَمِيمٌ[3] – أيّده الله تعالى – تعسّف في أمر الحريّة،

(١) ديوان الأعشى: ١١١.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة: ٥٥٩/٢/٣ ، ولم ترد في ديوان ابن خفاجة وذيله.

(٣) هو الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين.

وأجرى أكثر أهلها مجرى الرعيّة، فقال يشير إلى حال الثغر - تلافاه الله[به] - وإلى العدول به عن رسمه، وعن حمله فيما تقبّل باسمه، وكتب بها إليه.

فأمر لذلك -أيّده الله- برعايته في جميع أعماله، وحمله على أتمّ البرّ فيما حقّ من أحواله:

بِمِثْلِ عُلاكَ مِنْ مَلِكٍ حَسِيبِ ... عَدَلْتُ إِلَى المَدِيحِ عَنِ النَّسِيبِ
وَسَاعَدَنِي ثَنَاءٌ فِيهِ رَطْبٌ ... كَمَا سَرَتِ التَّحِيَّةُ مِنْ حَبِيبِ
وهَزَّتْ مِنْ مَعاطِفِيَ القَوَافِي ... كَمَا هَفَتِ النُّعَامَى بِالقَضِيبِ
أَمَا وَرُوَاءِ دَوْلَتِهِ يَمِيناً ... تَأَلَّاهَا نَجِيبٌ فِي نَجِيبِ
لَقَدْ ضَحِكَ الصَّبَاحُ بِمُجْتَلاهُ ... وَرَاءَ اللَّيْلِ عَنْ ثَغْرٍ شَنِيبِ
وَظَاهَرَنِي بِمُغْتَرَبِي حُسَامٌ ... أَنِسْتُ بِهِ وَنِعْمَ أَخُو الغَرِيبِ
أَشِيمُ بِهِ سَنَا بَرْقٍ يَمَانٍ ... يُخَفِّرُنِي إِلَى المَرْعَى الخَصِيبِ(١)

الأَمِيْرُ الأَوْحَدُ، الأَمْجَدُ -أَيَّدَ اللهُ سُلْطَانَهُ، وَمَهَّدَ بِالسَّعَادَةِ أَعْطَانَهُ- يَعْلَمُ أَنَّ النَّاسَ مُتَرَتِّبُونَ بَيْنَ عُلْوٍ وَسُفْلٍ، وَمُتَقَسِّمُونَ إِلَى نَبِيهٍ وَغُفْلٍ، وَأَنَّ لِكِلَيْهِمَا مَكَانَةً مِنَ السِّيَاسَةِ مَرْسُومَةً، وَمَرْتَبَةً مِنَ الرِّيَاسَةِ مَعْلُومَةً. عَلَى هذَا مَضَتِ الدُّوَلُ، وَانقَرَضَتِ القُرُونُ الأُوَلُ.

وَإِنِّي -وَالحَمْدُ لِلَّهِ، ثُمَّ لِكُلِّ مُنْعِمٍ غَمَرَ بِحُسْنَاهُ، وَبَسَطَ بِالفَضْلِ يُمْنَاهُ- مَا زِلْتُ مُنْذُ شَبَبْتُ، إِلَى أَنْ شِبْتُ، مُرْتَسِماً بِمَكَانَةٍ أُؤَهَّلُ إِلَيْهَا، وَصِيَانَةٍ أُحْمَلُ عَلَيْهَا. وَهَا أَنَا - وَقَدْ أَخْلَقَ(٢) رِدَاءُ الشَّبَابِ، وَلَحِقَ بِالتُّرَابِ، أَكْثَرُ الأَتْرَابِ - أَلْيَقُ بِذَلِكَ المَأْخَذِ الكَرِيمِ، وَأَخْلَقُ بِوُجُودِ بَرْدِ ذَاكَ النَّسِيمِ، وَرَأْيُ الأَمِيرِ - أَيَّدَهُ اللهُ- أَجْمَلُ، وَبَاعُ طَوْلِهِ أَطْوَلُ. وَهُوَ بِشَرَفِ مَوْلِدِهِ، وَكَرَمِ مَحْتِدِهِ، يُنْعِمُ بِإِقْبَالِهِ، وَيَسِمُ بِإِجْمَالِهِ، وَيَكْتَنِفُ بِإِحْسَانِهِ، وَيُشْرِفُ بِسُلْطَانِهِ - لا زَالَ شَامِلاً بِالبِرِّ، مُشْتَمِلاً بِالنَّصْرِ، سَعِيدَ الجَدِّ، حَمِيدَ القَصْدِ، بِحَوْلِ اللهِ.

---

(١) ديوان ابن خفاجة: ٩١ - ٩٢.
(٢) أخلق الثوب: بلي ، وأخلق الشبابُ: ولّى .

فما فرغ من قراءته، حتّى عهد بما هو أهله، أيّده الله»[1].

٢- الرسائل الإخوانيّة مع الأصدقاء:

وهي الرسائل التي تبادلها مع أصدقائه من الأدباء والعلماء والقضاة والوزراء في موضوعات كثيرة؛ أهمّها التهنئة والشكر، والتقريظ، والحنين والعتاب، والشكوى، والتعزية، والشفاعة، والاستدعاء، والاستهداء، والإهداء.

ومن رسائله في الحنين والشوق قوله «وكتبَ إلى الأستاذ أَبِي إسْحَاقَ بْنِ صَوَابٍ بِالعُدْوَةِ -رحمه الله- وكانا مدّةَ كونه بِالأَنْدَلُسِ على أتمّ ما يكون الأصفياء اصطحاباً. ولما فصل إلى العُدْوَةِ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ عَائِشَةَ -رحمه الله- كتب معه إلى الأستاذ هناك يجدّد العهد بمخاطبته، ويستريح إلى مساهمته:

ما أَقْدَرَ اللهَ أَنْ يُدْنِي عَلَى شَحَطٍ مَنْ دَارُهُ الحَزْنُ مِمَّنْ دَارُهُ صُولُ[2]

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ، وَيَسَّرَ لِقَاءَكَ، وَحَمَى أَرْجَاءَكَ، وَدَرَّكَكَ أَمَلَكَ وَرَجَاءَكَ.

كَتَبْتُهُ عَنْ شَوْقٍ لَوْ خَامَرَ الحَجَرَ، لانْفَجَرَ، أَوْ بَاشَرَ الجُلْمُودَ، لَفَارَقَ الجُمُودَ. مَا غَضَضْتُ مِنْهُ مُتَعَلِّلاً بِحَدِيثٍ، أَوْ أَمَلٍ حَدِيثٍ، إِلّا تَزَيَّدَ، وَتَأَكَّدَ، فَقَدْ بَاضَ عَلَى الدَّهْرِ وَفَرَّخَ، وَتَمَكَّنَتْ قَوَاعِدُهُ فَرَسَخَ، فَهَا هُوَ يَنْبُو السِّنَانُ، وَهُوَ حَدِيدٌ، وَيَبْلَى الزَّمَانُ، وَهُوَ جَدِيدٌ. وَلا تَذَكَّرْتُ مَا رَاقَ مِنْ عِشْرَةٍ، وَرَقَّ عَنْهَا مِنْ قِشْرَةٍ، إِلَّا تَمَلَّكَ جَفْنِيَ الاسْتِعْبَارُ، وَأَظْلَمَ فِي عَيْنِي النَّهَارُ. فَأَيْنَ مَا كَانَ مِنْ تِلْكَ الأَيَّامِ، المُتَخَيَّلَةِ مِنَ الأَحْلامِ؟ وَأَيْنَ مَنْ قَدْ عَرَفْنَا وَأَلِفْنَا مِنَ الإِخْوَانِ؟ بَانُوا، وَكَأَنَّهُمْ مَا كَانُوا، وَفُقِدُوا، وَكَأَنَّهُمْ مَا وُجِدُوا. فَهَا أَنَا لا أَسْتَرِيحُ فِيهِمْ إِلَّا إِلَى شَكْوَى، تُقِضُّ المَضْجَعَ، وَتَفُضُّ الأَضْلُعَ، وَلا أَنْطَوِي إِلَّا عَلَى ذِكْرَى، تُصَدِّعُ حَصَاةَ القَلْبِ، وَتُؤْذِنُ بِالظَّعْنِ فِي أَعْقَابِ ذَلِكَ الرَّكْبِ. فَآهٍ ثُمَّ آهٍ عَلَى شَبَابٍ قَدِ انْقَلَبَ، وَذَهَابٍ قَدِ اقْتَرَبَ، فَلَا تَنَاجِيَ إِلَّا بِعَمَلٍ يُتَعَقَّبُ، وَأَجَلٍ يُتَرَقَّبُ.

---

(١) ديوان ابن خفاجة: ٩٤-٩٥.

(٢) البيت لجُنْدُج بن جُنْدُج المُرّي: حماسة أبي تمّام (رواية الجواليقي) :٦١٣ ، حماسة أبي تمّام (ترتيب الشنتمري): ٣/ ٢٥٦، شرح الحماسة للمرزوقي:٣/١٨٣١، معجم البلدان :٣/٤٣٥ أمالي القالي: ١/٩٩. تاج العروس: صول.

وَعَلَى ذِكْرِ ذَلِكَ، أَنِّي كُنْتُ مُنْذُ لَيَال قَدْ أَرِقْتُ، فَتَلَدَّدْتُ أَنْظُرُ فِي أَعْقَابِ مَا مَضَى، مِنْ عُمْرِي فَانْقَضى، وَأَتَوَقَّى، عَلَى شَفَافَةِ مَا غَبَرَ مِنْهُ وَتَبَقَّى، فَسَنَحَ لِي أَنْ قُلْتُ:

أَلا سَاجِلْ دُمُوعِي يَا غَمَامُ — وَطَارِحْنِي بِشَجْوِكَ يَا حَمَامُ
فَقَدْ وَفَّيْتُهَا سِتِّينَ حَوْلاً — وَنَادَتْنِي وَرَائِي هَلْ أَمَامُ
وَكُنْتُ وَمِنْ لُبَانَاتِي لُبَيْنَى — هُنَاكَ وَمِنْ مَرَاضِعِيَ الْمُدَامُ
يُطَالِعُنَا الصَّبَاحُ بِبَطْنِ حُزْوَى — فَيُنْكِرُنَا وَيَعْرِفُنَا الظَّلامُ
وَكَانَ بِهِ الْبَشَامُ مَرَاحَ أُنْسٍ — فَمَاذَا بَعْدَنَا فَعَلَ الْبَشَامُ
فَيَا شَرْخَ الشَّبَابِ أَلا لِقَاءٌ — يُبَلُّ بِهِ عَلَى يَأْسٍ أُوَامُ
وَيَا ظِلَّ الشَّبَابِ وَكُنْتَ تَنْدَى — عَلَى أَفْيَاءِ سَرْحَتِكَ السَّلامُ

فَمَا كَانَ إِلَّا أنْ صَرَخْتُ عَوِيلاً، وَانْتَحَبْتُ طَوِيلاً، حَتَّى أَيْقَظْتُ مَنْ كانَ إِلَى جَانِبِي ضَجِيْعاً، وَزِدْتُ فَكِدْتُ أُحِيلُ الدَّمْعَ نَجِيْعاً. وَحُقَّ لِمَنْ شَاهَدَ تَضَعْضُعَ أَرْكَانِهِ، وَتَدَاعِيَ بُنْيَانِهِ، وَذَهَابَ خِلّانِهِ، وَإِدْبَارَ عُمْرِهِ وَزَمَانِه، أَنْ يُطْرِقَ هُنَالِكَ فِكْرَةً، وَيَمْلأَ جَفْنَيْهِ عَبْرَةً، وَيُرَدِّدَ الأَسَفَ جَمْرَةً، حَتَّى يَذُوبَ كَمَداً أَوْ يَقْضِيَ حَسْرَةً.

هذِهِ - جَمَعَ اللهُ بِكَ - جُمْلَةُ حَالِي؛ فَلَيْتَ شِعْرِي، كَيْفَ حَالُكَ وَمَا آمَالُكَ

وَفِيمَ اعْتِمَالُكَ وَبِمَ اشْتِغَالُكَ؟ وَإِلَى مَنْ تَسْتَرِيحُ مُفاوِضاً، أَوْ مَنْ تُجَادِلُ مُعَارِضاً ؟، وَالخَلِيلُ، قَلِيلٌ، بَلْ لَيْسَ بِغَرِيبٍ أَنْ تَقُولَ مَا بِالدَّارِ مِنْ غَرِيبٍ!.

فَأَمَّا أَنَا، فَإِنِّي كُنْتُ فِي هذِهِ الـمُدَّةِ الفَارِطَةِ، قَدْ سَكَنْتُ إِلَى مَنْ خَبَرْتُهُ، فَوَثَّقْتُهُ، وَسَبَرْتُهُ، فَوَمَقْتُهُ، وَمَا زِلْنَا بِحَالِ ارْتِبَاطٍ، وَاغْتِبَاطٍ، حَتَّى اسْتُدْعِيَ مِنَ العُدْوَةِ، فَلَبَّى تَلْبِيَةَ الإِجَابَةِ، وَانْتَقَلَ بِاسْمِ تَقَلُّدِ رَسْمِ الكِتَابَةِ. وَانْصَدَعَ مَا بَيْنَنَا لا لالتِئَامٍ، وَانْتَثَرَ لا لانْتِظَامٍ. وَأَيُّ بِنَاءٍ لِغَيْرِ انْهِدامٍ؟ أَوْ ضِيَاءٍ لِغَيْرِ ظَلامٍ؟

وَكُنْتُ قَدِ اسْتَرَحْتُ إِلَيْهِ مِنْ بَعْدِكَ، وَسَدَدْتُ بِمَوْضِعِهِ مِنْ خَلَّةٍ بَعْدَكَ، فَنَكَأَ – لَعَمْرُ اللهِ – بِقُرْحٍ قُرْحاً، وَذَرَّ عَلَى جُرْحٍ مِلْحاً. وَأَيُّ طَمَعٍ فِي لِقَاءٍ، أَوْ بَقَاءٍ؟، وَالسِّنُّ – كَمَا قَدْ عَلِمْتَ – السِّنُّ، وَمَا مِنَّا –وَإِنْ تَنَفَّسَ– إِلَّا شَنٌّ، وَاللهُ تَعَالَى أَسْأَلُهُ مَغَبَّةً تُوسِعُ رُحْمَاهُ، وَرِضَاهُ، لا إِلهَ سِوَاهُ.

وَمِمَّا أَخَلَّ بِعَهْدِ الـمُطَالَعَةِ، أَنَّ الجَزِيرَةَ –حَرَسَهَا اللهُ– بِحَيْثُ لا يُسَافَرُ عَنْهَا، وَلا يُورَدُ عَلَيْهَا، هذَا إِلَى مَا أَنَا بِسَبِيلِهِ مِنْ ضَعْفٍ طَبِيعِيٍّ، وَكَسَلٍ يَتَشَبَّهُ بِعِيٍّ، وَكِلاهُمَا مُقْتَضٍ لِلْمُطَاوَلَةِ، وَالـمُمَاطَلَةِ. فَانْدَرَجَتِ الأَيَّامُ، وَانْقَرَضَتِ الشُّهُورُ وَالأَعْوَامُ، وَالـمُخَاطَبَةُ هَمَلٌ، وَالـمُطَالَعَةُ أَمَلٌ، لا عَمَلٌ.

وَلَمَّا تَحَرَّكَ فُلانٌ – أَبْقَاهُ اللهُ – تَحَرَّكْتُ بِحَرَكَتِهِ، وَتَيَمَّنْتُ بِاسْمِهِ وَبَرَكَتِهِ، وَكَتَبْتُ مُطْلِعاً، وَمُسْتَطْلِعاً، وَحَمَّلْتُهُ شَرْحَ حُلْوِي وَمُرِّي مُسْتَوْدِعاً. وَهُوَ جَارِي بَيْتَ بَيْتَ، وَعِنْدَهُ مِنْ أَمْرِي كَيْتَ وَكَيْتَ. فَإِنْ تطَوَّلْتَ وَعَيْتَ، وَآنَسْتَهُ هُنَالِكَ وَرَعَيْتَ، آخِذاً بِالـمَعْهُودِ مِنْ طَوْلِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَمَا تَخَيَّلْتُ أَنِّي قَادِمٌ فِي أُولئِكَ السَّفْرِ[1]، وَطَالِعٌ مِنْ ثَنِيَّةٍ عَلَى ذلِكَ القُطْرِ، إِلَّا وَجَدْتُنِي أَنْتَفِضُ ارْتِيَاحاً، وَأَكَادُ أَخْفِقُ جَنَاحاً. وَلَوَدِدْتُ، أَنِّي كَمَا عَهِدْتُ، قُوَّةً مُرْتَاضَةً، وَنَفْساً نَهَّاضَةً، فَأَرِدَ مُجَدِّداً لِلْعَهْدِ وَلَوْ بِلَفْظَةٍ،

وَمُتَزَوِّداً قَبْلَ الفَوْتِ وَلَوْ بِلَحْظَةٍ[2]:

مُنىً إِنْ تَكُنْ حَقّاً تَكُنْ أَحْسَنَ المُنَى وَإِلَّا فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَناً رَغْدا

رابعاً: الرسائل النقدية:

١– علّق ابن خفاجة على بعض أبياته الشعرية وبيّن مصدر بعض صوره، وناقش ونقد نقدَ أديب ولغويّ عارف متمكّن قال: «...

(١) ديوان ابن خفاجة: ٦٣–٦٧

(٢) نسب البيت لابن ميّادة أو لرجل من بني الحارث أو لآخر ، ديوان ابن ميّادة: ٢٤٥ –٢٤٦ وانظر تخريجه ثمّة.

فَلَوَيتُ أَعناقَ المَطِيِّ مُعَرِّجاً   وَنَزَلتُ أَعتَنِقُ الأَراكَ مُسَلِّما
مُتَنَسِّماً نَفَسَ القُبولِ وَرُبَّما   أَورى زِنادَ الشَّوقِ أَن أَتَنَسَّما
فَأَسَلتُ أَحساءَ الدُّموعِ عَلاقَةً   وَلَوَيتُ أَحناءَ الضُّلوعِ تَأَلُّما
في مَنزِلٍ ما أَوطَأتُهُ حافِراً   عُرْبُ الجِيادِ وَلا المَطَايَا مَنسِما
أَكرَمتُهُ عَن أَن يُذالَ بِوَطْأَةٍ   وَلِمِثلِهِ مِنْ مَنزِلٍ أَن يُكْرَما
دَمَعَتْ بِهِ عَينُ الغَمامِ صَبابَةً   وَلَرُبَّما طَرِبَ الجَوادُ فَحَمْحَما
ما أَذكَرَتْنِي العَهْدَ فِيهِ أَيكَةٌ   إِلَّا بَكَيْتُ فَسالَ واديها دَما
وَسَجَعتُ أَندُبُ لَوْعَةً وَلَرُبَّما   صَدَحَ الحَمامُ يُجيبُني فَتَعَلَّما
قوله في هذه القصيدة: "وَنَزَلتُ أَعتَنِقُ الأَراكَ مُسَلِّما"

ينظر إلى قول أبي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي:

نَزَلْنا عَنِ الأَكْوارِ نَمْشِيْ كَرامَةً   لِمَنْ بانَ عَنْهُ أَنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبَا[1]

والقسم الآخر من هذا البيت من الكلام الموجز – وهو تضمين جميع معنى قول أبي الطَّيِّبِ في بيان المعنى بقوله «نزلتُ مُسَلِّمَا» – غنيّ بالإشارة عن العبارة.

وهلْ نزل مسلِّماً إلَّا إجلالاً للديار، وتكرمةً للرسوم والآثار؟ ثمّ إنّه لمـّا مشى في قصيدته شيئاً، عطف بنحوه، وأتى ببيتين مع زيادة وإفادة، وهما قوله:

في مَنزِلٍ ما أَوطَأتُهُ حافِراً   عُرْبُ الجِيادِ وَلا المَطَايَا مَنْسِما
أَكرَمتُهُ عَن أَن يُذالَ بِوَطْأَةٍ   وَلِمِثلِهِ مِنْ مَنزِلٍ أَن يُكْرَما

فجمع بين المراكب من خيل وإبل. ولما فرغ من المعنى في صدر البيت الثاني، تمـّمه بقوله: «وَلِمِثلِهِ مِنْ مَنزِلٍ أَن يُكْرَما»

(١) ديوان المتنبّي بشرح العكبري: ٥٦/١.

فإنّه قد يكرم غير كريم، ويجلّ غير جليل.

وفي بيت الـمُتَنَبِّي لفظة تغضّ من شرفه، وهي لفظة «من». وهي ها هنا مستجفاة، لا مستحلاة. ولو أنّه قال:

نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ نَمْشِيْ كَرَامَةً   لِأَهْلِيْهِ أَنْ نَغْشَى رُسُوْمَهُمُ رَكْبَا

لجاء البيت أتمّ جلالة وجزالة، لكنّ أبَا الطَّيِّبِ إنّما كان يهتبل بالمعاني ولا يبالي بالألفاظ. وربّما قال قائل: للفظة «بان» معنى في البيت. فيقال له: إنّ لفظة الرسوم تعطي ما تعطيه لفظة «بان» من إقواء المنزل، فاللفظان متساويان هنا.

وربّما أنكر علينا منكر ما أوردناه في لفظة «من»، إمّا لاعتياده إنشاد البيت حسب ما وقع حتّى ألفته نفسه وطبعه، واستساغه لسانه وسمعه، وإمّا لجساوة في حسه، وغباوة في نفسه، وذلك ما ليس في رفع أَوَدِه من أمل، ولا عمل.

والدليل على ما ذكرناه في لفظة «من»، أنّك تجد قولك «لقيت من ضرب زيداً» ينزل عن قولك «لقيت الذي ضرب زيداً»، وقولك «لقيت الذي ضرب زيداً» ينزل عن قولك «لقيت ضارب زيد». وكلّ ذلك إنّما ينزل في النفس عن مرتبة الجلالة لا عن المعنى.

وربّما حمل علينا حامل فقال: إنّ هذا الرجل يتعاطى رتبة في الشعر فوق رتبة الـمُتَنَبِّي. وليس الأمر كذلك، لأنّه لم يعترضه في جملة شعره، وإنّما اعترضه في لفظة، وهذا ليس بمستنكَر ولا بمستكبر»(١).

٢- وحاسّة النقد لدى ابن خفاجة قديمة تبدّت منذ سنة (ت٤٨٠ هـ) أي حينما كان عمره زهاء (٣٠) سنة في بعض اللقاءات الأدبيّة البسيطة العفويّة التي كانت تجري في ذلك الوقت والتي يقصّها الشعراء عن تفوّقهم لإظهار المهارات والمقدرات الشعريّة المبكرة، ففي لقاء مع أستاذه ابن أبي تليد (ت٥١٧ هـ) نقد ابن خفاجة أبياتاً لابن

(١) ديوان ابن خفاجة: ٢٨٣ ، ٢٨٤، ٢٨٥.

رشيق القيروانيّ (ت٤٥٦ هـ) الذي لم يتمكّن من مقابلة الأفعال بأصحابها في مقطوعته ، فقال ابن خفاجة يعارضه بل يناقضه:

وَمُهَفْهَفٍ طَاوِي الحَشَا ... خَنِثِ المَعَاطِفِ وَالنَّظَرْ
بَهَرَ العُيُونَ بِصُورَةٍ ... تُلِيَتْ مَحَاسِنُهَا سُوَرْ
فَإِذَا رَنَا وَإِذَا شَدَا ... وَإِذَا سَعَى وَإِذَا سَفَرْ
فَضَحَ المُدَامَةَ وَالحَمَا ... مَةَ وَالغَمَامَةَ وَالقَمَرْ

قال الوزير أبو إسحاق إبراهيم ابن خفاجة: «سبب هذه القطعة أنّي ذهبت يوماً أريد باب السَّمَّارين بِشَاطِبَةَ، ابتغاء الفرجة على جرية ذلك الماء بتلك الساقية، وذلك سنة ثمانين وأربعمئة. وإذا الفقيه أبُو عِمْرَانَ ابنُ أَبِي تَلِيد- رحمه الله- قد سبقني إلى ذلك، فألفيته جالساً على مصطبة كانت هنالك مبنية لهذا الشأن. فسلّمت عليه، وجلست إليه متأنّساً به وبتلك الحال. فأنشد أثناء ما تناشدناه قول ابْنِ رَشِيق، رحمه الله:

يَا مَنْ يَمُرُّ وَلا تَمُرْ ... رُ بِهِ القُلُوبُ مِنَ الفَرَقْ
بِعِمَامَةٍ مِنْ خَدِّهِ ... أَوْ خَدُّهُ مِنْهَا اسْتَرَقْ
فَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّهَا ... قَمَرٌ تَعَمَّمَ بِالشَّفَقْ
فَإِذَا بَدَا وَإِذَا مَشَى ... وَإِذَا رَنَا وَإِذَا نَطَقْ
شَغَلَ الجَوَانِحَ وَالجَوَا ... رِحَ وَالخَوَاطِرَ وَالحَدَقْ

فقال، وقد أعجب بها جدّاً، وأثنى عليها كثيراً: أحسن ما في القطعة حسن سياقة الأعداد. فقلت له: هي حسنة، ولكنّها دون موقعها منك. وإلّا، ألست تراه قد استرسل، فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير والبيت الذي قبله، فيُنزل بإزاء كلّ واحد منها ما يلائمها؟ وهل يحسن أن يُنزِل بإزاء قوله «وَإِذَا نَطَقْ»، قوله «شَغَلَ الحَدَقْ»؟

وكأنّه نازعني القول في هذا' فقلت هذه القطعة المتقدّمة أنسج على ذلك المنوال. فاستحسنها ابنُ أبِي تَلِيد»[1]

٣- علل ابن خفاجة اهتمامه بوصف الطبيعة، وإكثاره من وصفها وإدراجه لمفرداتها في أغراضه الشعرية المختلفة بعشقه الفطري للطبيعة الأندلسية من جهة ولجمال طبيعة بلدته شقر وسحرها من جهة أخرى، فقال في التقديم لقطعة صغيرة من شعره في وصف بعض عناصر الطبيعة: «إكثار هذا الرجل في شعره من وصف زهرة، ونعت شجرة، وجرية ماءٍ، ورنَّة طائر، ما هو إلّا لأنّه كان جانحاً إلى هذه الموصوفات لطبيعة فُطِر عليها وجِبلَّة، وإمَّا لأنّ الجزيرة كانت داره، ومنشأه وقراره، وحسبك من ماءٍ سائح، وطير صادح، وبطاح عريضة، وأرض أرِيضة.

فلم يعدمْ هنالك، من ذلك، ما يبعث مع الساعات أُنْسَه، ويحرّك إلى القول نفسَه، حتّى غلب عليه حبُّ ذلك الأمر، فصار قوله فيه عن كَلَفٍ، لا تكلّفٍ، مع اقتناع، قام مقامَ اتساع، فأَغناه عن تبذُّل وانتجاع.

فمن قوله في ذلك يصف مكاناً صابته سماء، وطلّته أنداءٌ، فتَبَيَّض بنُوّاره، وتفضَّض، وتذهَّب بأزهاره وتلهَّب، ويندب إلى راح وارتياح، وينعت طائراً يولْوِل هناك ويهدر، وشجرة يتساقط نُوَّارها عليه وينتثر:

أَذِنَ الغَمَــــامُ بِديمَــــةٍ وَعُقَــــارِ ... فَــامْزُجْ لُجَيناً مِنْهُمـا بِنُضَـارِ
وَارْبَـعْ عَلـى حُكْـمِ الرَّبِيـعِ بِأَجْـرَعٍ ... هَـزِجِ النَّـدَامَى مُفصِـحِ الأَطيـارِ
مُتَقَسِّــمَ الأَلحَــاظِ بَــيْنَ مَحَاسِــنٍ ... مِـنْ رِدْفِ رَابِيَـةٍ وَخَصْـرِ قَـرَارِ
نَثَـرَتْ بِحِجْـرِ الرَّوْضِ فيـهِ يَـدُ الصَّبَا ... دُرَرَ النَّـــدَى وَدَراهِـــمَ الأَنْـــوَارِ
وَهَفَـــتْ بِغِرّيْـــدٍ هُنالِـــكَ أَيكَـــةٌ ... خَفّاقَـــةٌ بِمَهَـــبِّ ريـــحِ عَـــرَارِ

(١) المطرب :١١١-١١٣، بدائع البدائه :٣٧٧-٣٧٨ ، نفح الطيب: ٣/ ٣٢٠

هَــزَّتْ لَــهُ أَعْطَافَهَــا وَلَرُبَّمَــا خَلَعَــتْ عَلَيْــهِ مُــلاءَةَ النُّــوَّارِ[١]

٤- ربّما علم ابن خفاجة أنّ بعض شعره يحتاج إلى شرح فقام بشرح معنى بيت وضبط آخر وعلّق على ثالث، وقدّم لجميع قطعه وقصائده بمقدمات توضّحها كما ذكرنا، فقال ابن خفاجة شارحاً البيت الأخير من قصيدته في تهنئة القاضي ابن عصام بعوده إلى خطّة القضاء وتعريضه بحاسده:

«مــا غَــصَّ بِالدَّمْعَــةِ إِلَّا هَفَــا فَـانظُرْ تَجِدْ ثَمَّ السِّوَارَ والوِشَـاحْ

شأن حلية الأذرع والأسوُق أنْ توصف بالغَصَص والشَّرَق، كما أنّ حلية الآذان والخصور توصف بالجَولان والقَلَق. فالمعنى أنَّ هذا الحاسد قد جمع بين الشَّرَق والقَلَق، فهو كلّ واحد من هذين الموصوفين في حالة واحدة»[٢]

٥-وقال ابن خفاجة معلّقاً على البيت الأخير من قطعة شعرية همزية في وصف الطبيعة له، وهو:

فَرَغِبْــتُ عَــن نَــورِ الصَباحِ لِـزَوْرَةٍ أُغْــرَى لَهَــا بِبَنفسَــجِ الظَّلْمــاءِ

نَوْر الصباح في البيت الأخير من القطعة المهموزة ثبّت فيها مفتوحَ النون وسيُغيّر فينشد – لا محالة – مضموم النون ، فينقص رونق البيت »[٣].

فابن خفاجة ضبط البيت بالفتح ونبّه على ذلك، خشية من تغييره، وذلك ليحافظ على الصورة الفنّيّة المتّسقة في طرفي البيت الشعريّ، ولئلّا ينقص معنى البيت وتختلّ الصورة الفنّيّة فيه، ممّا يدلّ على علم عميق بفنّ الشعر وصنعته، ولكنه كان حزيناً من عدم امتثال الناس لما نبه عليه وما لذلك من أثر في تراجع رونق البيت. فلا غرو – بعد ذلك – أن وضعه صدّيق القنّوجي في باب علماء الشعر وقد سبق أن وصفه الرشاطي «بالمعارف الجمّة والآداب»[٤].

(١) ديوان ابن خفاجة: ٢٩١.

(٢) ديوان ابن خفاجة: ١٦٧.

(٣) ديوان ابن خفاجة: ١٥٤ .

(٤) أبجد العلوم: ٩٢/١ ، التكملة: ١٧٦.

خامساً الرسائل الأدبيّة:

هي الرسائل التي ألّفها ابن خفاجة لغرض فنّيّ لإشباع نزعته الوصفيّة، ولإثبات مقدرته الفنّيّة، وغالباً ما تمتزج عنده مع الرسائل الإخوانيّة، ومن نماذجها المفردة: وصفه للرياض كقوله في إحدى نزهاته في أحضان الطبيعة مع ثلّة من أصحابه في يوم بهيج:

« **فصل في صفة متنزَّه:**

وَلَمَّا أَكَبَّ الغَمَامُ إِكْبَاباً، لَمْ أَجِدْ مَعَهُ إِغْبَاباً، وَاتَّصَلَ المَطَرُ اتِّصَالاً، لَمْ أُلْفِ مَعَهُ انْفِصَالاً، أَذِنَ اللهُ- تَعَالَى- لِلصَّحْوِ أَنْ يُطْلِعَ صَفْحَتَهُ، وَيَنْشُرَ صَحِيفَتَهُ، فَقَشَعَتِ الرِّيحُ السَّحَابَ، كَمَا طَوَى السِّجِلُّ الكِتَابَ، وَطَفِقَتِ السَّمَاءُ تَخْلَعُ جِلْبَابَهَا، وَالشَّمْسُ تَحُطُّ نِقَابَهَا، وَتَطَلَّعَتِ الدُّنْيَا تَبْتَهِجُ كَأَنَّهَا عَرُوْسٌ تَجَلَّتْ، وَقَدْ تَحَلَّتْ- ذَهَبْتُ فِي لُمَّةٍ مِنَ الإِخْوَانِ نَسْتَبِقُ إِلَى الرَّاحَةِ رَكْضاً، وَنَطْوِي لِلتَّفَرُّجِ أَرْضاً، وَنَنْشُرُ أَرْضاً، فَلا نُدْفَعُ إِلَّا إِلَى غَدِيرٍ، نَمِيرٍ، قَدِ اسْتَدَارَتْ مِنْهُ فِي كُلِّ قَرَارَةٍ سَمَاءٌ، سَحَائِبُهَا غَمَّاءُ، وَانْسَابَ فِي كُلِّ تَلْعَةٍ حُبَابٌ، جِلْدَتُهُ حَبَابٌ.

فَتَرَدَّدْنَا بِتِلْكَ الأَبَاطِحِ، نَتَهَادَى تَهَادِيَ أَغْصَانِهَا، وَنَتَضَاحَكُ تَضَاحُكَ أُقْحُوَانِهَا، وَلِلنَّسِيْمِ، أَثْنَاءَ ذَلِكَ المَنْظَرِ الوَسِيْمِ، تَرَاسُلُ مَشْيٍ، عَلَى بِسَاطِ وَشْيٍ، فَإِذَا مَرَّ بِغَدِيرٍ نَسَجَهُ دِرْعاً، وَأَحْكَمَهُ صُنْعاً، وَإِنْ عَثَرَ بِجَدْوَلٍ شَطَبَ مِنْهُ نَصْلاً، وَأَخْلَصَهُ صَقْلاً، فَلا تَرَى إِلَّا بِطَاحاً، مَمْلُوءَةً سِلاحاً، كَأَنَّمَا انْهَزَمَتْ هُنَالِكَ كَتَائِبُ، فَأَلقَتْ بِمَا لَبِسَتْهُ مِنْ دِرْعٍ مَصْقُولٍ، وَسَيْفٍ مَسْلُولٍ.

وفي فصل منها:

فَاحْتَلَلْنَا قُبَّةً خَضْرَاءَ، مَمْدُوْدَةَ أَشْطَانِ، الأَغْصَانِ، سُنْدُسِيَّةَ رِوَاقِ، الأَوْرَاقِ. وَمَا زِلْنَا نَلْتَحِفُ مِنْهَا بِبَرْدِ ظِلٍّ ظَلِيلٍ، وَنَشْتَمِلُ عَلَيْهِ بِرِدَاءِ نَسِيْمٍ عَلِيلٍ، وَنُجِيلُ النَّظَرَ فِي نَهْرٍ صَقِيْلٍ، صَافِي لُجَيْنِ المَاءِ، كَأَنَّهُ مَجَرَّةُ السَّمَاءِ، مُؤْتَلِقِ جَوْهَرِ الحَبَابِ، كَأَنَّهُ مِنْ ثُغُورِ الأَحْبَابِ.

وَقَدْ حَضَرَنَا مُسْمِعٌ يَجْرِي مَعَ النُّفُوسِ لَطَافَةً، فَهُوَ يَعْلَمُ غَرَضَهَا وَهَوَاهَا، وَيُغَنِّي لَهَا مُقْتَرَحَهَا وَمُنَاهَا، فَصِيحُ لِسَانِ النَقْرِ، يَشْفِي مِنَ الوَقْرِ، كَأَنَّهُ كَاتِبٌ، حَاسِبٌ، تَمْشِقُ يُمْنَاهُ، وَتَعْقِدُ يُسْرَاهُ:

يُحَرِّكُ حِيْنَ يَشْدُو سَاكِنَاتٍ وَيَبْتَعِثُ الطَّبَائِعَ لِلسُّكُونِ»(١)

ولا تختلف كثيراً أغراض النثر عند ابن خفاجة عن أغراض الشعر إلّا أنّنا لا نجد فيها غزلاً أو هجاء أو حكمة، وأنّها تزيد عليها بموضوعات اجتماعيّة تتّصل بالحياة اليوميّة والأمور الشخصيّة ؛ كالإهداء والاستدعاء إلى مجلس، والتهنئة والشكر، وما إلى ذلك.

أمّا الخصائص الفنّيّة لنثره فأهمّها: الالتزام بالسجع والإكثار من السجع المركّب أي بلزوم ما لا يلزم بأكثر من حرف، وانتقاء الألفاظ بعناية ودقة وغزارة معجمه اللغوي وتكثيف المعاني، وقصر الجمل والاهتمام بالازدواج والتوازن فيها، وكثرة الجمل الاعتراضيّة والدعائيّة، والإكثار من المحسّنات البديعيّة ولاسيّما الجناس. والولع بالصور الفنّيّة، وسعة خياله. وترصيع نثره بالأشعار، بنصّها أو بمعناها أو بحلّها، وتوشيته بالأمثال وبعض الحديث النبويّ الشريف، واستخدام مصطلحات بعض العلوم كالنحو والعروض، بيد أنّ مثل هذا التكلّف الشديد قليل في نثره، وقد لجأ إليه أحياناً لإثبات مقدرته عليه ومجاراة لذوق عصره.

وأهم خاصة من خصائص نثره هي كثرة عناصر الطبيعة في كثير من موضوعات رسائله، فلا يقتصر اهتمامه بوصف الطبيعة على الشعر وحده بل يشارك النثر في ذلك، وقد سبق أن علل ابن خفاجة سبب ذلك بجمال بلاده وعشقه الفطري للأندلس وطبيعته. وقد وصف الحجاريّ الأندلسيّين عامة بأنّهم «هم أشعر الناس فيما كثّره الله تعالى في بلادهم، وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والأطيار

(١) الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة: ٣/ ٥٤٣/٢ – ٥٤٤ ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١/ ٥٣٦

والكؤوس، لا ينازعهم أحد في هذا الشأن، وابن خفاجة سابقهم في هذا المضمار، الحائز فيه قصب الرهان»[١].

وأكد الشقنديّ ذلك في مفاخرته لابن المعلّم الطنجيّ: «وهل منكم من برع في أوصاف الرياض والمياه، وما يتعلّق بذلك فانتهى إلى راية السباق وفضح كلّ من طمع بعده في اللحاق، وهو أبو إسحاق ابن خفاجة»[٢].

وقال شهاب الدين المقّريّ: «وأبو إسحاق ابن خفاجة كان أوحد الناس في وصف الأنهار والأزهار والرياض والحياض والرياحين والبساتين»[٣].

وقال أيضاً في مثل ذلك: «وكان صنوبريّ الأندلس أبو إسحاق بن خفاجة ... وشهرته تغني عن الإطناب فيه – مغرىً بوصف الأنهار والأزهار وما يتعلّق بها وأهل الأندلس يسمّونه الجنّان، ومن أكثر من شيء عرف به»[٤]

ومن ذلك قوله: «وكتب في استدعاء صديق له إلى مجلس أنس:

«إنَّ النَّبِيذَ بِسَاطُ مَوْضِعِ الرَّاحَةِ وَالانْبِسَاطِ، وَقَلَّمَا يَطِيبُ رِضَاعُ الكَأْسِ إِلَّا مَعَ الصَّدِيقِ الشَّفِيْقِ، المُشْتَبَهِ بِالأَخِ الشَّقِيقِ، فَهُوَ رِضَاعٌ ثانٍ تُرْعَى حُرْمَتُهُ، وَتُحْفَظُ ذِمَّتُهُ. وَهَذا يَوْمُنَا قَدْ ضُرِبَتْ بِهِ أَرْوِقَةُ الأَنْوَاءِ، وَأَعْرَسَتِ الأَرْضُ فِيْهِ بِالسَّمَاءِ؛ فَالغُصْنُ يَتَلَوَّى وَيَتَثَنَّى، وَالحَمَامَةُ تُرَجِّعُ وَتَتَغَنَّى، وَالمَاءُ يَرْقُصُ مِنْ طَرَبٍ وَيُصَفِّقُ، وَالزَّهْرُ يَشُقُّ جَيْبَ كِمَامِهِ وَيُمَزِّقُ. فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَكُونَ فِيْمَنْ شَهِدَ هَذَا الإِمْلاكَ، وَتَحْضُرَ فِيْمَنْ حَضَرَ هُنَاكَ، أَجَبْتَ مُنْعِماً»[٥].

(١) نفح الطيب: ٣/١٥٥.
(٢) المصدر نفسه: ٣/٢٠٠.
(٣) المصدر نفسه: ١/٦٨١.
(٤) المصدر نفسه: ٣/٤٨٨.
(٥) ديوان ابن خفاجة: ٣١٩ – ٣٢٠.

وتتغلغل عناصر الطبيعة في نثر ابن خفاجة تغلغلاً شديداً، ويعبّر بوساطتها عن أغراضه المتنوّعة، كقوله في الرسالة الأولى في ديوانه يسأل وزيراً – لم يسمّه – من وزراء الدولة انتقل إلى العدوة المغربيّة أن يوصل قصيدة مدحيّة له إلى الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين عندما عاد إلى تلمسان في الجزائر، فتكثر في هذه الرسالة استفادته من الطبيعة في التعبير عن شوقه إلى الوزير والثناء عليه، ثمّ لا يكتفي بذلك حتّى يستطرد بوصف الجبل والذئب ثمّ يرجع – بعد ذلك – ليذكر غرضه الأساسي من الرسالة وهو إيصال المدحة إلى الأمير، ثمّ يثني على وزير الدولة مرّة ثانية: قال: «وكتب إلى وزير الدولة بما نسخته:

يَا عِمَادِي الأَعْلَى، وَقِدْحِي الـمُعَلَّى نِدَاءً يَسْحَبُ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ رِدَاءً، وَيَطِيبُ إِعَادَةً فِيكَ وَإِبْدَاءً، وَيَمْلأُ سَامِعَتِي الغَوْرِ وَالنَّجْدِ، وَيَهُزُّ عِطْفَي السُّؤْدُدِ وَالـمَجْدِ، حَتَّى يَعُوْجَ عَلَيْهِ الكَرَمُ يُفَدِّيهِ، وَالقَلَمُ يُلَبِّيهِ إِنِّي – كُلَّمَا لَمَعَ مِنْ تِلْقَائِكَ بَارِقٌ، أَوْ طَلَعَ فِي رُوَائِكَ شَارِقٌ، أَوْ تَرَقَّتْ بِمَكَارِمِكَ غَمَامَةٌ، أَوْ نَطَقَتْ بِمَحَاسِنِكَ حَمَامَةٌ، أَوْ تَنَفَّسَتْ عَنْ نَفَحَاتِ أَخْلاقِكَ، وَكَرَمِ آدَابِكَ وأَعْرَاقِكَ، رَيْحَانَةٌ وَأَصِيلٌ، وَرِيحٌ بَلِيلٌ – لأَرَاكَ، بِمَا احْتَمَلْتُهُ مِنْ حُلاكَ، أَوِ انْتَحَلْتُهُ مِنْ عُلاكَ، فَمَا أَدْرِي – وَقَدْ طَرِبْتُ – أَأَرْتَاحُ، أَمْ غُصْنٌ بِي يُرَاحُ. فَلا اقْتِرَاحَ عَلَى الدَّهْرِ إِلَّا بِالفُسْحَةِ فِي بُقْيَاك، وَالـمَسْحَةِ مِنْ رُعْيَاكَ، وَاللَّمْحَةِ مِنْ لُقْيَاكَ، وَاللُّمْعَةِ مِنْ سُقْيَاكَ.

وَكَيفَ وَأَيْنَ بِذَلِكَ الـمُتَمَنَّى؟ وَدُونَكَ كُلُّ عَلَمٍ بَاذِخٍ مَجَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رُضَابَهُ، وَصَافَحَتِ النُّجُومُ هِضَابَهُ، قَدْ طَمَحَ بِطَرْفِهِ، وَشَمَخَ بِأَنْفِهِ، وَسَالَ الوَقَارُ عَلَى عِطْفِهِ، فَهُوَ يَعْبِسُ، وَلا يَنْبِسُ، كَأَنَّمَا أَطْرَقَ بِهِ اعْتِبَارٌ، أَوِ احْتَبَى مِنْهُ جَبَّارٌ، قَدْ لاثَ مِنْ غَمَامَةٍ، عِمَامَةً، وَأَرْسَلَ مِنْ رَبَابَةٍ، ذُؤَابَةً، تُطَرِّزُهَا البُرُوقُ الخَوَاطِفُ، وَتَهْفُو بِهَا الرِّيَاحُ العَوَاصِفُ، بِحَيْثُ مَدَّتِ البَسِيطَةُ بِسَاطاً، وَضَرَبَتِ السَّمَاءُ فُسْطَاطاً، وَخَلا الجِنُّ يَعْزِفُ، وَالحَمَامُ يَهْتِفُ، وَأَطْرَقَ الذِّئْبُ يَنْصُبُ سَامِعَتَيْهِ، وَيَنْفُضُ الرَّوْعُ جَانِحَتَيْهِ»(١).

(١) ديوان ابن خفاجة: ٢٧، ٢٨، ٢٩.

الخاتمة:

وهكذا فإن ابن خفاجة يعد في الطبقة الأولى من الناثرين في عصر المرابطين من حيث تنوع موضوعاته، وإتقان صنعته؛ فقد عالج ابن خفاجة – فيما تبقى لنا من نثره– أغلب الموضوعات المعروفة في عصره، فتعددت أنواع رسائله بين رسائل ديوانية وإخوانية وأدبية ونقدية، وشفّت عن بعض صفاته وطباعه. كما أن نثره يتسم برقي فنّه، وجودة صنعته، وتميزه بكثرة الصور الفنّيّة وسحر خياله، واصطباغه بلون الطبيعة الأندلسية الخلابة، مما يجعله يقارب شعره فنيّاً، فهو من طبقة عالية، ومن طراز رفيع، ويستحق منا وقفات نقدية مطولة كالتي خصصت لشعره.

المصادر والمراجع

- **أبجد العلوم؛ الرحيق المختوم من تراجم أئمة العلوم**، صدّيق القنّوجي تحقيق عبد الجبّار زكّار، وزارة الثقافة، دمشق ، ط١ ، ١٩٨٩.
- **الأمالي**، أبو علي القالي، دار الآفاق الجديدة، بيروت،١٩٨٠.
- **بدائع البدائه**، ابن ظافر الأزدي، تح محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، ١٩٧٠.
- **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، ابن عميرة الضبّي، تحقيق د. صلاح الدين الهوّاري، المكتبة العصريّة ، صيدا، ط١، ٢٠٠٥.
- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت- صيدا، د.ت.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**، المرتضى الزبيدي، حكومة الكويت الكويت، تواريخ متعدّدة.
- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، شمس الدين الذهبي، تحقيق عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ، ط١، ١٩٨٧.
- **التكملة** ، ابن الأبّار، تحقيق الفريد بل وابن أبي شنب ،المطبعة الشرقيّة الجزائر ، ١٩١٩.
- **الحماسة**، لأبي تمّام برواية ابن الجواليقي، تحقيق عبد المنعم أحمد صالح منشورات وزارة الثقافة ، بغداد ، ١٩٨٠.
- **الحماسة**، لأبي تمّام ترتيب الأعلم الشنتمري، تحقيق د.مصطفى عليّان، معهد البحوث الإسلاميّة، جامعة أمّ القرى، مكّة المكرّمة، ط١، ١٤٢٣هـ.
- **خريدة القصر وجريدة العصر**، العماد الأصبهاني، تحقيق آذرتاش آذرنوش ومحمّد المرزوقي ومحمّد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسيّة للنشر، تونس، ط١، ١٩٧١.

- **ديوان الأعشى الكبير**، شرح د. محمّد محمّد حسين، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ط٧ ، ١٩٨٣.
- **ديوان ابن خفاجة**، تحقيق د.السيّد مصطفى غازي، منشأة المعارف، الإسكندريّة، ١٩٦٠.
- **ديوان شعر بشّار بن برد**، جمع بدر الدين العلوي، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
- **ديوان المتنبّي**، بشرح أبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السقّا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت، (د.ت).
- **ديوان مجنون ليلى**، جمع عبد الستّار أحمد فرّاج، دار مصر للطباعة، القاهرة ، ١٩٧٩.
- **شرح ديوان الحماسة**، المرزوقي، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١.
- **شعر ابن ميّادة**، جمع د.حنّا جميل، مجمع اللغة العربيّة، دمشق، ١٩٨٢.
- **الصلة**، ابن بشكوال، الدار المصريّة للتأليف والترجمة، القاهرة ،١٩٦٦.
- **المطرب من أشعار أهل المغرب**، ابن دحية الكلبي، تحقيق إبراهيم الأبياري ورفاقه، المطبعة الأميريّة، القاهرة، ١٩٥٤.
- **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٧٩.
- **المغرب في حلى المغرب**، ابن سعيد الأندلسي، تحقيق د. شوقي ضيف، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨.
- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، شهاب الدين المقّري، تحقيق د. إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨.

الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، تحقيق أحمد الأرنؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠.

التراث العربي

العدد المزدوج (١٥٩-١٦٠)/ خريف - شتاء/٢٠٢٠ -٢٠٢١

ابن رشد

في شرحه الوسيط لـ فن الشعر لأرسطو:

ماله و ما عليه

أ.د. عبد النبي اصطيف*

الملخص:

يلاحظ الدارس لتلقي عمل ابن رشد "*التلخيص الوسيط*" الذي قدّم فيه شرحه لكتاب أرسطو"*فن الشعر*" أن ثمة بوناً شاسعاً ما بين التقويم المُجحِف للباحثين العرب الحديثين لهذا العمل الصوّة في تاريخ النقد العالمي، وبين تقويم الباحثين الغربيين، الذين ظلوا يشاغلونه بترجماتهم ودراساتهم وأبحاثهم، ويناقشون ما أسهم به في النقد الأوربي على مدى عدة قرون، بل يرونه مصدراً مهماً من مصادر تحقيق *فن الشعر*.

الكلمات المفتاحية

ابن رشد – فن الشعر – أرسطو

* أستاذ الأدب المقارن والنقد الحديث، جامعة دمشق.

تأخرت نسخة **فنّ الشعر** المحققة تحقيقاً دقيقاً يأخذ بالحسبان جميع الشواهد المتاحة على نصه في مختلف اللغات القديمة والوسيطة حتى عام ٢٠١٢م عندما قام باحثان أمريكيان[١] بإخراج نسخة يمكن الاطمئنان إلى نسبتها إلى أرسطو من ناحية، مثلما يمكن الوثوق بصحة نصها من ناحية أخرى. وقد قامت دار النشر الهولندية **بريل** بنشرها وإخراجها في طبعة مزدوجة اللغة (باليونانية والإنكليزية) مع تعليقات نصية دقيقة على النص اليوناني قدمها واحد من أبرز المختصين بالعلاقات الثقافية العربي – اليونانية هو ديمتري غوتاس صاحب كتاب: ***فكر يوناني- ثقافة عربية: حركة الترجمة اليونانية-العربية في بغداد وأوائل المجتمع العباسي (القرون الثاني-إلى الرابع هـ/الثامن إلى العاشر م)***[٢] الذي قام بترجمته إلى العربية الدكتور نقولا زيادة قبل رحيله.

ويبدو أن السبب في هذا البون بين تقويم الباحثين العرب الحديثين وبين تقويم نظرائهم في الغرب هو **النظرة السطحية التي سادت تدبّر معظم الأولين لـ *التلخيص الوسيط***، والتي رأت فيه مجرد تلخيص لترجمة تمّت عن طريق لغة وسيطة قام بها جاهل للغتين وللأدب اليوناني، في حين كانت نظرة الآخرين نظرة متعمِّقة أحاطت بظروف انتقال الكتاب عبر الزمان والمكان والثقافات، وتبينت غرض ابن رشد من تلخيصه أو بالأحرى شرحه، والأهم من ذلك كله فهمهم لهذا التلخيص على أنه **شرح**، ومن ثم، فإنهم تعاملوا معه على أنه يُعبِّر عن **فهم فيلسوف عربي مسلم لفيلسوف يوناني وثني**، وأن ابن رشد أراد أن **ينتقل بآراء أرسطو**، **المحكومة أساساً بنصوص الأدب اليوناني**،

(١) انظر:

Leonardo Tarán / Dimitri Gutas (eds.), *Aristotle Poetics. Editio Maior of the Greek Text with Historical Introductions and Philological Commentaries* (Brill Academic Publishers, Leiden /Boston / Tokyo: 2012).

(٢) انظر:

Dimitri Gutas, *Greek Thought. Arabic Culture: The Graeco-Arabic Translation Movement in Baghdad and the Early Abbāsid Society (2nd-4th/8th-10th Century)*, Routledge, London-New York, 1998).

إلى دائرة أوسع من المتن الأدبي العالمي، فينظر في القوانين العامة للشعر التي تصلح لكل زمان ومكان، وما يمكن، من ثم، أن تفيد الشعر العربي وشعر الأمم الأخرى.

* * *

يكتب عبد الرحمن بدوي عن تلقي أوربا لما قام به ابن رشد من شرح لكتاب ***فن الشعر*** لأرسطو، مما عُرف لاحقاً بـ ***التلخيص الوسيط*** فيقول:

"أجل! لقد عرفت أوربا هذا الكتاب (يقصد كتاب ***فن الشعر*** لأرسطو) عن طريق تلخيص ابن رشد الذي ترجمه هرمن الألماني في القرن الثاني عشر، ولكنه ... **تلخيص فاسد لا يفيد مطلقاً في إيضاح فكر أرسطو، بل يبتعد عنه كل الابتعاد**"[(١)].

ويضيف مفصِّلاً حكمه على هذا التلخيص:

"والصفة البارزة في تلخيص ابن رشد محاولته تطبيق قواعد أرسطو على الشعر العربي، وقد أضلته ترجمة متّى للتراجيديا بأنها المديح، وللكوميديا بأنها الهجاء، فخال له أن الأمر كما في الشعر العربي، ومن هنا أكثرَ من الشواهد المستمدة من الشعر العربي، ومعظمها فاسدة، لأنها تقوم على أساس فاسد هو تلك الترجمة الخطأ. وهو نفسه قد شعر بإخفاق هذه المحاولة، فكان يعتذر عنها كلما التبس عليه الأمر والتوى به التطبيق. ولم يفلح إلا حينما أراد أن يلخص الفصول الخاصة بالمقولة (الفصول ١٩، ٢٠ ، ٢١، ٢٢) فقد واتاه القول وصح لديه إجراء التطبيق وعقد المقارنات. ومن هنا كان يعدل عن الشواهد اليونانية التي يوردها أرسطو إلى شواهد يستمدها من الشعر العربي، على ما في هذا أحياناً من تعسف بل وتزييف لرأي أرسطو. **فنتج عن هذا كله تلخيص لا هو يساير الأصل، ولا هو بمفيد في تيسير الانتفاع بمعاني أرسطو**"[(٢)].

---

(١) انظر: أرسطوطاليس، *فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد*، ترجمه عن اليونانية وشرحه عبد الرحمن بدوي (دار الثقافة، بيروت، د. ت.) ص ١٣.

(٢) انظر: *المرجع السابق*، ص ص ٥٥-٥٦.

ويجمل حكمه على تلخيصات الفلاسفة المسلمين لكتاب ***فن الشعر*** فيقول:

"ولهذا لا يخرج المرء من قراءته لهذه التلخيصات التي وضعها الفارابي وابن سينا وابن رشد إلا بشعور أليم بخيبة الأمل في أن يكون العرب قد أفادوا منه كما أفادت أوربا في عصر النهضة، وكما أفادوا هم أنفسهم من سائر مؤلفات أرسطو في إخصاب الفكر العربي.

ويخيل إلينا أنه لو قدِّر لهذا الكتاب، كتاب "***فن الشعر***" لأرسطو، أن يُفهَم على حقيقته وأن يُستثمَر ما فيه من موضوعات وآراء ومبادئ، **لغُني الأدب العربي بإدخال الفنون الشعرية العليا فيه، وهي المأساة والملهاة، منذ عهد ازدهاره في القرن الثالث الهجري، ولتغير وجه الأدب العربي كله. ومن يدري! لعل وجه الحضارة العربية كله أن يتغير طابعه الأدبي كما تغيرت أوربا في عصر النهضة"**[1].

أما طه حسين فيرى أن كتاب ***فن الشعر***:

"لم يفهمه أحد <من الفلاسفة والنقاد العرب> على الإطلاق"[2].

في حين يرى أمجد الطرابلسي أن:

"التأويلات التي يعطيها ابن سينا وابن رشد<لكلام أرسطو> لتبعث على الابتسام"[3].

وعندما يطالع المرء ما تقدم من آراء الدارسين العرب السلبية في عمل ابن رشد، ويقارنها بالآراء الإيجابية لنظرائهم الغربيين، يتبادر إلى ذهنه، في هذا المقام، مجموعة أسئلة تُلحّ عليه أيما إلحاح:

---

(١) انظر: *المرجع السابق*، ص ٥٦.

(٢) انظر: طه حسين، "البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر"، في: طه حسين، *من تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول (القرن الثاني)- المجلد الثاني*، (دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧١)، ص ٤٨٨.

(٣) انظر: أمجد الطرابلسي، *نقد الشعر عند العرب حتى حدود القرن الخامس الهجري*، ترجمة: ادريس بلمليح، ط ١ (دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٣)، ص ٧٩.

- ما السبب الكامن وراء هذا التضارب الصارخ بين آراء دارسي كتاب ***الشرح الوسيط*** لابن رشد؟ وكيف يتسق تقويم هذا التلقي المتكافئ الضدين مع هيمنة **شرحه *الوسيط*** لكتاب أرسطو ***فن الشعر*** على أوروبا- العصور الوسطى وعصر النهضة أكثر من أربعة قرون[(١)]؟
- وهل يتحمل المترجمون العرب، ولاسيما متى بن يونس، الذين ترجموه عن لغة وسيطة هي السريانية، مسؤولية التقويم السلبي لعمله في الثقافة العربية الحديثة ؟
- وبالمقابل هل يتحمل هرمان الألماني، بترجمته الحرفية لنص ابن رشد إلى اللاتينية (والتي استعان عليها بالموريسكيين من العرب المسلمين في طليطلة كما يعترف بذلك في مراسلاته مع روجر بيكون)، وبفرضه المنطقَ وعلم الأخلاق اللاتينِيَّيْن

(١) كان نص ابن رشد، كما يشير إلى ذلك، م. إيه. آر. حبيب R. Habib A. M.:
"مؤثِّراً على نحو واسع، ولاقى استحساناً من شخصيات من مثل روجر بيكون Roger Bacon، وأستعمِل على نحو واسع من جانب نقاد مثل بينفِنوتو من إمولا Benevenuto Da Imola، شارح دانتي في القرن الرابع عشر، الذي رأى أن *كوميديا* دانتي في الأساس عملُ مديح وهجاء. وكذلك فإنه أثر في تلميذ بترارك المفكر الإنساني كلوتشيو سالوتاتي Coluccio Saltutati، الذي استعمل كذلك مبدأ المديح والهجاء، وتعريف ابن رشد للمحاكاة. والتأثير قابل للتتبع في كُتّاب القرن السادس عشر من أمثال سافونارولا Savonarola، وروبرتللوRobertello ، وماتزوني Mazzoni، الذين آمنوا جميعاً بأن الشعر إلى حد ما هو فرع من فروع المنطق، والذي استشهدوا به دعماً لمواقفهم. وكما يلاحظ هارديسون، فإن نظرية الشعر التعليمية، خلال القرن السادس عشر كله، قد تعايشت على مضض مع تعاليم أرسطو. وكانت رؤية ابن رشد لأرسطو ملائمة للمواقف الأخلاقية للمفكرين الإنسانيين.
وبلغ التوتر ما بين نمطي النقد تضاداً صريحاً في عمل لودوفيغو كاستِيلْفِتْرو Lodovico Castelvetro، الذي كان تفسيره لـ *فن الشعر* لأرسطو، مع أنه مشوّه إلى درجة كبيرة، متحرراً من تأثير ابن رشد. وقد عورض كاستيلفترو على نحو حاد من جانب معاصره المفكر الإنساني توركواتو تاسو، Torquato Tasso، الذي انحازت آراؤه في الشعر البطولي، بوصفه مديحاً للفضيلة، إلى آراء سانت بازِل، وابن رشد، وبلوتارك، وأرسطو. ومن المفارقة إذن، أنه وبسبب اجتماع مركّب من الظروف التاريخية، مُنِحت نسخة ابن رشد من أرسطو، ولزمن طويل، رصيداً أكبر من آراء أرسطو نفسه". وانظر:
M.A. R. Habib, *A History of Literary Criticism from Plato to the present* (Blackwell, Oxford, 2005), p. 212;

عليه، مسؤولية تقويمه السلبي من جانب بعض الدارسين في الغرب اللاتيني، أم أن ابن رشد نفسه يتحمل قسطاً كبيراً منها؟

- وأخيراً كيف يتسق كل ماتقدّم من تقويم سلبي لعمل ابن رشد مع الحفاوة المنقطعة النظير التي ظفر بها في أوربا أكثر من أربعة قرون، ومع الاهتمام المستمر بعمله من جانب الدارسين الغربيين حتى يومنا هذا(١)؟

---

(١) انظر بغرض معرفة المزيد عن تأثير ابن رشد في الفكر الأوربي:

Charles Burnett, "Petrarch and Averroes: An Episode in the History of Poetics", in: *The Medieval Mind: Hispanic Studies in Honour of Alan Deyermond*, Edited by Ian MacPherson and Ralph Penny (Tamesis, London, 1977); "Arabic into Latin: the Reception of Arabic Philosophy into Western Europe", in: *The Cambridge Companion to Arabic Philosophy*, Edited by Peter Adamson and Richard C. Taylor (Cambridge University Press, Cambridge, 2005), pp. 370-404; Karla Mallette, "Beyond Mimesis: Aristotle's *Poetics* in the Medieval Mediterranean", *PMLA*, 124.2, 2009, pp. 583-590; Anna Akasoy and Guido Giglioni (editors), *Renaissance Averroism and Its Aftermath: Arabic Philosophy in Early Modern Europe*, (International Archives of the History of Ideas, Springer, 2013); Saud M. S. al Tamamy, *Averroes, Kant and the Origins of the Enlightenment: Reason and Revelation in Arab Thought* (I. B. Tauris, London & New York, 2014), and *Interpreting Averroes: Critical Essays*, Edited by Peter Adamson and Matteo Di Giovanni (Cambridge University Press, Cambridge, 2019).

وانظر كذلك كتاب:

أشرف منصور، *ابن رشد في مرايا الفلسفة الغربية الحديثة* (مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط-بيروت، ٢٠١٨)، الذي يعكس اهتماماً مشكوراً، وإن جاء متأخراً، بتأثير ابن رشد في الفلسفة الأوربية من جانب الباحثين العرب؛

وكتاب دومينيك أورفوا، *ابن رشد طموحات مثقف مسلم*، ترجمة محمّد البحري، مراجعة سعود المولى (المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠١١)؛ فضلاً على العدد الخاص الذي أصدرته مجلة *ألف: مجلة البلاغة المقارنة* عن *"ابن رشد والتراث العقلاني بين الشرق والغرب"*، (العدد ١٦-١٩٩٦) وضم مجموعة من الأبحاث بالعربية والإنكليزية لأبرز المهتمين بأعمال ابن رشد، غير أنه، وللأسف الشديد، لم يخص *الشرح الوسيط* بأي بحث. وانظر:

Averroës and the Rational Legacy in the East and the West,
Alif: Journal of Comparative Poetics (No. 16-1996).

وانظر أيضاً:

Rega Wood, "The influence of Arabic Aristotelianism on scholastic natural philosophy: projectile motion, the place of the universe, and elemental composition", in:
==

يستطيع منتقدو ابن رشد أن يشيروا إلى ثلاث حقائق، لا يماري فيها باحث في سيرة كتاب أرسطو ***فن الشعر*** عبر العصور وهي:

١. إن ابن رشد، وأهميته في تاريخ الفلسفة العربية بل العالمية، وواسع معرفته في مختلف علوم عصره، وأهمية إسهامه في تاريخ الفلسفة الوسيطة، وفلسفة مطالع عصر النهضة، **لم يكن يعرف أياً من اللغة اليونانية– لغة الكتاب الأصلية، أو اللغة السريانية–اللغة الوسيطة** التي تُرجِم منها كتاب أرسطو إلى العربية، وهذا حق.

٢. وإنه استند في ***الشرح الوسيط*** إلى ترجمة تمّت عبر لغة وسيطة هي السريانية، وإذا كانت الترجمة تقوم أساساً على عمليتين متلازمتين هما:

- الفهم والاستيعاب للنص المترجَم من اللغة المصدر، من جهة،
- ثمّ إعادة كتابة هذا الفهم باللغة الهدف، من جهة أخرى،

فإن معنى ذلك أن الرجل يستند في شرحه إلى فهم المترجِم الأول للنص الأصلي المدوَّن باللغة اليونانية وإعادة كتابته لهذا الفهم باللغة السريانية، وإلى فهم المترجِم الثاني للنص السرياني وإعادة كتابته هذا الفهم باللغة العربية، أي أن شرحه بكل بساطة **يبعد مقدار مرحلتين عن حقيقة النص الأصلي**، وأنه في نهاية المطاف لا يعدو كونه **عملية فهم للنص السرياني الـمُعاد كتابته باللغة العربية، ومن ثَمَّ إعادة كتابته، من جانب ابن رشد، ولكن في هذه المرحلة، شرحاً وتلخيصاً محكومَيْن بهدفه الذي يتوخّاه من عمله**، وهو: "**تلخيص ما في كتاب أرسطو طاليس في الشعر من القوانين الكلية المشتركة لجميع الأمم**"(١)، وهذا حق أيضاً.

The Cambridge History of Medieval Philosophy, edited by Robert Pasnau, and Christina Van Dyke, associate editor (Cambridge University Press, Cambridge, 2010), pp. 247-266.

(١) القاضي الأجل، العالم المحصل أبي الوليد بن رشد، "*تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر*" (*الشرح الوسيط*)، في:

==

٣. وإنه كان جاهلاً تاماً بالأدب اليوناني (وبأجناسه الرئيسية: الملحمة، والمسرحية، والشعر الغنائي) الذي صدر عنه أرسطو في نظراته النقدية في مختلف فصول كتابه المركّز، ومن ثَم فإن الطبيعي أن يستغلق عليه فهم بعض هذه النظرات، وألا يتبيّن الأرضية التي انطلق أرسطو منها في تنظيره، وهو ما أشار إليه معظم دارسي ابن رشد، وبخاصة بورخيس، وهذا حق كذلك.

ومعنى هذا أن ابن رشد، قد يبدو للوهلة الأولى، **شريكاً ممكناً في مسؤولية سوء تفسير نظرات أرسطو**، إذ لم يحاول **أن يستدرك ضعفه في هذه الوجوه، ويهيئ نفسه التهيئة المطلوبة للقيام بدور الشارح لنص في أهمية نص أرسطو، الذي يُعدّ بحق "توراة النقد الأدبي"**.

غير أن المرء ربما يميل، من ناحية أخرى، إلى **إشراك مُسهِم، بل ضالِعٍ، ثالث**، غير أنه متقدِّم زمنياً عليه، **في سوء فهم نص أرسطو** هو **أبو بشر متى بن يونس**، الذي لا يمكن وصف عمله في ترجمة كتاب أرسطو بالعمل الكامل الذي لا يأتيه القصور من بين يديه ولا من خلفه. بل إن أقل ما يمكن وصف ترجمته به هي أنها "**ترجمة رديئة**" على حد قول إحسان عباس(١)، الذي يضيف في معرض حديثه عن الأثر الذي تركه النقد اليوناني في النقد العربي القديم في كتابه الصوّة "***تاريخ النقد الأدبي عند العرب: نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري***:

"لدى المطالعة الأولى يستطيع القارئ أن يحكم بأنها ترجمة رديئة، تدلّ على أن بين المترجم والنص حجاباً من عدم الفهم، لأن النماذج الشعرية عند العرب لا تسعف

أرسطوطاليس *في الشعر* مع الترجمة العربية القديمة وشرح الفارابي وابن سينا وابن رشد، ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه عبد الرحمن بدوي (دار الثقافة، بيروت، د. ت.) ص ٢٠١.

(١) الذي قام بترجمة كتاب أرسطو عن اليونانية والإنكليزية استناداً إلى ترجمة بوتشر Butcher المعروفة، ونشرهذه الترجمة في القاهرة عام ١٩٥١م،

عليه، ولأن المصطلح من ثم قاصر على أداء الأصل بدقة. ومع ذلك فإن في هذه الترجمة نفسها مستويات متفاوتة: فبعضها مغلق لا يُفهَم أبداً، لقصور التعبير عن أداء الفكرة قصوراً تاماً، سواء أكان هذا من اضطراب الترجمة أم من تصحيف النُسّاخ؛ وبعضها ذو دلالة واضحة في المعنى ولكنه عسير على التطبيق، ففكرة المحاكاة واضحة في قول المترجم، "وكما أن الناس قد يشبهون بألوان وأشكال كثيرة، أو يحاكون، وذلك من حيث أن بعضهم يشبه بالصناعات ويحاكيها، وبعضهم بالعادات، وقوم آخر منهم بالأصوات – كذلك الصناعات التي وصفناها (يعني الشعر والديثرامب.. إلخ) جميعها تأتي بالتشبيه والحكاية باللحن والقول والنظم". غير أن هذا الوضوح لا يعني أن تطبيق فكرة المحاكاة على الشعر العربي كان أمراً في حيّز التصور أو الإمكان. وقل مثل ذلك في التعبير عن فكرة التطهير (كاثارسيس) "وتعدِّل الانفعالات والتأثيرات بالرحمة والخوف. وتنقي وتنظف الذين ينفعلون"، ولكن أصولها التي يتأتى عنها التطهير غامضة مغلقة لا يفهمها المترجم للكتاب أو قارئه أو المزاول للنقد، ولهذا فإنها تظل فكرة غير ذات جذور. ومن هذه الفكر الواضحة أيضاً الفرق بين الشعر والمؤرخ: "ولذلك صارت صناعة الشعر هي أكثر فلسفية وأكثر في باب ما هي حريصة من أسطورياً (الأمور)، من قبل أن صناعة الشعر هي كلية أكثر، فأما أيسطوريا فإنما تقول وتخبر بالجزئيات".

وبعض مستويات هذه الترجمة واضح في الدلالة ميسّر للتطبيق إلا أنه معتمد على خطأ في التصور والفهم، وذلك كترجمة التراجيديا بالمدح والكوميديا بالهجاء، فإن التطبيق المترتب على هذا الفهم سهل، ولكن الأسس خاطئة، ويمكننا أن نقول إن الخطأ في هذين المصطلحين لم يجرّ فحسب إلى تطبيقات خاطئة من بعد، بل جعل سائر الكتاب غير واضح للقارئ العربي، لأن أكثر كتاب الشعر يدور على مفهومي المأساة والملهاة (وتمثل الملحمة جزءاً صغيراً منه)، وحسبك أن تقرأ قول أرسطو في العقد والحلّ في المأساة على النحو الآتي: "وكل مديح فشيء منها حل وشيء منها رباط... فالرباطات التي من الابتداء إلى هذا الجزء... ومنها يكون العبور إما إلى النجاح

والفلاح وإما لا نجاح ولا فلاح، وأما الانحلال (الحلّ) فهو ما كان من أول العبور إلى آخره، حتى تعجب كيف يمكن لأي ناقد أن يتناول هذا المبدأ فيطبقه على شعر المديح"[1].

ومعنى هذا أن هذا المسهم الثالث تخطّى مسبقاً المترجمَ هرمان الألماني، والشارحَ ابن رشد، في حجم إساءته إلى نص أرسطو، ففضلاً عن **ضعف لغته العربية التي يشهد عليه بها معظم دارسيه**[2]، فإن الرجل **لم يتقن عمله بوصفه مترجماً لنص أساسي في نظرية الأدب**، إذ أضاف، إلى ترجمته لهذا النص عن لغة وسيطة هي السريانية، **جهلَه المطبق بالأدب اليوناني**، مصدر آراء أرسطو كلها في الأدب طبيعة ووظيفة وحدوداً، وأجناساً، مما ترك تأثيراً غير محمود في ترجمته لكتاب أرسطو، وجعله مسؤولاً عن سوء فهم الكتاب في المقام الأول.

غير أن الـمُكبِرين لعمل ابن رشد، وهم كثر، ومن غير العرب أيضاً، والمقدِّرين غايةَ التقدير **للدور الذي أداه في تطوير نظرية الأدب الغربية في أواخر العصور الوسطى وبدايات عصر النهضة**، ، والذي تحقَّق من خلال ترجمة هرمان الألماني لـ ***الشرح الوسيط***، لا يعدمون ما يدافعون به عنه بالإشارة إلى عدة أمور:

---

(١) انظر: الدكتور إحسان عباس، "*تاريخ النقد الأدبي عند العربي: نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري*، طبعة مزيدة ومنقحة (دار الشروق، عمان، ١٩٩٣)، ص ص ١٧٥-١٧٧.

(٢) يذكر أبو حيان التوحيدي في "*الإمتاع والمؤانسة*" أن متى بن يونس "كان يملي ورقة بدرهم مقتدري وهو سكران لا يعقل، ويتهكم، وعنده أنه في ربح، وهو من الأخسرين أعمالاً، الأسفلين أحوالاً"، ويدلل على ضعف لغة هذا الأخير من خلال عرضه لمناظرة أبي سعيد السيرافي معه في "الليلة الثامنة" (انظر: كتاب *الإمتاع والمؤانسة*، تأليف أبي حيان التوحيدي، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار الحياة، بيروت، د. ت.، الجزء الأول ص ١٠٧، وص ص ١٠٧-١٢٨)، ويعلق عبد الفتاح كيليطو على رأي أبي حيان في متى بن يونس، فيقول إنه ينبغي التعامل مع كلامه بشيء من الحذر، "فالتوحيدي أكبر هجّاء عرفه الأدب العربي، بل يمكن اعتباره أسلط لساناً من الحطيئة. إلا أننا عندما نقرأ ترجمة متى لـ *فن الشعر*، لا نملك إلا أن نميل إلى ما يقوله أبو حيان عنه. إنها ترجمة ركيكة منفرة، وكلامها يكاد يكون شبيهاً بهذيان المخمورين والموسوسين" (انظر: عبد الفتاح كيليطو، *لن تتكلم لغتي*، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٢، ص ١١٠).

أولها أن ابن رشد كان معنياً أساساً باستخلاص "**ما في كتاب أرسطوطاليس *فن الشعر* من القوانين الكلية المشتركة لجميع الأمم، أو للأكثر**"[1]، **وشرحها، ولم يكن همه شرح أفكار أرسطوطاليس الواردة في كتابه أو تقديم عرض ملخص لها، "إذ كثير مما فيه هي قوانين خاصة" بأشعار اليونانيين، وعادتهم فيه. وهذه القوانين الخاصة قد تكون موجودة بِنِسَب معينة في كلام العرب، أو في غيره من الألسنة،** غير أنها لا تعنيه لأنه **يبحث عن العام والكلي والمشترك الذي يمكن أن يفيد منه العرب وغيرهم.** ومعنى هذا أن ابن رشد كان يسعى في تلخيصه إلى **تجاوز آراء أرسطوطاليس، التي صدر فيها عن الأدب اليوناني، والخروج منها، وعليها، إلى قوانين للشعر تصلح لكل زمان ومكان، بالإفادة مما تنطوي عليه من إمكانات قد تكون موجودة بالقوة في** آراء أرسطو، **ولم يكن على الإطلاق معنياً بفن المسرحية، بشكلها اليوناني، الذي لم يسبق له أن اطلع عليه، أو خَبِرَه على أي صورة من الصور.**

يكتب ابن رشد مختتماً تلخيصه فيقول:

"فهذا هو جملة ما تأدى إلى فهمنا مما ذكره أرسطو في كتابه هذا من **الأقاويل المشتركة لجميع أصناف الشعر والخاصة بالمديح، أعني المشتركة منها أيضاً للأكثر أو للجميع.**

وسائر ما ذكره في كتابه هذا من الفصول التي بين سائر أصناف الشعر عندهم وبين صنف المديح فهو **خاصٌ بهم**، ومع ذلك فلسنا نجده ذكر من ذلك في هذا

(١) القاضي الأجل، العالم المحصل أبي الوليد بن رشد، "*تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر*" (*الشرح الوسيط*)، في:

أرسطوطاليس، *فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد*، ترجمه عن اليونانية وشرحه عبد الرحمن بدوي (دار الثقافة، بيروت، د. ت.) ص ٢٠١.

الكتاب الواصل إلينا إلا بعض ذلك. وذلك يدل على أن هذا الكتاب لم يُترجَم على التمام، وأنه بقي منه التكلّم في سائر فصول أصناف كثير من الأشعار التي عندهم. وقد كان هو قد وعد بالتكلم في هذه كلها في صدر كتابه. والذي نقص مما هو مشترك هو التكلم في صناعة الهجاء. لكن يشبه أن يكون الوقوف على ذلك بقرب من الأشياء التي قُبِلت في باب المديح، إذ كانت الأضداد يُعرَف بعضها من بعض.

وأنت تَبَيّن إذا وقفتَ على ما كتبناه هاهنا، أن ما شعر به أهل لساننا من القوانين الشعرية بالإضافة إلى ما في كتاب أرسطو هذا وفي كتاب "*الخطابة*" نزر يسير كما يقوله أبو نصر. وليس يخفى عليك أيضاً كيف ترجع تلك القوانين إلى هذه، ولا ما ذكروا من ذلك على وجه الصواب مما ذكر على غير ذلك"(١).

وثانيها: أن ابن رشد فيلسوف عربي، مثقف ثقافة عالية بآداب قومه، وبوصفه كذلك فإنه يرى نفسه **مؤهَّلاً للقيام باستخلاص "القوانين الكلية المشتركة لجميع الأمم"، استناداً إلى هذه الثقافة الأدبية من جهة، وإلى مكانة فن الشعر في الحياة العربية من جهة أخرى،** إذ كان علم قوم لم يكن لهم من العلم سواه، وإلى اعتداده بسمو هذا الفن على المستوى الإنساني.

وثالثها: أن ابن رشد، بصرف النظر عن إمكانات ترجمة نصه إلى لغات أخرى، يتوجه بتلخيصه نحو قارئ عربي، ذلك أن **اللغات الرئيسية السائدة في عالَم ابن رشد لم تكن غير العربية، واللاتينية، واليونانية،** وقد **كانت العربية آنذاك:**

- **لغة العلم والمعرفة والأدب،**

---

(١) انظر: "*تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر*"، تأليف القاضي الأجل، العالم المحصل أبي الوليد بن رشد (الشرح الوسيط) في: أرسطوطاليس، *فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد*، ترجمه عن اليونانية وشرحه عبد الرحمن بدوي (دار الثقافة، بيروت، د. ت.) ص ٢٥٠.

- **واللغة المشتركة Lingua Franca لعالَم العصور الوسطى ومطالع عصر النهضة**، ولم تكن العاميات اللاتينية المختلفة قد بدأت بعد في الظهور في المشهد المعرفي والأدبي الأوربي، ومن ثَمَّ لم تكن بعدُ قادرةً على منافسة العربية سواء أكان ذلك في مملكة العلم والمعرفة والأدب، أم في عالم الحياة.

ورابعها: أن ابن رشد كان **معنياً بتطوير الشعر العربي من خلال استخلاصه للقوانين العامة والكلية المشتركة، وإظهار وثاقة صلتها بهذا الشعر**، وتوضيح فرص الإفادة منها عملياً بِشفعها بالكثير من الأمثلة من الشعر العربي و ***القرآن الكريم*** بلغ عددها ٦٨ مثالاً، يقتصر بعضها على بيت واحد، ويمتد بعضها ليبلغ ستة أبيات، وينفسح مجالها الزمني بين العصر الجاهلي وعصر ابن رشد.

وخامسها: أن ابن رشد، وعلى الرغم من أنه يعتمد على ترجمة: (١) مُنتَقَدة على نحو واسع، و(٢) تمت على لغة وسيطة، لم يكن معنياً بالترجمة أساساً، بل كان كل همه **استخلاص القونين العامة الكلية الشاملة للشعر التي يمكن أن يفيد منها الشعر العربي ليؤدي وظيفته الأخلاقية في المجتمعات العربية – الإسلامية (العربية لساناً، والمنضوية تحت راية الإسلام)، بوصف الشعر جزءاً من المنطق قادراً، من خلال فنّيته، على الإقناع بتبني القيم الأخلاقية التي يحرص عليها.**

وسادسها: أن ابن رشد كان يمارس نشاطاً له تاريخه في الثقافة العربية هو تقليد "الشرح" commentary، الذي يسعى الشارح من خلاله إلى تقديم إسهامه في الحقل المعرفي الذي ينتمي إليه "المتن" المشروح، وأن ممارسته هذه كانت على درجة من الإتقان أكسبته لقب "شارح الفيلسوف" في الغرب اللاتيني.

وعلى أي حال، فإنه مهما كان من شأن هذه الترجمة ومنتقديها، وهذا الشرح/التلخيص الوسيط ومنتقديه أيضاً، فإن المرء لا يسعه إلا أن يذكِّر بأن هذا الشرح قد خلّف تأثيراً مهماً في النقد العربي القديم، وتأثيراً أكبر، وأوسع، وأهم في النقد

الأوربي على مدى أربعة قرون ونيف. ذلك أن انشغال أوروبا والغرب عامة بـ ***التلخيص الوسيط*** لابن رشد، وشروحه لكتب أرسطو التي ترجم معظمها إلى اللاتينية والعبرية في أواخر العصور الوسطى لم ينقطع. غير أن اعتماد الثقافة الغربية كان باستمرار على الترجمة اللاتينية لهرمانوس أليمانوس أو هرمان الألماني، وعلى ترجمة هارديسون لترجمة هرمانوس إلى اللغة الإنكليزية، إلى أن قام تشارلز إي. بَتَرووُرث Charles Butterworth .E بترجمة الشرح الوسيط لابن رشد إلى اللغة الإنكليزية من اللغة العربية مباشرة (عن طبعة[١]، أسهم هو نفسه في تحقيقها مع الباحث المصري أحمد عبد المجيد هريدي نشرت في القاهرة عام ١٩٨٦) صدرت عن **مطبعة جامعة برنستون** عام ١٩٨٦، تضمنت مقدمة، ومدخلاً، وفصلاً عن نظام المحاجة لدى ابن رشد، إلى جانب ترجمة دقيقة لنص ***التلخيص الوسيط***، وببليوغرافيا شاملة، ومسرداً عربياً-إنكليزياً لمصطلحه، وآخر إنكليزياً-عربياً، يُيَسِّران متابعة ترجمة بتروورث المتّسقة والمتقَنة، خاصة وأنها صدرت عن عالم خبير بشروح ابن رشد كرّس حياته لترجمتها[٢].

وفضلاً على حرفية ترجمة هرمان، وسوء فهمه للنص الرشدي، وجهله بالأدب العربي والذي يتجلى بشكل خاص في ترجماته الركيكة للشواهد الشعرية التي تضمنها نص ابن رشد، فإن ترجمة هارديسون[٣] لنص هرمان، وإن كانت مُتقَنة، غير أنها

---

(١) ابن رشد، *تلخيص كتاب الشعر*، تحقيق الدكتور تشارلز بتروث والدكتور أحمد عبد المجيد هريدي (الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٦).

(٢) انظر:

Averroes' Middle Commentary on Aristotle's Poetics,
Translated, with Introduction and Notes by Charles E. Butterworth
(Princeton University Press, Princeton, 1986).

(٣) انظر ترجمته لنص هرمان الألماني في:

Classical and Medieval Literary Criticism: Translations and Interpretations,
edited by Alex Preminger, O. B. Hardison, Jr. Kevin Kerrane
(Fredrick Unger Publishing Co., New York, 1974), pp. 349-382.

وانظر كذلك مقدمته للترجمة في الصفحات: (٣٤١-٣٤٨) من المرجع السابق.

مؤسَّسة على نص تَسبّب في تقديم صورة غير صحيحة عن فهم ابن رشد لأرسطو، ومن ثَمَّ في إصدار أحكام غير مسوَّغة على أفكار الفيلسوف العربي، بَلْهَ السخرية منه من جانب إرنست رينان على سبيل المثال[1]، أو التعريض بجهله بالمسرحية اليونانية، وإن كان ذلك على نحو راق ومهذب، من جانب خورخي لوي بورخيس في القرن العشرين[2].

والسؤال الذي يتبادر إلى ذهن المرء في ضوء ما تقدم من عرض للظروف المحيطة بتلقي نص ابن رشد، هو كيف يُمكنه أن يقارب ***الشرح الوسيط*** لكتاب ***فن الشعر*** لأرسطو الذي **ألّفه** الرجل؟

هل يَتدبَّره بوصفه نسخة مختصرة من كتاب المعلم الأول بمعنى أنه تكثيف لآراء أرسطو في الشعر، ويقارن ما ورد فيه بما جاء في كتاب أرسطو، ويُحدّد مقدار تمثُّله واختزاله له، وماذا أحاط به، وماذا فاته، وبعدها يحكم على عمل ابن رشد إيجاباً أو سلباً بمدى قربه أو بعده من الإحاطة بجوهر النص-المصدر، ثم يسعى إلى الدفاع عن الرجل ويلتمس له الأعذار في حالة وجده مخطئاً في نقله لآراء أرسطو، أو يُقرِّعَه على أنه لم يقم بالمهمة التي تصدى لها خير قيام لأنه لم يكن مؤهلاً لها في الأساس؟

---

(١) انظر: إرنست رينان، *ابن رشد والرشدية*، نقله إلى العربية عادل زعيتر(دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٥٧).

(٢) انظر:

Borges, Jorge Luis, "Averroes's Search", in:
Labyrinths, Edited by Donald A. Yeats and James E. Irby, Preface by Andre Maurois, (Penguin Books, Middlesex, 1970), pp.180-188.

وانظر ترجمتين عربيتين للنص في:

خ. ل بورخيس، *المرايا والمتاهات: قصص*، ترجمة: إبراهيم الخطيب، (دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ١٩٨٧)، ص ص ٢٠-٢٧؛ وبورخيس، "ابن رشد واقتفاء المعنى"، في: عيسى مخلوف، *الأحلام المشرقية: بورخيس في متاهات "ألف ليلة وليلة"*، (دار النهار، بيروت، ١٩٩٦)، ص ص ١٢١-١٣٢.

أم يُقاربه **مقاربة الدارس لـ شارح الفيلسوف، كما كان ابن رشد يُدعى في أوروبا، وينظر إلى مدى دقة فهمه لآراء أرسطو، وإلى درجة إفصاحه عن هذا الفهم**، ومن ثَم يحكم على مدى نجاحه أو إخفاقه في تقريب آراء الفيلسوف في الشعر من قُرّاء العربية؟ أي مدى توفيقه في سعيه إلى توطين أفكار هذا *"الآخر" في الثقافة- الهدف، أي الثقافة العربية، التي فتحت ذراعيه لها منذ عهد بعيد.*

أم يتدبَّرُه بوصفه **حالة من حالات التلقي المثيرة (بالنسبة لنقاد استجابات القارئ) لنص من نصوص "الآخر"، نصٍ قديم، تَعاوَرَه أكثر من مُترجم، وتناقلته أكثر من لغة، وارتحل عبر الزمان والمكان، وظفر بما ظفر من اهتمام من جانب الفلاسفة، والكُتّاب، والمفكرين، بل والأطباء، والشعراء، فيدرسَه بوصفه نصاً منقولاً عن لغة وسيطة هي اللغة السريانية، التي استضافته قادِماً من عالَم اليونانية من نسخة، تُعدُّ الأقدم من نصوصه المخطوطة المتاحة، وأَسَرَتْه لغةٌ هدفٌ هي اللغة العربية، احتضنته لزمن على يد مترجم لم يكن ذا لغة عربية عالية، أو لغة عربية فصحى، ولم يظفر باستحسان من عاد إلى نسخته التي قدّمها للمكتبة العربية؟**

وعندها سوف يجد نفسه أمام ضرورة أن ينظر في أصول هذا النص في لغته الأم، وأن يدرس بعدها سبل انتقاله من اللغة المصدر (اللغة اليونانية القديمة) إلى اللغة الوسيطة (اللغة السريانية السائدة في العصور الوسطى) إلى اللغة الهدف (العربية السائدة في الفترات الإسلامية الأولى: الفترة الأموية ثم العباسية) ويتدبّر كذلك ما طرأ عليه من تحولات في أثناء إقامته القصيرة والمؤقتة في الثقافة السريانية، ثم في أثناء إقامته الممتدة في الثقافة العربية الوسيطة وخلال فترة انتشاره على مدى قرون عديدة منذ ترجمته في القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي. ثم أن يبحث بعد كل ما تقدم في موجبات نقله وانتشاره، ويُخمّن أو يستكشف الإمكانات التي وعد بها المنشغلين به في الثقافة العربيّة ويُقدّر الحاجات التي توسم هؤلاء أنه يمكن أن يلبيها.

ثم إن عليه أخيراً أن ينظر في متلقّي نص أرسطو: في مؤهلاتهم اللغوية والأدبية والثقافية والفكرية، وفي أهدافهم التي توخّوها من هذا التلقّي لنصه، ثمّ في القارئ الضمني، أو الافتراضي المستهدَف من حصيلة هذا التلقي سواء أتجلّت في ترجمة أم في شرح أم في غير ذلك.

واختيار منظور من هذه المنظورات يعني الكثير مما يمكن أن يؤخذ بالحسبان في مسألة تقويم عمل ابن رشد، والحكم عليه. ويجعل تقويم كل من طه حسين، وعبد الرحمن بدوي، وأمجد الطرابلسي، وعبد الفتاح كيليطو لإسهام الرجل في شرحه الوسيط غير ذي صلة.

ولما كان عمل ابن رشد قد انتقل إلى الغرب عن طريق **لغة رابعة هي اللغة اللاتينية**، من جانب مترجم ملمٍّ باللغة العربية[(١)] وعالمٍ باللاتينية، **دون أن يكون ملماً على نحوٍ كاف بالثقافة العربية**، فربما بدا من المستغرب أن يحتفظ هذا العمل **بمرجعية تكاد تكون مطلقة في النقد الغربي نحواً من أربعة قرون**. والحقيقة أن بإمكاننا أن نفيد الكثير من دراسة انتشاره وتلقيه في الغرب عندما ننظر إلى تأثير عمل ابن رشد في الثقافة العربية بوصفه واحداً من أبرز النقاد-الفلاسفة في تاريخ النقد العربي القديم.

والآن كيف يمكن أن ننظر إلى عمل ابن رشد في "تلخيصه" لكتاب ***فن الشعر*** لأرسطو؟

هل كان عمله **عمل الملخِّص الدقيق لعملٍ مترجَمٍ بدقة يمكن الاطمئنان إلى دقة محتواه؟**

---

(١) يقرّ هرمان الألماني لروجر بيكون Roger Bacon بأنه في ترجماته تلقى المساعدة من العرب the Saracens الذين قادوا الطريق وأنه كان مجرد مساعد لهم. وانظر تفاصيل ذلك في:

Rebecca Gould, "The Poetics from Athens to al-Andalus: Ibn Rushd's Grounds for Comparison", *Modern Philology*, ١١٢ (1), pp. (1-25), 2014, p.1, footnote no. 1.

هل كان عمله **قراءة متمعنة تُعنى باستخلاص ما يفيد الثقافة العربية عامة، والثقافة العربية الأندلسية خاصة؟**

ماهي طبيعة **قارئ العربية الذي** كان **يتوجه ابن رشد بعمله نحوه، وما مستوى وعي هذا القارئ المقصود بنص ابن رشد؟** هل هو القارئ المثقف؟ هل هم الشعراء والكُتّاب العرب المعاصرون له؟ هل هم رجال بلاط الموحدين من النخبة التي ترعاها المؤسسة الحاكمة؟ أم هم العاملون العرب والمسلمون في ميدان الفلسفة التي بلغت مستوى معيناً من الرقي والوعي بهويتها العربية-الإسلامية؟

في محاولة الإجابة عمّا تقدَّم من تساؤلات يمكن أن يشير المرء إلى ما يلي:

١) صحيح أن ابن رشد وسم كتابه بـ "***التلخيص الوسيط***"، ولكن **عمله، كما يمكن أن يبدو لمتفحِّصه من منظور سياقي-مقارن Contextual-Comparative Perspective، لم يكن تلخيصاً للكتاب،** وليس ذلك لأن "الترجمة" التي بين يديه، و"تلخيصاتِ" من سبقه، لا يمكن الركون إلى دقة أي منها، فالترجمات كانت عن **طريق لغة وسيطة هي السريانية،** وتمّت على أيدي مترجمين يجهلون **اليونانية والأدب اليوناني، ولاسيما المسرحية،** وأما التلخيصات فقد قام بها فلاسفة مسلمون **لا يعرفون اليونانية، ولا السريانية، ولا الأدب اليوناني،** فضلاً عن أن كلاً منها كان **محكوماً بأغراض محددة أراد الملخِّص تحقيقها.** وكذلك فإنها جميعاً كانت موجّهة إلى **جمهور قارئ للعربية،** ومعني بقضايا الفكر اليوناني، ومسألة العلاقة بين النقل والعقل، بين العقيدة والإيمان من جهة، والفلسفة العقلانية الأرسطية من جهة أخرى. نعم إن مما يؤكد أن عمل ابن رشد ليس تلخيصاً أنه كان **موجهاً لقارئ عربي، ولجمهور محدد معني بمسألة الصلة ما بين الإسلام والفلسفة الأرسطية، وهو ما كان يسعى ابن رشد إلى تأكيده من خلال إلحاحه على أنه ليس ثمة من تناقض بينهما، لأن كليهما يقود إلى الحقيقة.** وهو ما كان يتوخاه من مشروعه الفلسفي. وكذلك فإن ما قام به

كان استجابة لطلب أمير الموحدين المتنوِّر في قرطبة عندما قدمه له صديقه ابن طفيل عام ١١٥٣، ومحاولة للإجابة عن تساؤلاته.

٢) وربما كانت الإشارة إلى رأي متلقّيه من الأوربيين مهمة في هذا السياق، فقد كانوا يدعونه بـ "**شارح الفيلسوف**" مما يرجح أن عمل ابن رشد **كان شرحاً ينهض به أبرز فلاسفة المسلمين لنصوص أبرز فلاسفة الغرب.**

٣) ما دام عمل ابن رشد **ليس تلخيصاً فعلياً لنص أرسطو بمقدار كونه شرحاً،** فقد كان من الطبيعي أن يكون محكوماً بمشروعه الفلسفي التنويري، وهو **تخليص أفكار أرسطو من رواسب التفسيرات الأفلاطونية المحدثة، وتأكيد انسجام التفكير الفلسفي العقلاني مع العقيدة الإسلامية.**

٤) وكذلك فإن **تكوين ابن رشد الذي يشي باهتمام واسع بالشعر العربي** ومعرفة معمقة **بالشعرية العربية** Arabic Poetics، سيجعلانه يصرف همه، في قراءته لفن الشعر الأرسطي، إلى **استخلاص ما يفيد الثقافة العربية عامة من استبصارات أرسطية، وما يمكن أن ينتفع به الشعراء والكتاب والتضاد العرب في الأندلس بشكل خاص،** ولم يكن يفكر في تلقي أفكاره في أوروبا، أو في ترجمتها، خاصة وأنه كان يعيش في العصر الذهبي للثقافة العربية في الأندلس، وكان له من الثقة بهذه الثقافة ما يجعله لا يهاب مواجهة نص أرسطو، أو يخشى ما يدعوه هارولد بلوم "***قلق التأثير***" ***Anxiety of Influence***، ولا يأبه كذلك بسُلطة المعلم الأول، إذ كان معنياً أساساً بالإسهام في تأسيس تقليد فلسفي عربي-إسلامي، يفيد من موروث "الآخر"، دون أن يخضع لسلطانة أو يستسلم لأفكاره ومقولاته، التي قد لا تتفق مع التقاليد العربية-الإسلامية الفكرية والأدبية.

٥) وابن رشد كان يقصد بنصّه بالتأكيد متلقياً عربياً لتلخيصه/شرحه يضم طيفاً يشمل:

a. بلاط الموحدين في قرطبة، وما يجتمع فيه من أمراء، وفلاسفة، وكتاب، وشعراء، وفقهاء، وقضاة، من المسلمين والمسيحيين واليهود، ومن العرب والبربر والإسبان والأوربيين.

b. الطبقة المثقفة الأندلسية-المتعددة الأجناس واللغات والأديان والثقافات والتي كانت تنعم بالعيش المشترك، وفي ظل نزعة قبول "الآخر" المختلف، والحرص على التنوع الخلّاق.

c. النخبة من العاملين في التأليف الفلسفي في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، ولا ينسى المرء في هذا المقام مناظرات ابن رشد مع الغزالي، ومؤلفه "***تهافت التهافت***" الذي رد فيه على كتاب الأخير الموسوم بـ "***تهافت الفلاسفة***"

٦) لقد قدّم ابن رشد "قراءته" للترجمة التي قام بها متى بن يونس وغيره لنص أرسطو، ودوّن بعد ذلك فهمه لها، وآراءه فيها، واضعاً في ذهنه ما يمكن أن يقدمه النص الأرسطي لمشروعه في تأسيس فلسفة عربية إسلامية، وما يمكن أن ينطوي عليه من استبصارات مفيدة للثقافة العربية الأندلسية بشكل خاص، والثقافة العربية عموماً. ولذلك فإن في النظر إلى نصه على أنه مجرد تلخيص، أو خلاصة للنص الأرسطي **اختزالاً لإسهامه في خدمة نص كلاسيكي أحدث فهمه له ثورة في النقد الأوربي، وهيمن على ممارساته أكثر من أربعة قرون، أي أن تأثير هذا التلخيص/الشرح امتد أكثر من تأثير كتاب أرسطو نفسه الذي لا يتعدى القرنين والنصف على أبعد حد.**

٧) فضلاً على أن النص الأصلي لأرسطو قد تعرض للكثير مما يضعف نصيته:

- من التشظي الناجم عن كونه مذكِّرات مدرسٍ أعدّها لمحاضراته التي ألقاها على تلامذته؛
- ومن كون مخطوطاته متأخرة زمنياً عن زمن تأليفه هذه المذكرات؛
- ومن الترجمات الوسيطة (الترجمة العربية للكتاب كانت عن السريانية، وترجمة ***التلخيص الوسيط***، الذي أُعتقِد من جانب بعض الدارسين العرب والغربيين

أنه مجرّد تلخيص لـ ***فن الشعر*** الأرسطي، إلى اللغة اللاتينية كانت عن طريق العربية، والترجمة الإنكليزية الأولى لهاردیسون كانت عن طريق اللغة اللاتينية).

الخاتمة:

الحقيقة أن ***"التلخيص الوسيط"*** ينبغي أن يُدرَس ويُفهَم ضمن منظور مقارَن، يُفيد بشكل خاص من مقولة إدوارد سعيد في "**النظرية المتنقلة**" **Travelling Theory**، أو "**انتقال النظرية**"، ويضع في حسبانه تحوّلات النص الأرسطي الناجمة عن السعي إلى تلبية الحاجات الفكرية للمجتمعات التي تلقّت هذا النص، وعن الإمكانات المتاحة لها. وبعبارة أخرى إنه ينبغي أن يُدرَس ضمن **إطار عبر قومي cross-national framework** لأنه كان **نصاً متنقلاً بين الثقافات والتقاليد الأدبية والنقدية**، ومن **منظور عالَمي لأنه تجاوز في انتشاره حدّي الزمان والمكان، وعائقي اللغة والثقافة**. ولا ريب أن تبني منظور كهذا سيُنصف عمل **شارح الفيلسوف**، إذا ما استعمل المرء وصف الغربيين لابن رشد، وذلك بتدبّره في **سياق عولمة نقدية**، بدأت بنص أرسطو وترجمته إلى السريانية، ثم إلى العربية، ثم إلى اللاتينية، ثم إلى اللغات الأوربية الحديثة، قبل أن يظفر بتحقيق من الطبقة العالية على يد ليوناردو تاران و ديمتري غوتاس.

المصادر والمراجع

- ابن رشد، "***تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر***" تأليف القاضي الأجلّ، العالم المحصل أبي الوليد بن رشد (الشرح الوسيط) في: أرسطوطاليس، ***فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد***، ترجمه عن اليونانية وشرحه عبد الرحمن بدوي (دار الثقافة، بيروت، د. ت.) ص ص ١٩٩-٢٥٠.
- ابن رشد، أبو الوليد، ***تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر*** ومعه ***جوامع الشعر*** للفارابي، تحقيق وتعليق الدكتور مُحمَّد سليم سالم (لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٧١).
- ابن رشد، ***تلخيص كتاب الشعر***، تحقيق الدكتور تشارلز بتروورث والدكتور أحمد عبد المجيد هريدي (الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٦).
- أرسطوطاليس، ***فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد***، ترجمه عن اليونانية وشرحه عبد الرحمن بدوي (دار الثقافة، بيروت، د. ت.).
- أورفوا، دومينيك، ***ابن رشد طموحات مثقف مسلم***، ترجمة مُحمَّد البحري، مراجعة سعود المولى (المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠١١).
- بورخيس، خ. ل ، "بحث ابن رشد"، في: خ. ل بورخيس، ***المرايا والمتاهات: قصص***، ترجمة: إبراهيم الخطيب، (دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ١٩٨٧)، ص ص ٢٠-٢٧.
- بورخيس، "ابن رشد واقتفاء المعنى"، في: عيسى مخلوف، ***الأحلام المشرقية: بورخيس في متاهات "ألف ليلة وليلة"***، (دار النهار، بيروت، ١٩٩٦)، ص ص ١٢١-١٣٢.
- التوحيدي، أبو حيان، ***الإمتاع والمؤانسة***، تأليف أبي حيان التوحيدي، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، (منشورات دار الحياة، بيروت، د. ت.).
- رينان، إرنست، ***ابن رشد والرشدية***، نقله إلى العربية عادل زعيتر(دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٥٧).
- عباس، الدكتور إحسان ، "***تاريخ النقد الأدبي عند العربي: نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري***، طبعة مزيدة ومنقحة (دار الشروق، عمان، ١٩٩٣).
- كيليطو، عبد الفتاح، ***لن تتكلم لغتي***، (دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٢).
- منصور، أشرف، ***ابن رشد في مرايا الفلسفة الغربية الحديثة*** (مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط-بيروت، ٢٠١٨).

- Adamson, Peter and Matteo Di Giovanni (Editors), ***Interpreting Averroes: Critical Essays***, (Cambridge University Press, Cambridge, 2019).
- Akasoy, Anna, and Guido Giglioni (editors), ***Renaissance Averroism and Its Aftermath: Arabic Philosophy in Early Modern Europe***, (International Archives of the History of Ideas, Springer, 2013).
- ***Averroës and the Rational Legacy in the East and the West***, ***Alif: Journal of Comparative Poetics*** (No. 16-1996).
- Burnett, Charles, "Petrarch and Averroes: An Episode in the History of Poetics", in: ***The Medieval Mind: Hispanic Studies in Honour of Alan Deyermond***, Edited by Ian MacPherson and Ralph Penny (Tamesis, London, 1977).
- Burnett, Charles, "Arabic into Latin: the Reception of Arabic Philosophy into Western Europe", in: ***The Cambridge Companion to Arabic Philosophy***, Edited by Peter Adamson and Richard C. Taylor (Cambridge University Press, Cambridge, 2005), pp. 370-404.
- Butterworth, Charles E., (translator and editor), ***Averroes' Middle Commentary on Aristotle's Poetics,*** Translated, with Introduction and Notes by Charles E. Butterworth (Princeton University Press, Princeton, 1986).
- Gould, Rebecca, "The Poetics from Athens to al-Andalus: Ibn Rushd's Grounds for Comparison", ***Modern Philology***,112 (1), 2014, pp. (1-25).
- Gutas, Dimitri, ***Greek Thought. Arabic Culture: The Graeco–Arabic Translation Movement in Baghdad and the Early Abbāsid Society (2nd–4th/8th–10th Century),*** Routledge, London-New York, 1998).
- Habib, M. A. R., ***A History of Literary Criticism from Plato to thePresent*** (Blackwell, Oxford, 2005), p. 212;
- Hardison, Jr., O. B., "Medieval Literary Criticism", in:

Classical and Medieval Literary Criticism: Translations and Interpretations, edited by Alex Preminger, O. B. Hardison, Jr. Kevin

Kerrane (Fredrick Unger Publishing Co., New York, 1974), pp. 349-382.

- Hesse, Dag Nikolaus, "Arabic Philosophy and Averroism", in:

  The Cambridge Companion to Renaissance Philosophy, Edited by James Hankins (Cambridge University Press, Cambridge, 2007), pp. 113-133.
- Mallette, Karla, "Beyond Mimesis: Aristotle's ***Poetics*** in the Medieval Mediterranean", ***PMLA***, 124.2, 2009, pp. 583-590;
- Preminger, Alex, et al., ***Classical and Medieval Literary Criticism: Translations and Interpretations***, edited by Alex Preminger, O. B. Hardison, Jr. Kevin Kerrane (Fredrick Unger Publishing Co., New York, 1974).
- Tamamy, Saud M. S. al, ***Averroes, Kant and the Origins of the Enlightenment: Reason and Revelation in Arab Thought*** (I. B. Tauris, London & New York, 2014).
- Tarán, Leonardo / Dimitri Gutas (eds.), ***Aristotle Poetics. Editio Maior of the Greek Text with Historical Introductions and Philological Commentaries*** (Brill Academic Publishers, Leiden /Boston / Tokyo: 2012).
- Wood, Rega, "The influence of Arabic Aristotelianism on scholastic natural philosophy: projectile motion, the place of the universe, and elemental composition", in: ***The Cambridge History of Medieval Philosophy,*** edited by Robert Pasnau, and Christina Van Dyke, associate editor (Cambridge University Press, Cambridge, 2010), pp. 247-266.

التراث العربي
العدد المزدوج (١٥٩-١٦٠)/ خريف - شتاء/٢٠٢٠- ٢٠٢١

الرجز والمثل

د. محمد هيثم غرة*

الملخّص:
الأمثال وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعاني وهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة كما قال ابن عبد ربّه.
وكانت حاجة العرب إلى الأمثال شديدة، ذلك أنّها وضعت لأسباب أوجبتها وحوادث اقتضتها وقصص أظهرتها فصار المثل المضروب لأمر من الأمور كالعلامة التي يعرف بها الشيء.
إنّ المثل حكاية متكاملة عُبّر عنها بكلمات موجزة وعبارات غاية في البلاغة، وهو ضربان شعر ونثر، وقد وافقت كثير من الأمثال النثريّة بعض أوزان الشعر العربيّ ولاسيّما الرجز فانسجمت مع وزنه بصوره المختلفة وذلك بنسبة تجاوزت السبعين بالمئة ممّا ثبّت فكرة أنّ الرجز أسهل بحور الشعر وأكثرها طواعية ومرونة وتناغماً مع الكلام العربيّ، أراد البحث أن يقدّم أمثلة على ذلك ليصحّ ما ذهب إليه ويدلّ عليه.

الكلمات المفتاحية:
الرجز - والمَثَل - بحور الشعر

---

* عضو هيئة تدريسيّة في جامعة دمشق.

حقيقة الرجز لغة:

الراء والجيم عند ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) أصل يدلّ على الاضطراب وهو مطّرد منقاس، يقال: كتيبة رجراجة تمخض لا تكاد تسير، وجارية رجراجة: يترجرج كفلها... ويقال للضعفاء من الرجال: الرَّجاج.(١)

والرجز داء يصيب الإبل في أعجازها، والرجز أن تضطرب رجل البعير أو فخذاه إذا أراد القيام، وناقة رجزاء ضعيفة العجز إذا نهضت من مبركها لم تستقلّ إلّا بعد نهضتين أو ثلاث.(٢)

وتجمع كتب اللغة ومعجماتها على أنّ في الرجز معنى الاضطراب والضعف، وقد يُظنّ أنّ هذا المعنى ينسحب على الرجز الذي أريده في هذا البحث.

وهو أحد بحور الشعر العربيّ القائم في دائرته دائرة المشتبه على مستفعلن ستّ مرّات، وقد سئل الخليل: لم سمّيت الرجز رجزاً؟ قال: لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عند القيام.(٣)

وقال العلماء: سميّ كذلك لأنّه أكثر بحور الشعر العربيّ تغيّراً واضطراباً وزحافاً وعلّة وشطراً وجزءاً ونهكاً.(٤)

وهم ينظرون إلى الصور المختلفة التي يُنظم عليها فيكون تامّاً ومجزوءاً ومشطوراً ومنهوكاً، والاختلافات أو الجوازات التي تعتري تفعيلة (مستفعلن) فتجيء صحيحة (مستفعلن) ومخبونة (متفعلن) ومطويّة (مستعلن)، أو تجيء مخبولة (فعلتن) ومن شأن الأخيرة وقد اعتراها الخبل أن تخلّ بالوزن الذي جاءت فيه وتزيل كثيراً من حلاوته

(١) مقاييس اللغة: رجّ

(٢) لسان العرب والقاموس المحيط: رجز

(٣) العمدة ١/١٠٠ .

(٤) ينظر علم العروض وتطبيقاته ص١٣١.

وتناسبه.[١] منها (قَلَبَ لي) في الموشّح المعروف (أفديه ظبياً) إذ يقول صاحبه:[٢]

بدر إذا ما الليل جنّ وازداد بي فيه الشجنْ

قَلَبَ لي ظهر المجنّ

ثمّ اعتزل وقد أزل

أقدام صبري بالملل

وقد تباينت آراء العلماء والباحثين في الرجز، فبعضهم يعدّه من الشعر وآخر يلحقه بالسجع، وثالث يقول: إنّه ليس من الشعر وينسب هذا الرأي إلى الخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ) فقد جاء في لسان العرب نقلاً عن التهذيب قوله: وزعم الخليل أنّ الرجز ليس بشعر وإنّما هو أنصاف أبيات وأثلاث ودليل الخليل في ذلك ما روي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في إنشاده بيت طرفة على الصورة التالية:

ستبدي لك الأيّام ما كنت جاهلاً ويأتيك من لم تزوّد بالأخبار

قال الخليل: لو كان نصف البيت شعراً ما جرى على لسان النبيّ.[٣]

يشير الخليل إلى تنزيه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن أن يقول شعراً قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ يس ٦٩.

وكأنّ فيما ذكر اللسان شيئاً من التعارض، فابن منظور يقول قبل سطرين من ذلك (وهو عند الخليل شعر صحيح).[٤] ولن أتدخّل كثيراً في هذه التفاصيل والاختلافات لأنّ البحث لا يقتضي ذلك، ولكنّي أقول: إنّ مرونة تفعيلات الرجز يسّرت انسجام كثير من الكلام العربيّ معها، حتّى بعض ما جاء في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى:

---

(١) منهاج البلغاء ص٢٦٤

(٢) انظر أوزان الأشعار ص١٩٥.

(٣) انظر اللسان: رجز.

(٤) نفسه

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ الإنسان ١٤، وبعض أقوال الرسول عليه الصلاة والسّلام مثل قوله:[١]

أنا النـــــــبيّ لا كـــــــــذبْ   أنا ابـــــن عبـــــد المطّلـــــبْ.

ومن المهمّ بداية الإشارة إلى صور الرجز في الشعر العربيّ، والقول إنّ له أربع أعاريض وخمسة أضرب.[٢]

– عروضه الأولى مستفعلن لها ضربان، الأوّل مثلها وبيته:

دار لســـلمى إذ ســـليمى جـــارةٌ   قفـــر تـــرى آياتهـــا مثـــل الزبـــرْ

والضرب الثاني مقطوع، بيته:

القلـــبُ منهـــا مســـتريح ســـالمٌ   والقلـــب مـــنّي جاهـــد مجهـــودُ

– العروض الثانية مجزوءة، بيتها:

قـد هـاج قلـبي منـزلٌ   مـن أمّ عمـرو مقفـرُ

– العروض الثالثة مشطورة، بيتها:

مـــا هـــاج أحـــزاناً   وشـــجواً قـــد شـــجا

– العروض الرابعة منهوكة، بيتها:

يا ليتـــــــــني   فيهـــــا جـــــذعْ

وثمّة صورة أخرى للرجز تقوم على تفعيلة واحدة أطلقوا عليها اسم المقطّع اخترعه سلم الخاسر في أرجوزة مدح بها موسى الهادي:[٣]

موسى المطرْ

---

(١) نفسه.

(٢) الوافي ص١١٣.

(٣) العمدة ١/١٣٢

غيث بكرْ

ثمّ انهمرْ

خير البشرْ

فرع مضرْ

قال ابن سيده: والرجز شعر ابتداء أجزائه سببان ثمّ وتد، وهو وزن يسهل في السمع ويقع في النفس، ولذلك جاز أن يقع فيه المشطور والمنهوك.[١]

وقد شاع بين العلماء أنّ الرجز هو أقدم أنواع الشعر عند العرب، وهو وزن شعبي كانوا يكثرون منه في المبارزات والخصومات والحداء ولدى متح الماء وسير الهوادج، وهو بحر يسهل النظم عليه حتّى ليجيء ذلك عفواً وينثال على لسان العرب من غير قصد إليه، وكأنّه _على هذا الأساس_ يمثّل الشعر الدارج على ألسنة عامة الناس ويتناول موضوعات بسيطة كما ذُكر، وكان على هيئة مقطّعات قصيرة لم تبلغ مبلغ الطوال، وكانت منزلة الراجز دون منزلة الشاعر ولذلك بقيت الأراجيز قليلة الأبيات.

إلى أن جاء العصر الأمويّ واستقرّت أموره فظهرت طبقة من الشعراء عرفت باسم (الرجّاز) ضمّت الأغلب العجلي والعجّاج ورؤبة وأبا النجم وغيرهم، أشار أبو العلاء المعرّي إلى جنّتهم فقال: (هذه جنّة الرُّجَّز يكون فيها أغلب بني عجل والعجّاج ورؤبة وأبو النجم وحميد الأرقط..).[٢]

نحا هؤلاء بالرجز منحى جديداً فنظموا عليه موضوعات الجدّة والفخامة والهيبة والمدح والرثاء، وصلح عندهم لسائر أغراض القصيد، وانتقل الرجز على أيديهم من المستوى الشعبي إلى المستوى الرسمي، وكان من وصاياهم: (روّوا أولادكم الرجز فإنّه

---

(١) اللسان: رجز.

(٢) رسالة الغفران ص٣٧٤.

يَهْرُت أشداقهم).[١] وكان رؤبة على رأس أولئك الرجّاز، يقول د. شوقي ضيف: (رؤبة تتويج لكلّ ما ابتغى رجّاز عصر بني أميّة لفنّهم)[٢]، فتطوّر الرجز على يد رؤبة وأضرابه واتّسمت لغة أصحابه بالرقيّ والنقاء حتّى كان هؤلاء الرجّاز يمدّون العلماء بضالّتهم من الألفاظ النادرة والتراكيب الغريبة.

وقد شاع الرجز بعد ذلك في العصر العبّاسي فظهر الرجز المزدوج وفشا أمره فنظم أبان بن عبد الحميد اللاحقي أرجوزة في الفقه، وأخرى حوّل بها كتاب كليلة ودمنة من منثور إلى موزون على الرجز، مطلعها:[٣]

هـذا كتـاب أدب وفطنـهْ وهـو الـذي يـدعى كليـلَ دمنـهْ

ثمّ تتالت المنظومات التعلميّة التي اتّخذت الرجز ركوباً لها، فكانت أرجوزة العروض لابن عبد ربّه وهي مئتان وبيتان، أوّلها:[٤]

بالله نبـدا وبـه التمـامُ وباسمـه يفتـتح الكـلامُ

ثمّ بعض منظومات النحو والبلاغة والحديث والقراءات وغير ذلك ممّا يعرفه أصحاب هذه العلوم.

هذه المرونة الملموسة لوزن الرجز انسحبت على فنّ عالٍ من كلامهم وهو المَثَل.

والمَثَل اسم لنوع من الكلام وهو ما تراضاه العامّة والخاصّة لتعريف الشيء بغير ما وضع له من اللفظ[٥]. وهو كثير في كلام العرب، (وأفضله أوجزه وأحكمه أصدقه)[٦]،

(١) انظر بحث الأثر التعليمي لفنّ الرجز، د.حسن محجوب مجلّة المجمع، عدد٢٤١، [والهَرت: سَعَة الشدق] .
(٢) التطوّر والتجديد ص٣١٥
(٣) المرشد ١/٢٩٦.
(٤) العقد الفريد ٥/٤٣٠.
(٥) الكلّيات ٤/٢٦٨.
(٦) العمدة ١/١٩٥

قال ابن عبد ربّه: (وهو أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة لم يسر شيء سيره ولا عمّ عمومه حتّى قيل: أسْير من مَثَل)[1]. يجتمع فيه أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام كما قال النظّام: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة..[2] وقال ابن الأثير: (وليس في كلام العرب أوجز منها ولا أشدّ اختصاراً)[3].

وكتب الأمثال كثيرة، ربّما كان أقدمها _ممّا وصل إلينا_ كتاب (أمثال العرب) للمفضّل الضبيّ المتوفّى ١٧٨هـ.[4]

ثمّ تتالت كتب هذا الفنّ، وكان كتاب (مجمع الأمثال) للميداني المتوفّى ٥١٨هـ أفضل ما صنّف في هذا الموضوع لاحتوائه على جُلّ ما ورد من هذه الأمثال وهو ستّة آلاف ونيف كما ذكر المؤلّف في المقدّمة.[5]

والمطّلع على هذه الأمثال يجد أنّ ما انسجم منها مع أوزان الشعر العربيّ كثير، وأنّ أكثر هذا المنسجم جاء على وزن الرجز بصوره المختلفة، ولم أقف على الأمثال الشعريّة لأنّ الشعر _كما هو معروف_ يقصد قصداً، وهذه أمثال نثرية وافقت وزن الرجز.

ولأبرهن على دقّة ما ذهبت إليه اخترت من كتاب (مجمع الأمثال) باب الهمزة نموذجاً، وتركت ما جاء على وزن أفعل لأنّ باب (أفعل) يتكرّر في كلّ حروف المعجم التي قام عليها الكتاب.

---

(١) العقد الفريد ٦٣/٣.

(٢) انظر مقدّمة الميداني لمجمع الأمثال ص٦.

(٣) المثل السائر ٤١/١.

(٤) انظر مقدّمة د.إحسان عباس لكتاب أمثال العرب للضبيّ ص٥، وتجد حديثاً مطوّلاً عن مؤلّفي كتب الأمثال في كتاب الأمثال العربيّة القديمة لرودلف زلهايم، وحديثاً للدكتور عبد الإله نبهان في مجلّة مجمع اللغة العربيّة بدمشق ص٢٥١ من المجلّد ٨٦ لعام ٢٠١١.

(٥) انظر مجمع الأمثال ٥/١.

وقد ضمّ هذا الباب (باب الهمزة) أربعمئة وثمانية أمثال نثريّة، سبعون منها وافق أوزان الشعر المختلفة منها خمسون على الرجز وهو يدلّ على قوّة الرجز لغة وبياناً وسهولة وخفّة، ويشكّل نسبة أكثر من اثنين وسبعين بالمئة.

وقد ذكرت هذه الأمثال مرتّبةً كما جاءت في الكتاب، وقبل كلّ مَثَل رقمه في كتاب (مجمع الأمثال)

فمن موزونها على غير الرجز:

من المديد:

٤٠٥- إنّه ديسٌ من الدِّيَسهْ

ومن البسيط:

١٦٨- إنّ الحبيبَ إلى الإخوان ذو المالِ

ومن مجزوئه:

٢٧١- ألفُ مجيرٍ ولا غوّاصُ

ومن الوافر:

١٢٠- أنا ابنُ جلا

ومن الكامل:

٢٩٢- إنّ المناكح خيرها الأبكارُ

ومن أحذّه:

٤٢- إنّ النسا لحم على وضمِ

ومن مجزوئه:

٩٩- الأوبُ أوب نعامةٍ

ومن مرفّله:

٢٦٤ـ أخذوا طريقَ العنصلينِ

ومن الرمل:

٧٧ـ إنّما يَجزي الفتى ليس الجملْ

ومن مجزوئه:

٥٩ـ أنت كالمصطادِ باستهْ

ومن السريع:

١١ـ إنّ المعافى غير مخدوعِ

ومن موقوفه:

٣٧٨ـ إنّ أخا الخلاط أعشى بالليلْ

ومن منهوك المنسرح:

١٨٦ـ أنا النذير العريانْ

ومن الخفيف:

مولّد ـ إنّ ليتاً وإنّ لوّاً عناءُ

ومن مجزوئه:

١٥٠ـ أوّل الغزو أخرقُ

ومن المجتثّ:

مولّد ـ إنّ الأياديْ قروضُ

ومن المتقارب:

١٨٥ـ إليك يساق الحديثُ

ومن المحدث:

١٤٠ـ أزمتْ شجعاتُ بما فيها

ومن مجزوئه:

١٣٦ـ إن لم تغلبْ فاخلبْ

أمّا ما وافق الرجز فهو:

من مشطوره:

٥ـ إنّ الجوادَ عينُهُ فِرارُهُ [١]

٦ـ إنّ الشقيّ وافد البراجمِ [٢]

١٠ـ إنّ الجبانَ حتفه من فوقِهِ [٣]

١٣ـ إنّ الحديد بالحديد يُفْلَحُ [٤]

١٩ـ إنّ المعاذير يشوبها الكذبْ

٣٠ـ إنّ الهوان للّئيم مرأمةْ [٥]

٥٣ـ إذا ارفعنّ شاصياً فارفع يدا [٦]

٦٩ـ إن تسلم الجِلّة فالنيّبُ هدرْ [٧]

١٠١ـ إذا حككتُ قرحة أدميتُها

---

(١) فرائد الخرائد ص٢٩.

(٢) الأمثال للهاشمي ص٤٦.

(٣) نفسه ص٤٧.

(٤) نفسه ص٤٨.

(٥) الفرائد ص٣٢.

(٦) نفسه ص٣٧.

(٧) نفسه ص٣٩.

١١٠ـ إذا قطعنا عَلَماً بدا علمْ

١١٨ـ إنّ مع اليوم غداً يا مسعده[١]

١٢٩ـ أنْ ترد الماء بماء أكيسُ [٢]

١٣٧ـ إنّ أخا الهيجاء من يسعى معكْ [٣]

ومن يضرّ نفسه لينفعك

١٤٥ـ إنّك خير من تفاريق العصا

١٥٢ـ إنّ الشراك قدّ من أديمِهِ[٤]

١٩٣ـ إحدى عشيّاتك من نوكى قَطَنْ

٢٠٩ـ إنّك لا تجني من الشوك العنبْ [٥]

٢٧٧ـ إنّك لا تسعى برجل من أبى [٦]

٢٧٨ـ إن كنتَ ذقتَه فقد أكلتُهُ [٧]

٢٨٦ـ إلّا أكن صنْعاً فإنّي أعتثمْ

٢٩٠ـ إذا تكلّمتَ بليل فاخفضِ [٨]

٣٠٤ـ أوّل ما أطلع ضبّ ذنبهْ

(١) نفسه ص٣٩.

(٢) الفرائد ص٤٢.

(٣) الفرائد ص٥٠.

(٤) نفسه ص٤٥.

(٥) نفسه ص٤٩.

(٦) نفسه ص٥٣.

(٧) الفرائد ص٥٣.

(٨) نفسه ص٥٤.

٣٢٢ـ إنّ الشقيّ ينتحي له الشقيْ [١]

٣٤٩ـ أبو وثيل أَبَلَتْ جمالُهُ [٢]

٣٥٠ـ أمٌّ سقتْك الغَيْل من غير حبلْ

٣٥٢ـ أوى إلى ركن بلا قواعدِ [٣]

٣٥٤ـ إنْ كَذِبٌ نجّى فصدقٌ أخلقُ

٣٥٦ـ إنّي مليط الرفد من عويمرِ

٣٥٧ـ إنْ حالت القوس فسهمي صائبُ [٤]

٣٧٦ـ إنّك لو ظلمتَ ظلماً أَمَّا [٥]

مولّد ـ إن لم تزاحم لم يقع في الخُرج شيْ

ومن مشطوره المقطوع (آخره مفعولن):

١٤ـ إنّ الحماة أولعت بالكنّهْ [٦]

وأولعت كنّتها بالظنّهْ

١١٩ـ إحدى لياليك فهيسي هيسي [٧]

١٨٧ـ إيّاك أعني واسمعي يا جارهْ [٨]

(١) نفسه ص٥٦.

(٢) نفسه ص٥٧.

(٣) نفسه ص٥٧.

(٤) نفسه ص٥٧.

(٥) نفسه ٥٩.

(٦) الأمثال ص٤٩.

(٧) الفرائد ص٤٢.

(٨) نفسه ص٤٨.

٢٢٩- إنّ أُضاحاً منهل مورودُ

٣٤٤- إذا العجوز ارتجبت فارجبها [١]

ومن مقطوعه المخبون (آخره فعولن)[٢]:

٤٤- إلّا حظيّةً فلا أليّهْ [٣]

١٤٣- أيّ فتى قتله الدخانُ

٢٠٤- إن تنفري لقد رأيت نفْرا

٢٥٥- إنّك لو صاحبتنا مَذِحْتَ[٤]

٢٦٦- إنّ الحسوم يورث الحشوما [٥]

٣٧٥- إنّك لا تعدو بغير أمّكَ

٣٨٠- إن كنتِ حبلى فلدي غلاما

ومن المنهوك (الرجز ذي التفعيلتين):

٩٧- الإثم حزّاز القلوبْ

١٣١- أخذه برمّتهْ

١٦٠- أبى الحقين العِذرةْ [٦]

١٧٦- إلّا دهٍ فلا دَهٍ [٧]

---

(١) نفسه ص٥٧.

(٢) انظر الوافي ص١١٧، وقد يسمّى المكبول انظر كتاب أهدى سبيل إلى علم الخليل ص٥٩.

(٣) الفرائد ص٣٦.

(٤) نفسه ص٥١.

(٥) نفسه ص٥٢.

(٦) الأمثال العربيّة القديمة ص٢٨.

(٧) الأمثال ص٥٣.

٢٤٨ـ إن لا تلدْ يولدْ لك

٣٤٨ـ أتى عليهم ذو أتى

وقد استبعدت ممّا جاء على صور الرجز من الأمثال ما اختلف العلماء في حقيقة وزنه حيث ينسبه بعضهم إلى السريع وآخرون ينسبونه إلى المنسرح وخاصّة المنهوك، واعتمدت للفصل في ذلك ما ذهب إليه الخطيب التبريزي في كتابه (الوافي في العروض والقوافي).

الخاتمة:

خلصت بعد البحث إلى النتائج التالية:

- الرجز أسهل بحور الشعر العربيّ لذلك أطلق عليه بعضهم لقب (حمار الشعراء)[1].
- دعت مرونة تفعيلاته علماء النحو والفقه والبلاغة والقراءات إلى نظم متونهم على وزنه.
- مدّ الرجز علماء اللغة العربيّة بشواهد مختلفة رسمت عليها _بعدُ_ بعض قواعد اللغة.
- شاع وزنه على ألسنة العرب حتّى غلب على أمثالهم.
- كانت نسبة الأمثال النثرية الموافقة لوزنه أكثر من سبعين بالمئة من الموافق لغيره.
- أكدت نتيجة البحث فكرة أنّ الرجز كان مستودع أمثالهم.

(١) انظر العمدة ١/١٣٢.

المصادر والمراجع

- أمثال العرب . المفضّل الضبيّ . تح د. إحسان عباس ـ بيروت . دار الرائد العربيّ . ط٢. ١٩٨٣.
- الأمثال العربيّة القديمة . رودلف زلهايم . ترجمة د. رمضان عبد التّواب . مؤسّسة الرسالة . ط٣. ١٩٨٤.
- أوزان الأشعار. أحمد رجائي . دمشق . ١٩٩٦.
- أهدى سبيل إلى علم الخليل . محمود مصطفى . تح مُحَمَّد أحمد قاسم . بيروت . المكتبة العصريّة . ٢٠٠٢.
- التطوّر والتجديد . د. شوقي ضيف . مصر . دار المعارف . ط٢ . ١٩٥٩.
- رسالة الغفران . أبو العلاء المعري . تح د. عائشة عبد الرحمن . مصر الجديدة . دار المعارف . ط٦ -١٩٧٧.
- العقد الفريد . ابن عبد ربّه . تح أحمد أمين . بيروت . دار الكتاب العربي . ١٩٦٥.
- علم العروض وتطبيقاته . د. مُحَمَّد مصطفى أبو شوارب . الاسكندرية.
- العمدة في صناعة الشعر ونقده . ابن رشيق القيرواني . تح مفيد قميحة ـ بيروت . دار الكتب العلميّة . ط١ .١٩٨٣.
- فرائد الخرائد في الأمثال . يوسف الخوييّ . تح د. عبد الرزاق حسين ـ السعودية . مكتبة الملك فهد . ١٩٩٤.
- كتاب الأمثال المنسوب لزيد بن رفاعة الهاشمي . تح د. علي كردي . دمشق . دار سعد الدين . ط١ . ٢٠٠٣.
- الكلّيات . أبو البقاء الكفوي . تح د. عدنان درويش و مُحَمَّد المصري . دمشق . وزارة الثقافة.
- لسان العرب . ابن منظور. القاهرة . دار الحديث . ٢٠٠٢.

- المثل السائر- ابن الأثير . تح د. مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد . بيروت . المكتبة العصريّة . ١٩٩٩.
- مجمع الأمثال . الميداني . تح د. مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد . دمشق . دار النصر.
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها . عبد الله الطيّب . الكويت . ط٣ . ١٩٨٩.
- مقاييس اللغة . ابن فارس . تح عبد السلام هارون . دمشق . مطبعة اتّحاد الكتّاب العرب.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء . ابن حازم القرطاجنّي . تح مُحَمَّد الجيب بن الخوجة . دار الغرب الإسلامي . ط٣ . ١٩٨٦.
- الوافي في العروض والقوافي . الخطيب التبريزي . تح عمر يحيى وفخر قباوة . دمشق . دار الفكر . ط٣ . ١٩٧٩.

التراث العربي
العدد المزدوج (١٥٩-١٦٠)/ خريف - شتاء/٢٠٢٠- ٢٠٢١

نَظَرِيَّةُ العَامِلِ و تَضَافُرِ القرائنِ في دِيْوَانِ أُمَيَّةَ بْنِ أبِي الصَّلْت

أ.د. ناديا جوزيف حسكور*
حسن محمَّد الخيرو**

المُلخَّص

يعرضُ البحثُ بدايةً نظريَّةَ العاملِ، وأثرَ هذا العاملِ على الكلماتِ، ثُمَّ يُفصِّل في أنواع العوامل، واختلافات النُّحاة فيها، من حيث إنّها سماعيّة تارة وقياسية أخرى، لفظيّة حينًا، ومعنويّة حينًا آخر، ويبيّن أنواع كلٍّ من العوامل اللّفظيّة والمعنويّة بدقّة معَ أمثلةٍ لذلك مِمَّا قالَه النُّحاة ومِمَّا ورَدَ من أشعار لأميّة بن أبي الصَّلت، ثُمَّ ينتقل إلى نظريَّة تضافر القرائن ورأي بعض العاملين في النَّحو من المُحْدَثِين فيها، ثُمَّ يبيّنُ الإضافة التي أتَتْ بها نظريّةُ تضافُرِ القرائنِ زيادةً على نظريّةِ العاملِ في توضيحِ الوظيفةِ النَّحويّة، كما يبيّن البحثُ أنَّ التَّداخُل بين نظريّة تضافر القرائن التي جاء بها تمام حسان، وبين نظريّة العامل التي وضع أسسها سيبويه كبيرٌ جدًّا، بل يصل إلى حدّ أنَّ نظريّة تضافر القرائن أُخِذَت من مضمون نظريّة العامل، لكن بعرض جديد، وأسلوب جديد.

الكلمات المفتاحيّة: العامل، القرائن، شعر أميّة بن أبي الصَّلت.

---

* عضو هيئة تدريسيّة في كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بجامعة حلب.

** طالب دراسات عليا (ماجستير)، قسم اللّغة العربيّة وآدابها، كُلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة حلب.

المقدّمة:

نالَتْ **نظريّةُ العامِلِ** اهتمامَ النُّحاةِ منذُ القديم، ويُعَدُّ سيبويهِ صاحبَ هذهِ النَّظريّةِ بحسبِ رأيِ كثيرٍ مِنَ العُلماءِ[1]، التي ظلَّتْ مسيطرةً على اهتمامِهم حتّى العصرِ الحديثِ، حيثُ بدأَتْ تظهرُ آراءٌ للمُحْدَثِينَ تُضعِفُ هذهِ النَّظريّةَ، بل في بعضِ الأحيانِ تُلغي وجودَها معتمدِينَ على آراءِ بعضِ القُدامى كقطرب (ت٢٠٦هـ)، الذي يرى أنَّ العلامةَ الإعرابيَّةَ ليسَتِ الأساسَ في الدّلالةِ على المعاني، وغيره ممن جاء بعده، مثل ابن مضاء القرطبيّ (ت٥٩٢هـ)، فقام **تمام حسّان**[2] بحِذْقِهِ وذكائِهِ بإحداثِ نظريّةٍ جديدةٍ أسماها **"نظريَّة تضافُر القرائن"**، وفي هذهِ النَّظريّةِ أعادَ إنتاجَ نظريّةِ العامِلِ، إذِ استعمل مقتضياتِ العامِلِ بأسلوبٍ جديدٍ يُناسِبُ تطوُّرَ اللُّغةِ، ويستثمرُ كلَّ إمكاناتِها للوصولِ إلى المعنى المراد.

أوّلاً: العامل لغةً واصطلاحًا:

أـ العامل لُغةً:

العامِلُ هو الذي يتولَّى أمورَ الرَّجُلِ في مالِهِ وملكِهِ وعملِهِ، ومنْهُ قِيلَ للذي يستخرجُ الزَّكاةَ: عاملٌ. والعوامِلُ: الأرجلُ، قالَ الأزهريُّ: عوامِلُ الدَّابَّةِ قوائمُها، واحدتُها عامِلةٌ. والعوامِلُ: بقَرُ الحرثِ والدِّياسةِ. وقِيلَ: عامِلُ الرُّمحِ وعاملتُهُ: صَدْرُهُ دونَ السِّنان، ويُجمعُ: عوامل[3].

---

(١) **سيبويه**، ١٩٩٠م ـ **الكتاب**، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ج١، ص١٣. ويُنظر: **البلتاجي**، هشام السّعيد حسن، ٢٠٠٧م ـ **نظريّة القرائن النّحويّة**، دراسة وصفيّة، كلية اللغة العربية بالمنصورة، جامعة الأزهر، مجلة حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الثاني والثلاثون، ص٥٦٣.

(٢) . **تمام حسّان**: وُلِد عام ١٩١٨م في قرية الكرنك محافظة قنَا بصعيد مصر، أتمّ حفظ القرآن الكريم سنة ١٩٢٩م، والتحق بمعهد القاهرة الأزهريّ عام ١٩٣٠، ثُمّ أسس الجمعيّة اللُّغويّة المصريّة عام ١٩٧٢ م، وكان أوّل رئيس لها، وأُنتُخِبَ عضوًا بمجمع اللُّغة العربيّة عام ١٩٨٠، تُوفّي عام ٢٠١١م. يُنظر: **القرائن النّحويّة لتمّام حسان بين النّظريّة والتّطبيق**، إعداد الطّالبة: دليلة صيد، إشراف: الأستاذ إبراهيم بشار، الجزائر، جامعة العربيّ بن مهيدي، أم البواقي، السّنة الجامعيّة ٢٠١٢، ٢٠١٣م/ ١٤٣٣، ١٤٣٤هـ، ص١٨٤.

(٣) **ابن منظور**، ٢٠٠٤ ـ **لسان العرب**، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت، مج١١، ص٤٧٤، ٤٧٧.

ب ـ العامل اصطلاحًا:

العامـلُ عنـدَ النُّحـاةِ هـو مـا أوْجَـبَ كـونَ آخـرِ الكلمـةِ علـى وجـهٍ مخصـوص مـن الإعراب. وقد اشتهرَ فيما بينَهم أنَّ الاسمَ هو الأصلُ في الإعرابِ وأنَّ المضارعَ قد تطفَّلَ عليه بسببِ المضـارعة. فتعلُّـقُ الفعـلِ ومـا أشـبهَه مِـنَ الحـروفِ والأسمـاءِ وغيرِهـا بالاسـمِ المتمكِّنِ سببٌ لثبوتِ وصـفٍ فيـه كالفاعليَّـةِ والمفعوليَّـةِ والإضـافةِ، وهـذه معـانٍ معقولـةٌ تستدعي نصبَ علامةٍ يستدلُّ بها عليها، فجعلوا الإعرابَ الذي هو الرّفع والنّصب والجرّ دلائلَ عليهـا، وسَمَّوا تلك المعاني مقتضياتٍ للإعرابِ، وسمَّوا الأشياءَ التي تعلُّقُها بالاسمِ المتمكِّنِ سَبَبٌ لحدوثِ هذه المعاني عواملَ[١]. **والعامِل**: ما أوجبَ كون آخر الكلمة على وجهٍ مخصوصٍ من الإعراب، وله أنواع: **العامل القياسيّ**[٢]: هو ما صَحَّ أنْ يُقالَ فيه: كلُّ ما كانَ كذا، فإنّه يعمل كذا[٣]، **والعامل السّماعيّ**[٤]: هو ما صحَّ أن يُقالَ فيه: هذا يعمل كذا وهذا يعمل كذا، وليس لك أنْ تتجاوز، كقولنا: "إنّ الباء تجرّ، و"لم" تجزم وغيرهما"[٥]، **والعامل المعنويّ**[٦]: هو الذي لا يكون لِلّسان فيه حظٌّ، وإنَّما هو معنًى يُعرَف بالقلب[٧]، وأشار عبد القاهر الجرجانيّ إلى فكرةِ العامل بقوله: "معلومٌ أنْ ليسَ النّظمُ سوى تعليقِ الكَلِم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض"[٨]، ويظهر أنّ العامل الحقيقيّ عند سيبويه هو المتكلِّم نفسه[٩]، ويؤيّد ابنُ جنّي ما جاء به سيبويهِ[١٠].

---

(١) **التّهانوي**، ١٩٩٦م ـ **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تقديم وتحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ص١١٦٠١.

(٢) **الجرجانيّ**، عبد القاهر، ٢٠٠٩م ـ **العوامل المئة**، عُني به: أنور بن أبي بكر الشيخي الداغستاني، الطبعة الأولى، دار المنهاج، جدة، السعودية، ص٦٣.

(٣) **الشّريف الجرجانيّ، معجم التّعريفات**، تحقيق: مُحَمَّد صدّيق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ص١٢٢.

(٤) **الجرجانيّ**، عبد القاهر، **العوامل المئة**، من ص٤١، إلى ص٦٢.

(٥) **الشّريف الجرجانيّ، معجم التّعريفات**، ص١٢٢.

(٦) **الجرجانيّ**، عبد القاهر، **العوامل المئة، من** ص٤١، إلى ص٦٤.

(٧) **الجرجانيّ**، الشّريف، **معجم التّعريفات**، ص١٢٢.

(٨) **الجرجانيّ**، عبد القاهر، ٢٠٠٤م ـ **دلائل الإعجاز**، علّق عليه: محمود مُحَمَّد شاكر، الطبعة الخامسة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ص٤.

(٩) **سيبويه، الكتاب**، ج١، ص٣٤.

(١٠) **ابن جنّي**، أبو الفتح عثمان، ١٩٥٢،١٩٥٧ ـ **الخصائص**، تحقيق: مُحَمَّد علي النجار، الطبعة الأولى، دار الكتب المصريّة، ج١، ص١١٠.

ثانيًا: القرائن لغةً واصطِلاحًا:

أـ القرائن لُغةً:

قرنْتُ الشّيءَ أقرنُهُ، أي شددْتُه إلى الشَّيء[1] ، بمعنى الارتباط. وهم أقرانهم وهو قرينه في العِلم والتّجارة وغيرها[2]. بمعنى الزّميل أو الشّريك والارتباط. وقرنتِ السّماء وأقرنتْ: دام مطرها[3]. بمعنى الاستمرار والدّوام. والقرين: الزّوج، والقرين: البعير المقرون بآخر، وجمعها: القُرناء، والقرينة: النَّفْس، والقرينة: الزَّوجة لأنّها تُقارَن بزوجِها. والقَرَن: الحبلُ يُقرَن به البعيران[4]. بمعنى الارتباط.

ب ـ القرائِن اصْطلاحًا:

هي في الاصطلاح أمرٌ يُشيرُ إلى المطلوب[5]. والقرائنُ ذُكِرَتْ عندَ **سيبويه (ت١٨٠هـ)** بمصطلح **"آية"**[6] بقولِهِ: "إنّك رأيتَ صورة شخصٍ فصار آيةً لك على معرفة الشّخص، فقلت: عبد الله وربّي، كأنّك قلْتَ: ذلك عبد الله، وهذا عبد الله"[7].

ويعبّر **عبد القاهر الجرجانيّ**[8] عن القرائن بقوله: "لا نظمَ في الكَلِم ولا ترتيب، حتّى يُعلَّق بعضُها ببعضٍ، ويُبنى بعضُها على بعضٍ، وتُجعَلَ هذه بسببٍ من تلك"[9].

---

(١) **الفراهيديّ**، ١٩٨٢م ـ الخليل بن أحمد، **كتاب العين**، تحقيق: مهدي المخزوميّ وإبراهيم السّامرّائيّ، الطبعة الأولى، دار الرّشيد للنّشر، بغداد، مادّة (ق، ر، ن)، مج١، ص١٤١.

(٢) **الزّمخشريّ**، ١٩٩٦م ـ **أساس البلاغة**، الطبعة الأولى، مكتبة ناشرون، لبنان، مادّة (ق، ر، ن)، ص٥٠٤.

(٣) **ابن منظور**، **لسان العرب**، مادّة (ق، ر، ن)، ج٢، ص٩٠.

(٤) إبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، المكتبة الإسلاميّة، استانبول، تركيا، (د، ط)، (د، ت)، مادّة (ق، ر، ن)، ص٧٣١.

(٥) **الشّريف الجرجانيّ**، محمّد، **معجم التعريفات**، ص١٨٢.

(٦) **عزيز**، كوليزار كاكل، **القرينة في اللغة العربيّة**، دار دجلة، عمان، الأردنّ، ط١، ٢٠٠٩م، ص٢٠.

(٧) **سيبويه**، **الكتاب**، ج٢، ص١٣٠.

(٨) **عبد القاهر الجرجاني**: هو عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمّد الجرجاني، أبو بكر، واضع أصول البلاغة، كان من أئمّة اللّغة، من أهل جرجان (بين طبرستان وخراسان) له شعر رقيق، من كتبه: "أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز ..."، تُوفّي سنة ٤٧١ هجريّة. يُنظر: **الزّركلي**، خير الدين، **الأعلام**، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٤، ص٤٨، ٤٩.

(٩) **الجرجانيّ**، عبد القاهر، **دلائل الإعجاز**، علّق عليه: محمود محمّد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ص٥٥.

وهذهِ القرائنُ لها نوعان: **القرائن اللّفظيّة**: "البِنية، الرّبط، الأداة، العلامة الإعرابيّة، الرّتبة، التّضامّ، المطابقة، النّغمة". **والقرائن المعنويّة**: "الإسناد، التّبعيّة، التّخصيص، النّسبة، المخالفة"[١].

المطلب الأوّل: نظريَّة العامل:

بدايةً سيعرضُ البحثُ أنواعَ العواملِ:

أوّلاً: العواملُ اللّفظيَّة: وهي الملفوظةُ في التّركيبِ التي تُحْدِثُ الحركاتِ الإعرابيّةَ في نهاية الكلمة، وهي كثيرة وقويّة ولا خلاف فيها، وتأتي على ثلاثة أضرب:

١ـ العامل بالأصل: وهو فعل، وحرف، **والفعل** مطلقًا عامل بالأصالة ما عدا الأفعالَ النّاقصة، والفعلُ لازمٌ ومتعدٍّ، والمتعدّية إلى مفعول واثنين وثلاثة[٢].

ومنه قولُ أميّة بن أبي الصّلت يصف الشَّمس المضيئة[٣]:

ثُمَّ يجلو النّهارَ رَبٌّ رحيمٌ   بمهاةٍ شعاعُها منشورُ[٤]

إذا بحثْنا عن ناصب "**النّهارَ**"، ورافع "**رَبٌّ**"، فسنجدُ أنّ الفعل "**يجلو**" هو الذي عمل فيهما النّصب والرّفع، وهو عامل أصليّ، وظهرَ أثَرُ النَّصب في "**النّهارَ**" على شكل فتحة، وظهر أثر الرّفع في "**رَبٌّ**" على شكل ضمّة، وبهذا تبقى هاتان الكلمتان بحاجة إلى قرائن أخرى لتوضيح المعنى سنراها بعد قليل في نظريّة تضافر القرائن.

---

(١) **حسان**، تمام، 1979م ـ **اللغة العربيّة معناها ومبناها**، الطبعة الثانية، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ص١٩٠ وما بعدها.

(٢) **البغدادي**، ابن أياز، 2011،2010 ـ **قواعد المطارحة في النّحو**، تحقيق: يس أبو الهيجاء، شريف عبد الكريم الكريم النّجار، علي توفيق الحمد، دار الأمل، الأردنّ، ص٥٤.

(٣) **ديوان أميّة بن أبي الصّلت**، جمع وتحقيق ودراسة: د. عبد الحفيظ السّطلي، الطبعة التاسعة، مكتبة أطلس، دمشق، ص٣٩١.

(٤) المهاة: الشّمس. والمنشور: المنتشر.

أمّا **الحروف** العاملة[(١)] فهي إمّا جارّة للأسماء، وإمّا جازمة للأفعال، وإمّا ناصبة[(٢)]، كقول أميّة بن أبي الصّلت[(٣)]:

الحمـــــدُ للهِ الـــــذي لم يتَّخـــــذْ ولـــــدًا وقـــــدَّرَ خلْقَـــــهُ تقـــــديرا

العامل الأصليّ الحرف "**لم**" عمل بالفعل المضارع "**يتّخِذْ**" الجزمَ، وظهر أثرُ العامل على شكل سكون على الفعل "**يتّخِذْ**".

٢ـ **العامل بالشّبه**: وهو فعل، واسم، وحرف، **فالأفعال العاملة بالشَّبه**: "كان وأخواتها، وأفعال المقاربة"[(٤)]، كقول أميّة بن أبي الصّلت[(٥)]:

أَرْسَلْتَ أُسْدًا على سُودِ الكلابِ فقد أضحى شريدُهمُ في الأرض فُلَّالا[(٦)]

عمل الفعل النّاقص "**أضحى**" في الاسم "**شريدُهم**" والخبر "**فُلَّالا**"، لأنّه مشابه للفعل التّامّ في حاجته للمرفوع والمنصوب، فكان من أثر هذا العمل الضّمّة في الاسم والفتحة في الخبر.

والأسماء العاملة بالشّبه[(٧)]، هي: "اسم الفاعل، وصيغ المبالغة، واسم المفعول،

---

(١) . **البغدادي**، ابن أياز، **قواعد المطارحة في النّحو**، ص٥٨.

(٢) وهناك من قال: إنّ المضاف يعمل في المضاف إليه، والمبتدأ عامل في الخبر وهما من العوامل اللّفظيّة. يُنظر: **خوّام**، رياض، **نظريّة العامل في النّحو العربيّ**، ص٣٦.

(٣) ديوان أميّة بن أبي الصّلت، عبد الحفيظ السطلي، ص٤٠٩.

(٤) فإنّ قولنا: "**كان زيدٌ أخاكَ**"، مُشبَّه بـ "**ضرَبَ زيدٌ أخاكَ**" من جهة الفعليّة. لهذا أجاز الفرّاء: "**كِين أخوكَ**"، كما يجوز: "**ضُرِبَ أخوكَ**". يُنظر: **البغدادي**، ابن أياز، **قواعد المطارحة في النّحو**، ص٥٩.

(٥) **ديوان أميّة بن أبي الصّلت**، عبد الحفيظ السطلي، ص٤٥٨.

(٦) **سود الكلاب**: أراد بهم الأحباش. **والشّريد**: الطّريد الهارب على وجهه، وأراد الجمع لأنّ وزن "فعيل" كثيرًا ما ما تستعمله العرب مفردًا في معنى الجماعة. وفلَّ القومَ يَفُلُّهم فلًّا: هزمهم، وهم قومٌ فَلٌّ، والجمع فُلولٌ وفُلّال. **ينظر**: **ديوان أميّة بن أبي الصّلت**، عبد الحفيظ السطلي، ص٤٥٨.

(٧) وتكون قوّة الأسماء في عملها لقربها أو بعدها عن الشّبه بالأفعال، وبحسب التّرتيب الذي جاء به سيبويه تكون تكون العوامل من الأسماء مرتَّبة في القوّة كالآتي: اسم الفاعل، واسم المفعول، وما ألحق بهما من صيغ المبالغة، والمصادر، والصّفات المشبَّهة باسم الفاعل، وأسماء الأفعال، وأسماء التّفضيل، والأسماء التّامّة نحو "عشرين" وأخواته ممّا ينصب التّمييز، وأسماء الأجناس. يُنظر: **سيبويه**، **الكتاب**، ج١، ص٣٣. **وعبد الرحمن**، بهاء الدين عبد الوهاب، **الموازنة بين نظريّة العامل ونظريّة تضافر القرائن في الدّرس النّحويّ**، ص٦٣٦.

والصّفة المشبَّهة"[١]، كقول أميّة بن أبي الصّلت[٢]:

المُطعِمـون الطّعـامَ في السّـنة الأزمـ ـــــةِ والفـــاعِلونَ للزَّكــــوات[٣]

عمل اسم الفاعل "**المُطعِمون**" بالمفعول به "**الطّعامَ**"، وذلك لمشابهته للفعل "**أطعمَ**"، وكان من أثر هذا العمل ظهور الفتحة على آخر المفعول به "**الطّعامَ**".

والحروف العاملة بالمشابهة هي: "إنَّ وأخواتها، ولا النّافية للجنس، ولا العاملة عمل ليس، وما العاملة عمل ليس"[٤].

كقول أميّة بن أبي الصّلت يتحدّثُ عن لجوئِه إلى الله سبحانه وتعالى[٥]:

إنّي أعــوذ بِمَــن حــجَّ الحجــيجُ لــه والرّافعـــونَ لِـــدِينِ اللهِ أركـــانا[٦]

الحرف المشبَّه بالفعل "**إنَّ**" عمل النّصبَ في الضّميرِ المتّصل "**ياء المتكلّم**" على أنّهُ اسمٌ له، والرّفع على المحلّ في "**أعوذ**" على أنّه خبرٌ له، لأنّهُ جاءَ مُشابهًا للفعل "**أؤكّد**" في المعنى، وتقديره: "أؤكّد عياذي بالله بمَنْ حجَّ الحجيج له"، ولم تظهرِ العلامةُ الإعرابيّةُ في معمولَي الحرف المشبَّه بالفعل، لأنَّ الاسم الضَّمير "**ياء المُتكلّم**" من المبنيّات، والخبر "**أعوذ**" جملة، وهذا ممّا يُضعف نظريّة العامل في نظر بعض النّحاة، وهذا ما دعاهم إلى

(١) **البغدادي**، ابن أياز، **قواعد المطارحة في النّحو**، ص٧٢، ٧٦، ٧٧.
(٢) **ديوان أميّة بن أبي الصّلت**، عبد الحفيظ السطلي، ص٣٤٥.
(٣) في الفائق: "في سنة الأزمة" . والأَزْم: شدَّة العضّ بالفم كلّه وقِيل بالأنياب، والأنياب هي الأوازم، ومنه قيل للسّنة إذا اشتدّ قحطها: أَزْمَةٌ، وآزِمة. والزكوات: مفردها زَكاة، وهي هنا: العمل الصالح. ينظر: ديوان أميّة بن أبي الصّلت، عبد الحفيظ السطلي، ص٣٤٥.
(٤) **البغدادي**، ابن أياز، **قواعد المطارحة في النّحو**، ص٧٩، ٨٤، ٨٦، ٨٧. ويُنظر: **الجرجانيّ**، عبد القاهر، **العوامل المئة**، ص٤٨، ٥٠.
(٥) **ديوان أميّة بن أبي الصّلت**، عبد الحفيظ السطلي، ص٥١٨.
(٦) أعوذ بالله: ألجأ إليه وأعتصم به. والحجيج: جمع الحاجّ، والحجُّ في اللّغة: القَصْد، ثُمَّ تُعُورِف استعماله في القصد إلى مكّة والبيت للنُّسك، وهو معروف في الجاهليّة لأنّه من بقايا دِين إبراهيم عليه السَّلام. والأركان: مفردها رُكْن، ورُكْن الشَّيء: جانبه الأقوى. ينظر: ديوان أميّة بن أبي الصّلت، عبد الحفيظ السطلي، ص٥١٨.

الإعراب التقديريّ في الضّمائر والمحليّ في الجمل.

٣ـ العامل بالنّيابة: وهو ما يعملُ بالخلف والنّيابة، وهو أربعة أقسام: "اسم غير ظرف، واسم هو ظرف، وجملة، وحرف".

الأسماء العاملة من غير الظّروف: مثل "أسماء الإشارة[(١)]، كقولك: "هذا عبدُ الله مُنطلِقًا"[(٢)]، وأسماء الأفعال، والمصدر النّائب عن فعله"[(٣)].

الأسماء العاملة من الظّروف: مثل نصب الحال **"قائمًا"** في قولنا: "زيدٌ عندك قائمًا"، نجد أنَّ "قائمًا" حال من الضّمير الذي في الظّرف "عندَك"، والظّرفُ هو النّاصب[(٤)].

الجملة العاملة بالنّيابة: كقولك: "هو زيدٌ معروفًا"[(٥)]، وكقول الشّاعر:

أنا ابنُ دارةَ معروفًا بها نسبي ... فهل بدارةَ يا لَلناسِ مِنْ عار؟

كذا قال ابن برّي في أماليّه وفيه تسمُّح وذلك لأنَّ هذا القسمَ يُسمَّى الحالَ المؤكِّدةَ

---

(١) بعض النُّحاة خالَف هذا الرّأي ونفى عن اسم الإشارة العمل لأنّه جامِدٌ خالٍ من الحدث كما سيمرّ معنا. يُنظر: **خوّام**، رياض، **نظريّة العامل في النّحو العربيّ**، ص٤٥.

(٢) والمعنى أنّك تُريد أن تُنبّهه له منطلقًا، لا تريد أن تُعرّفَه عبدَالله؛ لأنّك ظننتَ أنّه يجهلُه، فكأنّك قُلْتَ: انظرْ إليه مُنطلِقًا، فـ "منطلقًا"، حالٌ قد صار فيها "عبد الله"، وحالَ بين "منطلقًا" و "هذا"، كما حالَ بين "راكبًا" والفعل حين قُلْتَ: "جاء عبدُ الله راكِبًا"، صارَ "جاءَ" لـ "عبد الله"، وصار "راكِبًا" حالًا، فكذلك "هذا". يُنظر: **سيبويه، الكتاب**، ج٢، ص٧٨.

(٣) **البغدادي**، ابن أياز، **قواعد المطارحة في النّحو**، ص٨٩، ٩٣.

(٤) المرجع السابق، ص٩٦.

(٥) فنصب **"معروفًا"** على جهة التّوكيد لِما ذكرتَه وخبّرْتَ به، وذلك أنّك إذا قلْتَ: **"هو زيدٌ"**، فقد خبّرْتَ بخبرٍ بخبرٍ يحتمل أن يكون حقًّا وأن يكون باطِلًا، وظاهر الإخبار يُوجِب أن يكون المخبِّر يُحقّق ما خبّرَ به، فإذا قالَ: "هو زيدٌ معروفًا" فكأنّه قال: "لا شكَّ فيه"، وكأنّه قال: "أحقّ ذلك"، والعامل فيه "أحق" وما أشبهه. يُنظر: **سيبويه، الكتاب**، ج٢، ص٧٩.

وناصبها فعل مُقدَّر، وهو "أحقّه"، ويجبُ حذفُهُ لأنَّ في الجملةِ إشعارًا به[1].

الحرف العامل بالنّيابة: كقولك: **"ها قائِمًا ذا زيدٌ"**، فالعاملُ في الحالِ **"قائمًا"** في الجملةِ السّابقةِ حرفُ التّنبيه **"ها"** لنيابته عن الفعل **"أُنبّه"**. ومثله حرف النّداء، كقولك: **"يا عبدَ الله"**، و **"يا طالِعًا جبلًا"**، لأنّه ناب عن الفعل **"أنادي"**[2]، ومثله قول أميّة بن أبي الصَّلت يصف الحياة في حلوها ومرّها[3]:

يا لَــذّةَ العــيشِ إذْ دام النّعــيمُ لنــا   ومَــنْ يعِــشْ يلْـقَ رَوْعــاتٍ وأحــزانا[4]

فالعامل في كلمة **"لذَّةَ"** هو حرف النّداء **"يا"** لأنّه ناب عن الفعل **"أنادي"**، وترك أثرًا لهذا العمل وهو الفتحة في كلمة **"لذَّةَ"**.

ثانيًا: العوامل المعنويّة[5]: لا حَظَّ للّسان فيها فهي معنًى يُعرَف بالقلب[6]، أي لا ذِكْر لها في التّركيب مع ظهور أثرها في آخر الكلمة، ومنها:

١- رافع المبتدأ والخبر: وهو الابتداء، ومعناه كون الاسم أوّلًا مقتضيًا ثانيًا[7]، أو هو هو التَّجرُّد عن العوامل اللّفظيّة لأجل الإسناد[8]؛ كقولنا: **"زيدٌ ضارِبٌ"**، فإنَّ زيدًا يعملُ فيه الرَّفعَ تعرِّيه عن العوامل اللّفظِيَّة، ثُمَّ إنّ التَّعرِّي ومعمولَه الذي هو **"زيدٌ"** يعملان الرَّفع في خبره الذي هو **"ضارب"**، لأنّ الابتداء والمبتدأ لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فإذا اقتضى المبتدأُ الخبرَ، اقتضاه الابتداءُ أيضًا، وإذا اشتركَا في اقتضائه وجبَ أن يشتركا في

(١) **البغدادي**، ابن أياز، **قواعد المطارحة في النّحو**، تحقيق: يس أبو الهيجاء، شريف عبد الكريم النّجار، علي توفيق الحمد، دار الأمل، الأردنّ، ٢٠١٠، ٢٠١١، ص٩٨.

(٢) **البغدادي**، ابن أياز، **قواعد المطارحة في النّحو**، ص٩٨.

(٣) **ديوان أميّة بن أبي الصّلت، عبد الحفيظ السطلي**، ص٥٢١.

(٤) الرَّوعات: مفردها رَوْعة، وهي المرَّة من الرَّوْع، والرَّوْع: الفزَع.

(٥) **الجرجاني**، عبد القاهر، **العوامل المئة**، ص٦٤.

(٦) **الجرجانيّ**، الشَّريف **معجم التّعريفات**، ص١٤٦.

(٧) **البغدادي**، ابن أياز، **قواعد المطارحة في النّحو**، ص٩٩.

(٨) **خوّام**، رياض، **نظريّة العامل في النّحو العربيّ**، ص٣٦.

العمل فيه[١]، فالتّعرّي يعمل في المبتدأ والخبر، إلّا إنّه يعمل في الخبر بوساطة المبتدأ وبعد أن يعمل فيه من حيث إنّ الخبر لا يكون إلّا بعد حصول المبتدأ والتَّعرّي من العوامل لا يتمّ إلّا بعد الإتيان بالخبر لأنَّنا إذا قُلْنا: "**زيدٌ**"، ولم نجعل له خبرًا، لم يكن كلامًا يُعتَدُّ به فيُجعَلُ له إعراب[٢]. وقيل العامل هو الإسناد نفسه، أو التَّجرُّد والإسناد معًا[٣].

٢ـ رافع الفعل المضارع: عامل معنويّ، وهو مشابهة "**يَفْعَل**" وأخواته للاسم، فعامِلُ الرّفع: وقوعُه موقع الاسم[٤]، كقولك: "**مررْتُ برجلٍ يضرب**"، فالفعل "**يضرب**" وقع موقع "**ضارِب**"، وناب عنه، فذلك الوقوع هو رافعُه، وسواء نابَ عن مجرورٍ كما في المثال السّابق أو عن مرفوعٍ، كقولك: "**زيدٌ يضربُ**"، أو عن منصوبٍ، كقولك: "**رأيتُ رجلًا يضربُ**"[٥]، وقال الكسائيّ: "يرتفعُ بالزّائدِ في أوّلِهِ، وقيل: "رافعه خلوُّهُ مِن النَّاصب والجازم"[٦].

---

(١) وقد مثّلوا هذا بالنّار والقِدْر والماء وذلك أنَّ النّار تعمل في القدر فتحمى ثُمّ إنَّهما جميعًا يتناصران على العمل في الماء وإحمائه، فكذلك التَّعرّي يعمل في زيد في قولك: "**زيدٌ ضارِب**"، ثُمّ يعملان جميعًا في "**ضارِب**". يُنظَر: **الجرجانيّ**، عبد القاهر، 1982م ـ **المقتصد في شرح الإيضاح**، تحقيق: كاظم بحر المرجان، دار الرشيد للنشر، ج١، ص٢٥٦.

(٢) **الجرجانيّ**، عبد القاهر، **المقتصد في شرح الإيضاح**، ج١، ص٢٥٦.

(٣) **خوّام**، رياض، **نظريّة العامل في النّحو العربيّ**، ص٣٦.

(٤) **الأنباري**، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن مُحَمَّد، 1955م ـ **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويّين النّحويّين البصريّين والكوفيّين**، تحقيق: مُحَمَّد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ج٢، ص٥٥١، ٥٥٢. وينظر: **الجرجانيّ**، عبد القاهر، **المقتصد في شرح الإيضاح**، ج١، ص٢٥٧، و**الجرجانيّ**، عبد القاهر، **العوامل المئة**، ص٦٤.

(٥) **الأنباري**، **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويّين البصريّين والكوفيّين**، ج٢، ٥٥١. وينظر: **البغدادي، البغدادي**، ابن أياز، **قواعد المطارحة في النّحو**، ص٩٩.

(٦) وهذا القول فاسد من وجوه؛ فلو كان الأمر كما قال: **الوجه الأوّل**: لَكان ينبغي ألّا تدخل عليه عوامل النّصب والجزم؛ لأنّ العوامل لا تدخل على العوامل، **والوجه الثّاني**: لَكان ينبغي ألّا ينتصب بدخول النّواصب، ولا ينجزم بدخول الجوازم؛ لوجود الزّائد في أوّله، **والوجه الثّالث**: لأدّى ذلك إلى أنْ يعملَ الشّيء في نفسه، لأنّ هذه الزّوائد بعض الفعل، لا تنفصل منه في لفظ، بل هي من تمام معناه. يُنظر: **الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف**، ج٢، ص٥٥١، ٥٥٣، ٥٥٤.

٣ـ **الخلاف**: من مصطلحات الكوفيّين والمراد منه أنَّ هناك خلافًا يحصل بين ما يأتي متأخِّرًا عمَّا يأتي متقدِّمًا، أو صَرف الثّاني عمَّا عليه الأوّل، ومن مسائل الخلاف[١]:

نَصْبُ الظّرف الواقع خبرًا للمبتدأ، نحو: "**زيد أمامك**"، فالظّرفُ "**أمامَك**" انتصب على الخلاف لأنّ "**أمامك**" ليس "**زيدًا**" في المعنى، لأنّ الأصل أن يكون المبتدأ عين الخبر، فلمّا كان الظّرف مخالفًا للمبتدأ نُصِب على الخلاف للتّفريق بينهما[٢].

هناك **عوامل معنويّة أخرى** تحدّث عنها العلماء، منها[٣]: "التّبعيّة[٤]، والإسناد[٥]، والإسناد[٥]، والفاعليّة[٦]، والمفعوليّة[٧]، والتّلبُّس بالفعل[١].

(١) هناك مسائل للخلاف أخرى مثل: "نصب المفعول معه، ونصب الفعل المضارع بعد واو المعيّة، ونصب الفعل المضارع بعد فاء السّببيّة، ونصب المستثنى عند الكسائيّ". يُنظر: **خوّام**، رياض، **نظريّة العامل في النّحو العربيّ**، ص٣٧، ٣٨.

(٢) **خوّام**، رياض، **نظريّة العامل في النّحو العربيّ**، ص٣٧.

(٣) **المرجع السابق**، ص٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١.

(٤) ذهب الجمهور إلى أنّ العامل في **النّعت والتّوكيد وعطف البيان** هو العامل في المتبوع، ونُسِب هذا الرّأي إلى إلى سيبويه، وقِيل: العامل فيها معنويّ وهو تبعيّتها لِما جرَتْ عليه، وهو قول الخليل والأخفش. وأمّا **البدل** فقيل: إنّ عامله محذوف وهو قول الجمهور، فإن قلتَ: أكلت الرّغيف نصفه، أي: أكلت الرّغيفَ أكلتُ نصفَه، وقِيل: عاملُه متبوعُه، وقيل: عاملُه عاملُ متبوعِه، وأمّا **النّسق** فقال الجمهور: عاملُه عاملُ متبوعِه بوساطة حرف العطف، وقِيل: الحرف، وقيل: محذوف مقدّر بعد الحرف. يُنظر: **خوّام**، رياض، **نظريّة العامل في النّحو العربيّ**، ص٣٨، ٣٩.

(٥) نُسِب إلى هشام بن معاوية الضّرير، وعنده رافعُ الفاعل هو إسناد الفعل إليه، فالإسناد يقتضي رفع الفاعل، وقد ردَّ ابن يعيش ذلك فقال: "وهو تقريب، وهو في الحقيقة غير جائز؛ لأنّ الإسناد معنى، ولا خلاف أنّ عامل الفاعل لفظيّ". يُنظر: **خوّام**، رياض، **نظريّة العامل في النّحو العربيّ**، ص٣٩.

(٦) نُسِب إلى خلف الأحمر، فعنده أنّ رافِع الفاعل بعد الفعل هو معنى الفاعليّة المتمثِّل في موقع الفاعل ومنزلته ومرتبته. يُنظر: **الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف**، ج١، ص٧٩. **وخوام**، رياض، **نظريّة العامل في النّحو**، ص٤٠.

(٧) ونُسِب أيضًا إلى خلف الأحمر، فقد كان يرى أنّ العامل في المفعول معنى المفعوليّة، وممَّا يُظهِر فسادَ هذا الرّأي أنّ نائب الفاعل مرفوع وهو يدلّ على المفعوليّة، يُنظَر: **الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف**، ج١، ص٧٩، ٨١. **خوام**، رياض، **نظريّة العامل في النّحو**، ص٤٠.

وهناك قواعدُ للعامل وضعَها النُّحاةُ ، منها:

١ـ أنّ العمل أصلٌ في الأفعال فرعٌ في الأسماء والحروف.

٢ـ يضعف العامل إنْ كان فرْعًا في العمل، ولذلك لا يجوزُ تقدُّمُ خبرِ الحرف المشبّه بالفعل على اسمه إن كان الخبر ليس شبه جملة، فلا يجوز أن نقول: "**إنَّ أخوك عبدَ الله**"، لأنَّ الحرف المشبَّه بالفعل "**إنَّ**" ليس فعلًا إنّما جُعِل بمنزلته.

٣ـ قد يتقوَّى عامل لفظيّ بعامل لفظيّ كتقوِّي الفعل بواو المعيَّة في قولك: "**سرْتُ والحائطَ**"، ومِنْه حديث النّحاة عن اللّام المقويّة في قوله تعالى: **﴿فعَّالٌ لِما يريد﴾** البروج:١٦، فالذين قالوا: إنَّها زائدة مقويَّة مرادُهم أنّ العامل **﴿فعّال﴾** لما ضعُف في العمل تقوَّى بهذه اللّام.

٤ـ قد يتقوَّى عامل معنويّ بعامل لفظيّ كذهاب بعض النّحويّين إلى أنّ رافع الخبر هو الابتداء بوساطة المبتدأ.

٥ـ الأسماء التي تعمل هي المشتقّات لأنَّها تُشبه الأفعال لتضمّنها الحدث. أمّا الأسماء الجامدة كأسماء الإشارة والموصولة والأعلام والضّمائر فهي لا تعمل لخلوّها من الحدث(٢).

٦ـ عوامل الأسماء هي الأصل وعوامل الأفعال هي الفرع، وعوامل الأسماء هي الأكثر، وعوامل الأسماء لا تعمل في الأفعال، فالاختصاص في كلّ منها موجِب للعمل ومتى بطل الاختصاص بطل العمل(٣).

---

(١) نُسِب إلى الكسائيّ، وعنده أنَّ رافِع الفاعِل هو كونه مُتلبِّسًا بالفعل، ولعلّ هذا التَّلبُّس هو الإسناد عينه. يُنظَر: **خوام**، رياض، **نظريّة العامل في النَّحو**، ص٤١.

(٢) مرّ معنا منذ قليل أنّ أسماء الإشارة تعمل بالنّيابة.

(٣) لهذا تقوَّى قول البصريّين القائلين: إنّ "**حتّى**" ينتصب الفعل بعدها بـ "**أن المضمرة**"؛ لأنّ "**حتّى**" من عوامل الأسماء، و "**أنْ**" من عوامل الأفعال، وكذلك بطل عمل "**إنَّ**" لدخول "**ما**" الحرفيّة عليها، لأنّ "**ما**" ألغت اختصاصها بالجملة الاسميّة وجعلتْها تدخل على الجملة الاسميَّة والفعليَّة. يُنظر: **خوّام**، رياض، **نظريّة العامل في النّحو العربيّ**، ص٤٥، ٤٦.

٧- معاني الحروف في الأصل لا تعمل هذا هو المشهور، وأجاز بعضهم عملها[١].

٨- إذا اجتمع عاملان أحدهما لفظيّ والآخر معنويّ، فالعامل اللّفظيّ - وإنْ ضعف - هو الذي يعمل، وهو أقوى من العامل المعنويّ.

٩- العامل الضعيف لا يعمل فيما قبله، ولهذا لا يجوز أن تتقدّم أخبار "إنَّ"، وأخواتها عليها، ولا المجرور والمنصوب والمجزوم على الجارّ والنّاصب والجازم، ولا الحال على عامله الضّعيف غير الفعل المتصرِّف وشبهه كاسم الإشارة وليت ولعلّ وكأنّ وكالظروف المتضمّنة معنى الاستقرار، ولا التّمييز على عامله الجامد إجماعًا، ولا معمول المصدر، ولا معمول فعل التّعجّب، ولا معمول اسم الفعل عليه، ولا المضاف إليه على المضاف، ولا معمول الصِّفة المشبَّهة ولا معمول أفعل التّفضيل على العامل فيها لضعفها ما عدا إذا توسّطَتْ وعملتْ في حالَين كقولنا: "الشّاي ساخِنًا أحسن منه باردًا"[٢]. وهناك قواعد أخرى للعامل ذكرها النّحاة[٣].

وعلى الرّغم من اهتمام القدماء والمُحدَثين بنظريّة العامل إلّا أنّ بعضًا من النّحاة وضع أسبابًا بيّنَتْ قصور العامل عن تفسير المعاني النّحويّة، مِنْها: أنّ المعربات التي تظهر عليها الحركات أقلّ بكثير من مجموع ما يُمكن ورودُه في السّياق من الكلمات، فهناك الإعراب بالحذف، والإعراب المقدَّر للتَّعذُّر أو للثِّقل أو لاشتغال المحلّ، وهناك المحلّ الإعرابيّ للمبنيّات، والمحلّ الإعرابيّ للجُمَل، وكلّ هذه الإعرابات لا تتمّ بوساطة الحركة الإعرابيّة الظّاهرة، ولو أنّ الإعرابات تمّتْ على أساس الحركة الظّاهرة ولم يكن هناك إعراب

(١) فقالوا في قول كعب بن زهير ﷺ:

وما سعادُ غداةَ البين إذْ رحلوا   إلّا أغنُّ غضيضُ الطّرف مكحولُ

إنّ "**غداةَ البين**" ظرف للنّفي، أي انتفى كونها في هذا الوقت إلّا كأغنّ، يعني أنّهم علّقوه بمعنى النّفي الدّالّة عليه "**ما**"، أمّا المانعون فيعلّقونه بالفعل "**انتفى**" نفسه الذي دلّت عليه "**ما**". يُنظر: **ابن هشام، مغني اللّبيب**، ص٥٧٢. ويُنظر: **خوّام**، رياض، **نظريّة العامل في النّحو العربيّ**، ص٤٧، ٤٨.

(٢) **خوّام**، رياض، **نظريّة العامل في النّحو العربيّ**، ص٥٤.

(٣) **المرجع السابق**، من ص٥٤ إلى ص٧٥.

تقديريّ ولا إعراب محلِّيّ لصادفتنا صعوبة أخرى تنشأ عن أنّ الحركة الواحدة تدلّ على أكثر من باب واحد، ومن هنا تصبح دلالتها بمفردها على الباب الواحد موضع لبس(١).

وأخيرًا فإنَّ ما ذكرَهُ النّحويّونَ مِنْ قوّةِ العاملِ وضعفِهِ مأخوذٌ بحُكْم الاستقراءِ لكلامِ العربِ الفُصحاءِ، وليس تحكُّمًا منهم، ولكنَّ بعضَهم غالَى في بعضِ الأصولِ التي توصَّلُوا إليها لنظريّةِ العامل وجعلوها مقياسًا للخطأ والصّواب مع وجودِ نصوصٍ لغويَّةٍ فصيحةٍ تناقضُها(٢).

المطلب الثّاني: نظريّة تضافُرِ القرائن:

وبهذا تكونُ نظريّةُ العاملِ غيرَ كافيةٍ لتوضيح المعنى، لكثرة الآراء والاختلافات في أنواع العامل وطريقة عمله، ولأنّ العلامةَ الإعرابيّةَ بمفردها لا تُعِينُ على تحديدِ المعْنَى، فلا قيمةَ لها مِنْ دونِ تضافُرِ القرائن(٣)، فلا بُدَّ مِنْ بديلٍ عنها أو تطويرٍ لها واستخدامها بشكلٍ مختلفٍ عمّا استخدمه القدماء والمحدثون، نقول: تطوير لها؛ لأنَّ البديل الذي أتى به الدُّكتور تمّام حسان ـ مع أنّه أعلن إلغاء نظريّة العامل ـ ليس نَسْفًا تامًّا للعامل، فالمتتبّع لِما قاله العلماء في العامل، ولِما جاء به تمام حسان سيجد أنّ نظريّة **تضافُر القرائن** البديلة عن نظريّة العامل هي في الحقيقة نشأتْ في رحم نظريّة العامل، وكثير من قواعدها مأخوذ من قواعد العامل، إلّا أنّ البراعة والحِذْق اللذَين استعمل بهما تمام حسان تلك القواعد، والإضافات التي زادها عليها جعلَتْ من نظريّته **تضافُرِ القرائن** أكثر دقّة في التّعبير عن المعنى، فكأنّ تمّام حسّان ربط بين "**نظريّة السّياق**" عند أستاذه "**فيرث**"(٤)،

---

(١) **حسان**، تمام، **اللُّغة العربيّة معناها ومبناها**، ص٢٣١، ٢٣٢.

(٢) **عبد الرحمن**، بهاء الدين، **الموازنة بين نظريّة العامل ونظريّة تضافر القرائن في الدّرس النّحويّ**، ص٦٦٦.

(٣) **عبد الرحمن**، بهاء الدين، **الموازنة بين نظريّة العامل ونظريّة تضافر القرائن في الدّرس النّحويّ**، ص٦٧٤.

(٤) جون روبرت فيرث لغويّ إنكليزي، وأستاذ اللّسانيّات العامّة في بريطانيا، رائد مدرسة لندن للعلم واللّغة، ولد في ١٧ حزيران ١٨٩٠م، في قرية "كيغلي يوركشاير" في بريطانيا، درّس علم الأصوات في جامعة لندن وجامعة أكسفورد عام ١٩٢٨م، ونشر كتابَين في علم الأصوات أثناء تدريسه في جامعة لندن، وهما: "**Speech**" ١٩٣٠م، و"**Tongues of Men**" ١٩٣٧م، ويحتوي هذان الكتابان على أربعة تفصيلات أحدها: فكرة ==

و"**التّعليق**" عند عبد القاهر الجرجانيّ، وانتهى هذا التّأثير عنده بالمنهج الوصفيّ الوظيفيّ الذي بنى عليه فكرة القرائن[(١)] ، وخلاصة الكلام أنّه لا توجد عوامل ترفع وتنصب وتجرّ وتجزم، ولكن توجد قواعد في عرف اللُّغة يتمّ على أساسها الرّفع والنّصب والجرّ والجزم[(٢)].

وتأتي أهميّة **نظريّة تضافُر القرائن** في أنّها ظاهرة ترجعُ في أساسها إلى أنّه لا يُمكن لقرينةٍ واحدةٍ أن تدلّ على معنًى مُعيّن[(٣)] ، ولاقتْ نظريّتُهُ الجديدةُ قبولًا عندَ بعضِ الدَّارسِينَ للنَّحو العربيّ، وأشادَ بها مجموعةٌ مِنَ المحدَثِينَ منهم: **أحمد علم الدّين الجنديّ** الذي قال فيها: "ونظريّة تضافُر القرائن النّحويّة فكرة محكمة الوضع، هزّتِ الدّراساتِ الأصوليّةَ في النّحو هزًّا عنيفًا[(٤)]،... فكانتْ أجرأ محاولة عُرِفَتْ في العصر الحديث"[(٥)]. والدّكتور **مصطفى حميدة** الذي يعدّها "أهمّ المحاولات لفهم النّظام اللُّغويّ للعربيَّة وأبعدها أثرًا، لأنّها أوّل دراسة في تاريخ النّحو العربيّ كلِّه تُقيم منهجها على أساس فكرة "**التّعليق**"[(٦)]، ونظرَتْ إلى اللُّغة نظرة شاملة متكاملة فكشفتْ عن العلاقات التي تربط بين أنظمة اللُّغة الثّلاثة، النّظام الصّوتي، والنّظام الصّرفيّ، والنّظام النّحويّ، وما ينتج عن تفاعلها من المعنى الوظيفيّ، ثمّ كشفَتْ عن العلاقات التي تربط تلك الأنظمة الثّلاثة بقائمة الكلمات في المعجم اللُّغويّ للعربيّة، ثُمّ ربطتْ معنى المقال المستخرَج مِنْ كلِّ هذا

دراسة "**المعنى**" و "**السياق**" في دراسة اللُّغة، أسّس فيرث مع أصدقائه مدرسة اللّسانيّات في لندن المسمّاة "**London school of Linguistic**". تُوفِّي في ١٤ كانون الأوّل ١٩٦٠م في "ليفيليد، ساسكس، بريطانيا. يُنظر: **مفهوم السّياق عند تمام حسان وفيرث**، دراسة تحليليّة مقارنة، بحث جامعي، **إعداد: أحمد سراج المنير**، جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية بمالانج، ٢٠١٦، ص٤٨، ٤٩. ٥٠.

(١) **نظريّة القرائن النّحويّة، دراسة وصفيّة**، ص٥٨٢، ٥٨٣.

(٢) **عبد الرحمن**، بهاء الدّين، **الموازنة بين نظريّة العامل وتضافر القرائن في الدّرس النّحويّ**، ص٦٦٣.

(٣) **حسان**، تمام، **اللُّغة العربيّة معناها ومبناها**، ١٩٥.

(٤) **نظريّة القرائن النّحويّة، دراسة وصفيّة**، ص٥٨٤.

(٥) **حسان**، تمام، **اللُّغة العربيّة معناها ومبناها**، ص١٠. ويُنظر: نظريّة القرائن النّحويّة، دراسة وصفيّة، ص٥٨٤.

(٦) **حميدة**، مصطفى، **نظام الارتباط والرّبط في تركيب الجملة العربيّة**، ص٩٧. **علي**، أحمد خضير عباس، 2010م ـ **أثر القرائن النّحويّة في توجيه المعنى في تفسير البحر المحيط**، إشراف: محمّد حسين علي الصغير، جامعة الكوفة، ص١٦. ونظريّة القرائن النّحويّة دراسة وصفيّة، ص٥٨٥.

بمعنى المقام، وهو مركز علم الدّلالة، لِتَخرُجَ بالمعنى الدّلالِيّ للجملة[١]، ويرى البعض الآخر أنّها أعطَتْ للنّحو مفهومَهُ ومكانه الصّحيح بينَ أنظمة العربيّة، فلم يَعُدْ مقصورًا على درس ظواهر الإعراب والبناء فقط، ولا حتّى علمًا خاصًّا بدراسة الأبواب، أو ما يُسمَّى المعاني النّحويَّة الخاصَّة، وإنَّما أصبح نظامًا يتناول ذلك كلّه[٢]، فهو دراسة نقديّة مع إعادة ترتيب[٣]، وأوّل دراسة متكاملة على المنهج الوصفيّ[٤].

وبعد هذه الآراء نجد **أنّ لنظريّة تضافُر القرائن** التي جاء بها تمام حسان **مزايا لم تتوفّر لدى النُّحاة في نظريّة العامل، مِنها:**

١ـ أنّ مبدأ تضافُر القرائن يُفسِّرُ التَّعليقَ النَّحويّ كلَّهُ، على حين لا يُفسِّر العاملُ النَّحويّ منه إلّا قرينةً واحدةً هي العلامة الإعرابيّة، ولتوضيح ذلك يجبُ علينا تحليلُ البيتِ الآتي لأميّة بن أبي الصّلت على طريقة المقارنة بين نظريّة العامل ونظريّة تضافُر القرائن[٥]:

وقد يقتلُ الجَهْلَ السُّؤالُ ويشتفي إذا عاينَ الأمرَ المُهِمَّ المعاينُ

إنْ وضعْنا كلمتَي **"الجهلَ"** و **"السُّؤالُ"** في ميزانَي العامل وتضافُر القرائن، فإنّنا سنجدُ الفرقَ كبيرًا بينهما في توضيح المعنى وفي بيان العلاقات بين عناصر التّركيب؛ فنظريَّة العامل وَضعَتْ كلمة **"الجهلَ"** في باب المنصوبات، وكلمة **"السُّؤالُ"** في باب المرفوعات، وهذا هو التَّفسير للفتحة في **"الجهلَ"** والضّمّة في **"السُّؤالُ"**، وكلّ ما تستطيع نظريّة

(١) **حميدة**، مصطفى، **نظام الارتباط والرّبط في تركيب الجملة العربيّة**، ص٦٧، ٦٨. ونظريّة القرائن النّحويّة دراسة وصفيَّة، ص٥٨٥.

(٢) **سعيد**، عبد الوارث مبروك، ١٩٨٥م ـ **في إصلاح النّحو العربيّ**، الطبعة الأولى، دار القلم، ص١٧٦. ويُنظر: **البلتاجي**، هشام السعيد حسن، **نظريّة القرائن النّحويّة دراسة وصفيَّة**، ص٥٨٥،٥٨٦.

(٣) **البلتاجي**، هشام السعيد حسن، **نظريَّة القرائن النّحويّة دراسة وصفيّة**، ص٥٨٦.

(٤) **الغفيلي**، منصور بن عبد العزيز، ٢٠١٣م ـ **مآخذ المحدثين على النّحو العربيّ وآثارها التنظيريّة والتّطبيقيّة (دراسة تطبيقيّة)**، مؤسسة أروقة للدراسات والتّرجمة والنّشر، نادي القصيم الأدبي، ص٣٦٧. ويُنظر: نظريَّة القرائن النّحويّة دراسة وصفيّة، ٥٨٦.

(٥) **ديوان أميّة بن أبي الصّلت**، عبد الحفيظ السّطلي، ص٥٠٠.

العامل أن تُقدّمه لنا على رأي تمام حسّان ومناصريه أنّ الفعل **"يقتلُ"** هو العامِل الذي ترك هذين الأثرين على هاتَين الكلمتَينِ، لأنّنا إنْ حذفْنا الفعل **"يقتلُ"** يختلّ التَّركيب وتصبح العلاقة بين **"الجهل"** و **"السُّؤال"** غير واضحة بسبب اختفاء العلامات الإعرابيّة، ويبقى توضيح المعنى بحاجة إلى دلائل أخرى وتفسيرات كالإسناد والبنية والتَّضامّ وغيرها مِمَّا له علاقة مباشرة بتوضيح العلاقات والتّرابُط بين الكلمات، وهذا ما نجده في **نظريَّة تضافُر القرائن**، لِمَا تُقدِّمُه لنا هذه النّظريَّة من التّرابُط والتَّعليق بين عناصر التَّركيب؛ فنبدأ **بقرينة البنية** التي تُبيِّن أن لفظَتَي **"الجهل"** و **"السُّؤال"** اسمان صالحان للأبواب النّحويّة كافّة، وتأتي **قرينةُ الإسناد** لِتبيّنَ أنّ القتل قد أُسْنِدَ إلى السُّؤال، وهنا تنحصر وظيفةُ المسند إليه **"السُّؤالُ"** في باب المرفوعات في إحدى وظيفتَين: الفاعل أو نائب الفاعل، وبالعودة إلى **بنية** المسنَد وهو لفظة الفعل **"يقتل"** تبيَّنَ أنّه فعلٌ مبنيٌّ للمعلوم، وفي بنية هذا الفعل بيان بأنّ لفظة **"السُّؤال"** فاعل مرفوع لأنّ الفعل المبنيّ للمعلوم لا يُسنَد إلّا إلى الفاعل، لكنّ هذا الإسناد يبقى بحاجة إلى تخصيص وتقييد لأنّ إسناد القتل إلى السُّؤال عامٌّ ومبهم، وباللُّجوء إلى **قرينة التّخصيص** نجد أن لفظة **"الجهلَ"** أزالتِ الإبهام وقيّدَتْ جهةَ الإسنادِ، ومكانها في الجملة في معنى المفعول به الذي دلّتْ عليه قرينةٌ فرعيَّةٌ مِنْ قرائن التّخصيص وهي **"التَّعدية"**، وبقرينة **الرّتبة المحفوظة** التي منعَتْ تقدُّم المسنَد إليه **"السُّؤال"** على المسند **"يقتل"**، تأكَّدَ هذا المعنى، **والرّتبة غير المحفوظة** بين المفعول به **"الجهلَ"** والفاعل **"السُّؤال"** سمحَتْ بتقدُّم المفعول به على الفاعل لأغراض بلاغيّة منها الاهتمام والتّشويق، وبتضافُرها مع **قرينة الرَّبط** بالمطابقة في أحرف المضارعة حيثُ جاءَتِ المطابقة بين الفعل **"يقتلُ"** والفاعل **"السُّؤال"** في التَّذكير والإفراد، فتطلّبَتْ هذه المطابقة الاستعانة بلاصقةٍ مناسبةٍ تُطابِق الفاعل وتأتي في أوّل الفعل المضارع، وهذه اللّاصقة هي حرف المضارعة **"التّاء"**، وتأتي **قرينة التَّضامّ** لِتُبَيِّنَ أنّ الفعل **"يقتل"** مُفْتَقِر إلى فاعل يقوم بالقتل وإلى مفعول به يقعُ عليه القتل، وهذا الفاعل هو لفظة **"السُّؤالُ"**، والمفعول به هو **"الجهل"**، وتأتي **قرينة العلامة الإعرابيّة** في المرتبة الأخيرة برأي تمام حسان، فهي مُحصِّلة لتضافُر القرائن السّابقة، فمَنْ يُجْرِ التّحليل السّابق فلن يحيد عن جعل الضَّمّة علامة رفعٍ للفظة

"**السّؤال**" على أنّها فاعل مرفوع، والفتحة علامة نصبٍ في لفظة "**الجهل**" على أنّها مفعول به منصوب، سواء أكانتْ ظاهرة أم مقدَّرة أم غير موجودة بسبب البناء أو المحلّ الإعرابيّ.

٢ـ أنّ مبدأ تضافُر القرائن يُيَسِّرُ إدراكَ العلاقات النَّحويَّة بِما يُحدّدُ مِنَ الأمور المحسوسة، على حين يُفسح العامل النَّحويّ الطَّريق أمام التَّخريج والتَّأويل والتَّقدير، وهي أمور فرديَّة لا ضابطَ لها.

٣ـ أنَّ الاعتماد على القرائن في فهم التَّعليق ينفي عن النَّحو العربيّ:

أ ـ كلّ تفسير ظنّيٍّ أو منطقيّ لظواهر السِّياق.

ب ـ كلّ جدلٍ مِن نوعٍ ما لجَّ فيهِ النُّحاةُ حولَ منطقيّةِ هذا العملِ، أو ذاك، وحول أصالة بعض الكلمات في العمل وفرعيّة الكلمات الأخرى، وحول قوّةِ العامل وضعفه، أو تعليله، أو تأويله مِمَّا ازدحمتْ به كتب النّحو دون طائل[1]. ويختارُ تمام حسان القرائنَ بديلًا للقولِ بالعوامل، ويكتفي في تحليلِ الكلمات المعرَبة بقولنا: مرفوع، أو منصوب، أو مجرور، أو مجزوم، فقط دونَ قولِنا: مرفوع بكذا، أو منصوب بكذا، بل يُمكننا إذا أردْنا أن نقول مثلًا: مرفوع على الفاعليّة، أو منصوب على المفعوليَّة، وهلمَّ جرًّا[2].

لكن هناك مِنَ العُلماءِ المحدَثِينَ مَنْ يرى أنّ الدّكتور تَمّام حسّان لم يأتِ بجديدٍ إلّا بأنْ سمّى مقتضياتِ العاملِ قرائنَ، وجعلَ لكلِّ قرينةٍ اسمًا، فمِنْ ذلكَ ما ذكرَهُ النّحويُّون مِنْ مقتضياتِ الفاعل وجاءَ موافقًا لما قاله تَمّام حسّان في القرائن الدّالّة على الفاعل، ومنها أنّ مِنْ مقتضياتِ الفعل في الفاعل أن يكون اسمًا، وهذا ما يُسمِّيه تمّام حسّان الصّيغة، لكونه

---

(١) **نظريَّة القرائن النّحويّة دراسة وصفيّة**، ٥٧٣، ٥٧٤، وعبد الرّحمن، بهاء الدّين، **الموازنة بين نظريّة العامل وتضافُر القرائن**، ص٦٧٥.

(٢) **حسان**، تمام، **اللُّغة العربيَّة معناها ومبناها**، ٢٣٢، ٢٣٣.

منتميًا لمبنى التّقسيمات لبنية الكلمات، ومن المقتضيات أيضًا أن يكون الفعل مُسندًا إلى هذا الاسم، وهذا يُسمّيه تمام حسان قرينة الإسناد، وهي قرينة معنويّة، ومن المقتضيات التي ذكرها النّحويّون أن يكون هذا الاسم مؤخَّرًا عن الفعل وهذا ما يُسمِّيه تمام حسان الرّتبة، وهي قرينة لفظيّة، ومن المقتضيات أنّه إذا كان هذا الاسم مؤنَّثًا حقيقيًّا غير مفصول عن الفعل أن تلحق بالفعل علامة تأنيث وهذه قرينة المطابقة عند تمّام حسان، وتشمل أيضًا مقتضى أن يكون الفعل للمفرد الغائب إن كان الفاعل مفردًا أو مثنًّى، أو جمعًا، فعمله هذا تصنيفيّ لا غير، وإنّ النّظريّة في الحقيقة لم تأتِ بجديد سوى التّسميات والاصطلاحات التي كانت مفهوماتها معروفة وملحوظة في كُتب النَّحويّين الذين اعتمدوا في دراساتهم على نظريّة العامل[1] ، وهذا ما يؤيّده البحث. وما يهدفُ إليه هو أنْ يثبتَ أنّ نظريّة تمام حسّان ليست من بُنيّات أفكاره، وليستْ خيالًا خصبًا يبني عليه ما بناه، إنّما الهدفُ مِنَ البحثِ أنْ يثبتَ أنَّ نظريّة تمام حسان مأخوذةٌ مِنْ بطونِ كُتُبِ النُّحاة العرب ومناهجهم التي ساروا عليها ولا جديد فيها إلا أنّه أراد أن يضيف إلى لغتِنا العربيّةِ الحيويّةَ من إبداعه وروحه، ويبثَّ في شرايينها الحياة لتعود مشرقة متناسبة مع التّطوّر الكبير الذي تشهده العلوم في العصر الحديث، وليثبت أنّ "**لغتنا العربيّة يُسر لا عسر**"، فنجحَ في خَلْقِ التّناغُم بينَ ما أرادَهُ وبينَ ما عندَ النُّحاة.

الخاتمة والنَّتائج:

خرجَ البحثُ بعدَ كلِّ هذهِ التّفاصيلِ بنتائجَ كثيرةٍ، مِنها:

أكسبَ القارئَ معرفةً ببعض المصطلحات، منها: "العامل" و"القرائن"، ودرايةً بتاريخ العامل وأوّل مَنْ تكلَّمَ به، وأكسبَهُ أيضًا معرفةً بأنواع العوامل سواء أكانت قياسيّةً أم سماعيّةً، معنويّة أم لفظيّة، وكان لهذه المعرفة أثرٌ كبيرٌ في منح القارئ القدرة على التَّعامُل مع التّراكيب في النّصوص الأدبيّة، لكنّ هذه القدرةَ بدَتْ غير مكتملةٍ وتحتاجُ نظريّةً

(١) **عبد الرحمن**، بهاء الدّين، **الموازنة بين نظريّة العامل وتضافر القرائن في الدّرس النّحويّ**، ص٦٧٦، ٦٧٧، ٦٧٨. ويُنظر: **نظريَّة القرائن النَّحويَّة دراسة وصفيّة**، ٥٨٧، ٥٨٨.

جديدةً تكونُ الأقدرَ على بيان الوظائف النّحويّة، وتذوُّق النُّصوص الأدبيّة، وكانتْ هذهِ النَّظريّةُ هي "تضافر القرائن" لتمَّام حسّان، التي وجد فيها القارئُ من خلال ما سبق المعينَ الأكثر أهميّة على بيان الوظائف النَّحويّة.

ومن نتائج البحث أيضًا أنَّه ومن خلال نظريّة تضافر القرائن استطاعَ القارئ للنَّصوص الأدبيّة أن يُحلِّل هذه النَّصوص نحويًا وبأسلوبٍ جديدٍ، بما امتلكه منْ مقتضياتِ العامل التي أسماها تمّام حسَّان القرائن المعنويّة واللَّفظيّة، ولم يكن تخلِّي تمَّام حسَّان عن نظريّة العامل اعتباطًا، لكنَّه ساق ـ كما رأينا ـ أدلَّةً مقنعةً تُبيِّن ضعفَ هذه النَّظريّة، وتثبت برأيه أنَّ تضافُرَ القرائنِ هو الوسيلةُ الأفضلُ للتَّعامُل مع النّصوص الأدبيّة من خلال الوصول إلى المعنى بأجمل أسلوب وأدقّ عبارة.

ويستطيع القارئ أنْ يخرج من هذا البحث بنتيجةٍ مفادها أنَّ العامل ما هو إلَّا قرينة من القرائن التي تحدَّث عنها تمَّام حسَّان.

وأخيرًا استطاع القارئ من كلّ ما سبق أن يميّز في البحثِ نِقاطَ الضَّعفِ ونِقاط القوّةِ في كلٍّ مِنْ نظريَّتَي العامل وتضافُرِ القرائنِ، وقدَّمَ البحثُ للقارئ مادَّةً غنيّةً يستطيعُ مِنْ خلالِها أنْ يُصدرَ حُكْمَهُ على كلِّ ما وردَ مِنْ آراء، وأن يتعامل مع كلِّ ما يقرَؤُهُ بمعرفةٍ وشمولٍ.

المصادر والمراجع

المصادر:

- **القرآن الكريم.**
- **أميّة بن أبي الصَّلت، الدِّيوان**، جمع وتحقيق ودراسة: د. عبد الحفيظ السّطلي، الطبعة التاسعة، مكتبة أطلس، دمشق.

المراجع:

- **إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط**، المكتبة الإسلاميّة، استانبول، تركيا، (د،ط)، (د،ت).
- **الأنباري**، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمّد، ١٩٥٥م - **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويّين البصريّين والكوفيّين**، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة.
- **البغدادي**، ابن إياز، ٢٠١٠، ٢٠١١ - **قواعد المطارحة في النّحو**، تحقيق: يس أبو الهيجاء، شريف عبد الكريم النّجار، علي توفيق الحمد، دار الأمل، الأردنّ.
- **البلتاجي**، هشام السّعيد حسن، ٢٠٠٧م - **نظريّة القرائن النّحويّة**، دراسة وصفيّة، كلية اللغة العربية بالمنصورة، جامعة الأزهر، مجلة حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الثاني والثلاثون.
- **التّهانوي**، ١٩٩٦م - **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، تقديم وتحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت.
- **الجرجانيّ**، عبد القاهر، ٢٠٠٤م - **دلائل الإعجاز**، علّقَ عليه: محمود محمّد شاكر، الطّبعة الخامسة، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.
- **الجرجانيّ**، عبد القاهر، ٢٠٠٩م - **العوامل المئة**، عُني به: أنور بن أبي بكر الشيخي الداغستاني، الطبعة الأولى، دار المنهاج، جدة، السعودية.
- **الجرجانيّ**، عبد القاهر، ١٩٨٢م - **المقتصد في شرح الإيضاح**، تحقيق: كاظم بحر المرجان، دار الرشيد للنشر.
- **ابن جنّي**، أبو الفتح عثمان، ١٩٥٢، ١٩٥٧ - **الخصائص**، تحقيق: محمّد علي النجار، الطبعة الأولى، دار الكتب المصريّة.

- **حسان**، تمام، ١٩٧٩م - **اللغة العربيّة معناها ومبناها**، الطبعة الثانية، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة.

- **حميدة**، مصطفى، ١٩٩٧م - **نظام الارتباط والرّبط في تركيب الجملة العربيّة**، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان، بيروت.

- **الزّركلي**، خير الدين، ٢٠٠٢- **الأعلام**، الطَّبعة الخامسة عشرة، دار العلم للملايين، بيروت.

- **سعيد**، عبد الوارث مبروك، ١٩٨٥م - **في إصلاح النّحو العربيّ**، الطبعة الأولى، دار القلم.

- **سيبويه**، ١٩٩٩م - **الكتاب**، تحقيق: عبد السَّلام مُحَمَّد هارون، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.

- **الشَّريف الجرجانيّ**، **معجم التَّعريفات**، تحقيق: مُحَمَّد صدّيق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، (د.ت).

- **عبد الرّحمن**، بهاء الدّين، **الموازنة بين نظريّة العامل وتضافُر القرائن في الدرس النحوي**، الألوكة.

- **عزيز**، كوليزار كاكل ، ٢٠٠٩م - **القرينة في اللغة العربيّة**، الطبعة الأولى، دار دجلة، عمان، الأردنّ.

- **الغفيلي**، منصور بن عبد العزيز، ٢٠١٣م - **مآخذ المحدثين على النّحو العربيّ وآثارها التنظيريّة والتّطبيقيّة (دراسة تطبيقيّة)**، مؤسسة أروقة للدراسات والتّرجمة والنّشر، نادي القصيم الأدبي.

- **الفراهيديّ**، الخليل بن أحمد، ١٩٨٢م - **كتاب العين**، تحقيق: مهدي المخزوميّ وإبراهيم السّامرّائيّ، الطبعة الأولى، دار الرّشيد للنّشر، بغداد، مادّة.

- **ابن منظور**، ٢٠٠٤ - **لسان العرب**، الطبعة الثالثة، دار صادر، بيروت.

الرسائل الجامعيّة:

- **علي**، أحمد خضير عباس، ٢٠١٠م - **أثر القرائن النّحويّة في توجيه المعنى في تفسير البحر المحيط**، إشراف: مُحَمَّد حسين علي الصغير، جامعة الكوفة.

- **المنير**، أحمد سراج، ٢٠١٦م - **مفهوم السّياق عند تمام حسان وفيرث**، دراسة تحليليّة مقارنة، بحث جامعي، جامعة مولانا مالك إبراهيم الإسلامية الحكومية بمالانج، ص٤٨، ٤٩. ٥٠.

التراث العربي
العدد المزدوج (١٥٩-١٦٠)/ خريف- شتاء/٢٠٢٠- ٢٠٢١

العمارة الطينية بين التراث والمعاصرة

د. عقبة فاكوش*

الملخص:

العمارة الطينية أقدم مادة عرفها الانسان واستخدمها للبناء للتعبير عن تفاعله المكاني وثقافته وفنه المرحلي عبر التاريخ، وهي من أهم الحلول لمشكلة الإسكان والتنمية المستدامة في عالمنا المعاصر، وأحد أهم الجوانب التطبيقية لربط التراث العمراني مع الحياة المعاصرة؛ وأحد أفضل المداخل لحل معضلة الإسكان، والتخفيف من مشكلات تصنيع مواد البناء، مع ما تحتويه من مظاهر جمالية وإمكانيات فنية قابلة للتوارث والتفاعل والتطبيق في مجتمعاتنا وخاصة الريفية منها؛ وتزداد أهمية ذلك من خلال تحقيق مفهوم الحفاظ على استمرار تراث العمارة الطينية مع ما تتضمنه من موروث فني أصيل بكل ما تحتوي وتختزن من التنوع والجمال والألفة.

الكلمات المفتاحية :

الطين و التراث– المواد المحلية – الاستدامة والطين – الدك – الطوب

---

* أستاذ مساعد في قسم التصميم المعماري، كلية الهندسة المعمارية، جامعة دمشق.

المقدمة:

تعكس العمارة تعاقب التاريخ بتطوراته وتغيراته التكنولوجية والبيئية، فهي من أقدر الوثائق التي يمكن اعتمادها في إعادة بناء تصور الماضي، وهي تعطي المعاني الاقتصادية والاجتماعية والسياسية السائدة في المكان والزمان، وتتجلى من خلال انتشار استخدام المفردات والرموز والأشكال الدلالية التي ترتبط بذاكرة الشعوب عن عماراتهم الوطنية والمحلية والطابع المعماري المألوف بالنسبة اليهم.

ويعتبر البناء بمادة الطين من أقدم تقنيات البناء التي استخدمها الإنسان في التعبير عن تفاعله المكاني وثقافته وفنه المرحلي عبر التاريخ، وتحظى مادة الطين حالياً باهتمام كبير لكونها مفتاحاً لحل العديد من المشاكل في العالمين الصناعي والنامي، سواء على الصعيد البيئي، أو الطاقة والتلوث، أو الإسكان والبطالة؛ وفي ظل التدهور البيئي واستنزاف البيئة الطبيعية، واستهلاك الطاقات غير المتجددة، كان لابد من تناول مفاهيم تؤكد على الاستدامة والعمل وفق استراتيجيات هندسية ومعمارية تعمل على الحد من اللامبالاة في التعامل مع الطبيعة؛ من أهم الخطوات على صعيد الهندسة المعمارية كان من الواجب العمل وفق المعطيات المتوفرة في سورية وخصوصاً البناء بالمواد المحلية وخصوصاً من مادة الطين التي تتوفر في الارجاء كافة، ولا يحتاج العمل بها إلى مهارات كبيرة وتتماشى مع المفاهيم الاجتماعية/ الاقتصادية السائدة.

وتبحث إشكالية البحث في التركيز على إظهار ملامح وهوية العمارات الوطنية المحلية، كرد فعل عفوي على العمارة متعددة الجنسيات والطراز العالمي للعمارة والأنماط السكنية المستوردة التي تفتقر إلى مفهوم واضح حول استهلاك الطاقة، والبيئة، والمحلية والدلائل المرتبطة بها.

وتأتي أهمية البحث من أن العمارة الطينية هي من أهم الحلول لمشكلة الإسكان والتنمية المستدامة في عالمنا المعاصر، وأحد أهم الجوانب التطبيقية لربط التراث العمراني مع الحياة المعاصرة؛ وأحد أفضل المداخل لحل معضلة الإسكان، والتخفيف من مشكلات

تصنيع مواد البناء؛ كما تظهر أهمية البحث في التأكيد على خطورة ضعف الاهتمام بهذا النمط المعماري الواسع الانتشار، على الرغم مما تحتويه من مظاهر جمالية وإمكانيات فنية قابلة للتوارث والتفاعل والتطبيق في مجتمعاتنا وخاصة الريفية منها؛ وتزداد الأهمية من خلال تحقيق مفهوم الحفاظ على استمرار تراث العمارة الطينية مع ما تتضمنه من موروث فني أصيل بكل ما تحتوي وتختزن من التنوع والجمال والألفة.

ويهدف البحث إلى الافصاح عن جانب علمي مشرق بات منسياً في ظلال التقنيات المستوردة، ويبعث الحياة من جديد لتطوير العلوم والمفاهيم الثقافية التي أظهرت قدرة ومكانة سورية تاريخياً؛ كما يتجه البحث في أجزاء كبيرة منه إلى زيادة المخزون المعرفي الوطني الذي يتميز به أصلاً في هذا الجانب من علوم المعرفة عبر التاريخ الموغل في القدم؛ ويسعى البحث إلى إعادة إحياء استخدام مواد البناء المحلية وخصوصاً مادة الطين التي اشتهر بها سكان المنطقة، ويتجه البحث إلى تحقيق غاياته من خلال تبني نتائجه من قبل مؤسسات الدولة المعنية بتوفير المأوى الآمن والمناسب للمواطنين.

ويتألف البحث بعد هذه المقدمة التمهيدية، من أربعة أجزاء وخاتمة، تناول الجزء الأول نوعاً من التفصيل لمادة الطين ومكوناتها واستخداماتها، وعرض في الجزء الثاني بشكل مختصر تاريخ العمارة الطينية، أما الجزء الثالث فقد تناول تطور العمل بالعمارة الطينية حتى الفترة المعاصرة؛ ويأتي الجزء الرابع على بيان أهمية نهج العمارة الطينية، ويختتم البحث بخاتمة ونتائج وتوصيات.

أولاً: تاريخ البناء بالطين ونماذج من الأبنية الطينية:

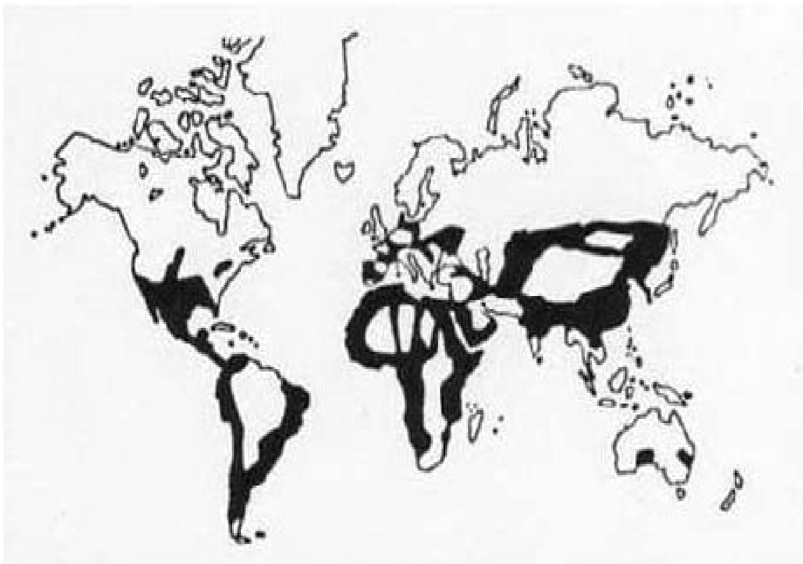
يعتبر فتروفيوس[(١)] أول من أرّخ كتابياً لاستخدامات الطين في البناء، فقد شرح في مدونته العظيمة أساليب البناء لفترات تعود إلى الحضارات السابقة على الحضارة

(١) **فيتروفيوس**: هو ماركوس فيتروفيوس باليو "Marcus Vitruvius Pallio"، مهندس معماري روماني، ولد ما بين ٨٠ و٧٠ ق.م وتوفي عام ٢٣م، عمل مهندساً حربياً تحت إمرة القيصر في أفريقية، وشارك في فتح ==

الرومانية؛ ففي معرض حديثه عن أصل المنزل السكني، أشار إلى انتشار استخدام الطين في الأبنية السكنية لدى الإنسان الأول وفي الحضارات التي تسبق الرومان، يقول: "فشرعوا بإنشاء الحواجز في تجمعاتهم البدائية، وصنعها بعضهم من فروع الأشجار الخضراء، وآخرون حفروا الكهوف على سفوح الجبال، وقلد آخرون أعشاش الطيور بطرق بنائها من الطين والأغصان؛ ومع مرور الزمن، صنعوا أنواعاً أفضل وأحسن من الأكواخ، بعد ملاحظة بعض التفاصيل في حواجز وملاجئ الآخرين، وإضافتها إلى ما لديهم، وفقاً لطبيعة التقليد وقابلية التعلم"[١٦]؛ ويتابع في تأكيده على استخدامات مادة الطين:"ومع تحسن أدائهم بشكل يومي، وصقل مواهبهم الطبيعية في المحاكاة، كانوا يتبجّحون بالـمُحدث في أبنيتهم، يتداولون نتائج بنائهم، فتطورت المفاهيم من وضع الأوتاد ذات الشعاب المشدودة بالأغصان والجدران المغطاة بالطين، إلى بناء الجدران من كتل الطين الـمُجفف المغطاة بالقصب وأوراق الشجر للوقاية من المطر والحر، وبعد اكتشاف ضعف صمود السطوح بوجهِ المطر وقت العواصف شتاءً، قاموا ببناء السطوح المائلة المكسوة بطبقة من الطين البارزة عن الجدران لإبعاد ماء المطر".[١٦] وتؤكد المراجع التاريخية[١٩] أنَّ العمارة الطينية كانت الأكثر انتشاراً عبر التاريخ، وقد ظهرت وتبلورت ملامحها الأولى في حضارات الشرق؛ وتشير المعطيات العلمية والتاريخية والحفريات الأثريّة، إلى أنَّها عمّت أنحاء العالم القديم كافة،[١٨] وقد استخدم الطين على نطاق واسع في الحضارات القديمة، فمنذ عشرة آلاف سنة بنى الإنسان مساكنه ومعابده وقصوره من التراب والطين، استخدمت مادة الطين في العصور القديمة على نطاق واسع، في حضارات ما بين النهرين، وفي مصر، واليونان والرومان، وشعوب الشرق الأوسط، والهند، والصين.[٩] وخلال العصور الوسطى كان البناء بالطين لا يمارس في أوروبا فحسب، بل كان يمارس أيضا في أمريكا الشمالية، من

اسبانيا وبريطانيا، وكان مهندساً معمارياً في عهد "أوغسطس"؛ واعتزل العمل الرسمي في شيخوخته ليضع أصول أعظم الفنون الرومانية بكتابه المسمى: "الكتب العشرة في العمارة".

قبل الهنود، وفي المكسيك؛ وكان هذا الفن المعماري، ولا يزال، يمارس في حضارات متنوعة بأفريقيا. [١٢]



الشكل رقم (١)
انتشار استخدام الطين عالمياً.

وفي الوقت الحاضر لا يزال يعيش أكثر من ثلث سكان العالم، أي ما يعادل مليار ونصف شخص، في مثل هذا النوع من العمارة؛ ويعيش 50 % من سكان الدول النامية في منازل طينية، منهم 20 % يعيشون في المدن. ويبين الشكل رقم (١) الأقاليم الرئيسية في العالم التي تستعمل التراب في البناء.

وعلى أية حال فإنّ البقايا الأثرية للعديد من المدن والقرى، في المناطق المختلفة من العالم، هي خير شاهد على ما كانت تحظى به هذه المادة من أهمية، في بناء تلك المستوطنات التي بُنِيَ معظمها بالطين الخام غير المحروق، فمنها على سبيل المثال مدينة أريحا في فلسطين، والتي تُعَدُّ أقدم مدينة في التاريخ؛ وسور الصين العظيم المشيّد معظمه من الطين والتراب الخام، كما بني في القرن السابع ق.م بهذه المادة برج بابل بارتفاع يصل إلى تسعين متراً كأول ناطحة سحاب بناها الإنسان. [٢٢]



إيران



برج بابل



أريحا

الشكل رقم (٢) انتشار استخدام الطين عالمياً.

ولا تزال البلاد العربية تحتفظ بشواهد عدة لأولى المدن التاريخية التي شيدت كاملة بالتربة الطبيعية. وعلى مرِّ العصور تناقلت الأجيال هذه المهارة التي ازدادت تطوراً لتشييد نماذج الأبنية كافة؛ المدنية والدينية والعسكرية، المتواضعة والفخمة.من أهم نماذج المباني الطينية القديمة في العالم هي مدينة شبام في حضرموت حيث توجد أقدم ناطحات سحاب في العالم وسميت بمنهاتن الصحراء، تعود لأكثر من ٧٠٠ سنه يتراوح ارتفاع البرج من ٦ إلى ٨ أدوار طينية ولا تزال آهلة بالسكان؛ ومنها منارة مسجد المحضار في تريم حضرموت، والتي بنيت من الطين في العام ١٣٣٣ هجري ويصل إرتفاع المئذنة إلى ٥٠ متراً؛ وقصر السلطان الكثيري في مدينة سيئون بحضرموت الذي بني عام ٩٢٢ هجري ولا يزال قائماً.[٦] أنظر الأشكال (٢) و(٣).



منهاتن الصحراء: شبام



منارة المحضار



قصر السلطان الكثيري

الشكل رقم (٣) نماذج من العمارة اليمنية

ولعل من الأمثلة المعروفة في هذا الشأن المدن العربية الرائعة المشيدة بالطين كمدينتي شبام وصعدة في اليمن، ومدينة مراكش في المغرب، ومدينة أدرار في الجزائر،

ومدينة غدامس في ليبيا، وحلب في سوريا،[١٨] إلى غير ذلك، أنظر شكل (٤). ولعل بعض المدن السعودية إذ كان البناء في تلك المدن حتى قبل عقدين أو ثلاثة يقوم أساساً على مادة الطين[٢].





مصر المغرب السعودية





سورية اليمن ليبيا

الشكل رقم (٤) نماذج من المباني الطينية

وتعتبر الشواهد التاريخية لعمارة الطين في أوروبا قديمة، إلا أنها لم تصل إلى ما وصلت إليه في منطقة البلاد العربية والإسلامية؛ إذ إن مفهوم المدن في أوروبا لم ير النور إلا بتأثير الرومان منذ حوالي ٢٠٠٠ سنة، عندما قاموا بتشييد عاصمة المقاطعات الغربية لإمبراطوريتهم في ليون Lyons، ثاني أكبر المدن الفرنسية حالياً، مستخدمين الطين مادةً أساسية في البناء؛ ولا يزال البناء بالطين في منطقة ليون وما حولها، وتُعَدُّ أكثر المناطق الأوروبية التي عُنيت ماضياً وحاضراً بالبناء بالطين، حيث تضم أكبر كثافة سكنية وعمرانية مستخدمة لهذه المادة والتي تمثل ما نسبته ٧٥% من إجمالي المساكن الريفية، وفي هذه المنطقة نماذج مميزة من القصور الفخمة المشيدة من الطين منذ

مدة تتراوح من ١٠٠ إلى ٢٠٠ سنة، تسكنها حالياً بعض الطبقات البرجوازية، وفيها كذلك عدد كبير من الأبنية العامة كالمدارس والمستشفيات وغيرها من المباني التي يصل ارتفاع بعضها إلى خمس طبقات، كلها مشيدة بالطين. ويشير جان دتييه[٢٨] إلى أنه لا تزال هناك نسبة ١٥% على الأقل من المباني الريفية في فرنسا تصنع من الطين الخام وهناك عدة أمثلة لهذه المباني الطينية بالقرب من ليون، ريمز Reims، غرونوبل Grenoble، تولوز Toulouse، رين Rennes، أفينيون Avignon، وكذلك شارتر Chartres، الواقعة بالقرب من العاصمة الفرنسية باريس.[٢٣]

ثانياً: مادة الطين:

الطين مادة بناء عرفها الإنسان أول ماعرف بعدما خرج من الكهوف وكون منها مسكنه منذ العصور الأولى، وهذه المادة لم تلق من التحديث والتطوير ما لقيته المواد الأخرى حتى باتت مادة ينعتها البعض بالرخيصة والفقيرة والمحدودة الإمكانيات الهندسية، والكثير من الصفات التي ترجح جوانبها السلبية كمادة للبناء.

والطين والتربة لفظان يطلقان على العمارة الطينية بشكلٍ عام، إلا أنهما مصطلحان يختلفان بعض الشيء؛ فالتربة هي الطبقة الهشة التي تغطي صخور القشرة الأرضية على ارتفاع يتراوح ما بين بضع سنتمرات إلى عدة أمتار وهي مزيج أو خليط معقد من المواد المعدنية والعضوية والهواء والماء، تلتقي عندها الأغلفة الجوية والحيوية والماء، حيث تقوم بينهما علاقة ديناميكية متبادلة، ولولا وجود التربة لما وجدت الحياة ولولا وجود الحياة في التربة لما تم تكوينها وتشكيلها وبناؤها وتحديد خصائصها الكيماوية والفيزيائية.

إنَّ توافر الطين أو التراب في معظم المناطق جعل من السكان المحليّين يعتمدون على استخدامه بتقنيات بسيطة تتلاءم مع مواصفات المادة وتستجيب للمناخ والبيئة والحياة الاجتماعية؛ فالمادة متوفرة مجاناً في الطبيعة، وهي سهلة التشكيل والصيانة، وهي قادرة على تخزين الحرارة والبرودة والرطوبة، وبالتالي توفير الطاقة المستخدمة في البناء والتشغيل؛ وقد قام كثير من الباحثين بتحليل هذة المادة ووجدوا أنّه يتكون من ٣٤%

ألومينا، ٥٠% سيليكا، ٦% جير[1] ومغنيسيوم، ٨% أكسيد الحديد، ٢% مواد عضوية؛ أما الطين النقي والمسمى بالصلصال فتبلغ نسبة السيليكا ٤٦.٥%، ونسبة الألومينا ٣٩.٥% ونسبة الماء ١٤%؛ وكل حبيبة من حبيبات الطين تتكون من طبقات متراصة من تلك المواد، ويبلغ قطر حبة الطين الناعم ٠.٠٠٢ ملم، أما قطر حبة الطين الخشن فتتراوح (٠.٠٠٢-٠.٠٠٠٢) ملم؛ وللطين حالتان، فعندما يكون رطباً يصبح مرناً ونستطيع تشكيله حسب النماذج المرغوبة، وعند تعريضه للشمس أو حرقه عند درجة حرارة عالية ويتبخر الماء يصبح صلبا كالصخور.[٨]

ويتغير لون الطين وصفاته باختلاف نسب كميات المواد المكونة له، فمثلا وجود أكسيد الحديد يجعل الطين أحمر اللون، أما زيادة المغنسيوم يصبح الطين أصفر، وزيادة السليكا تزيد من مرونته؛ ويوجد الكربون العضوي[2] بكثرة في الطين الخشن، وتزيد نسبة النيتروجين في الطين الناعم.

يملك الطين العادي مواصفات هندسية متواضعة نسبياً؛ فمتانة القص في الطين متغيرة حسب نوع الطين ونسب خلط المواد الداخلة في تكوينه فتتراوح قوة القص من ٣٠ كغم/سم مربع إلى ١٥٠ كغم/سم مربع؛ أما متانته في تحمله للضغط فيتراوح بين ٤٥٠ كغم/سم مربع إلى ٥٠٠ كغم/سم مربع، ومن الملاحظ أن متانة الطوب تقل بنسبة ٢٥% عند غمره بالماء؛ وجدار الطين بسماكة ٤٠ سم يؤخر انتقال الحرارة لأكثر من ١٥ ساعة، بينما الجدار الإسمنتي وبنفس السماكة يؤخر الانتقال مدة ٨ ساعة.[٢٧]

---

(١) **الجير**: مادة كيميائية هامة في الصناعة. اسمها الكيميائي أكسيد الكالسيوم، وصيغتها الكيميائية CaO ، وتستعمل كلمة الجير أيضا للإشارة إلى هيدروكسيد الكالسيوم، وصيغته الكيميائية$Ca(OH)2$ ، ويتكون بتفاعل أكسيد الكالسيوم أيضًا مع الماء. ويعرف هيدوكسيد الكالسيوم أيضًا بالجير المطفأ، أو الجير المهدرج، بينما يعرف أكسيد الكالسيوم بالجير الحي.

(٢) **الكربون العضوي**: هو أساس الماده العضويه وهو يمثل ٦٠ % من وزن الماده العضويه الطبيعية في التربة، ويقدر ان وزن الكربون العضوي الموجود حتي عمق ١ متر من سطح الارض داخل التربة التي تزرع باستمرار يكون أعلى من وزن الكربون العضوي الموجود في النباتات المنزرعه في نفس التربه فوق سطحها.

ولمعرفة الطين الجيد والصالح للبناء هناك بعض التجارب المهنية المستخدمة مثل أخذ عينة من موقع الطين يصنع منها طوبة واحدة وتترك في الهواء الطلق لتجف، فإذا ظهرت شروخ على سطح اللبنة فإن هذا يعني أن الطين ناعم ويجب إضافة رمل على الخلطة، على ألا يتجاوز ٢٠% من كمية الطين؛ وهناك تجربة الكسر وذلك بتصنيع لبنة، وبعد تجفيفها في الهواء تسقط من علو متر، فإذا تكسرت بسهولة فذلك يعني أنها مقصفه ويجب تقليل الماء بالخلطة؛ وللمقارنة بين العينات لاختيار الطين المناسب، يتم تصنيع كرة طينية صغيرة من كل عينة بنفس الحجم، تترك في الهواء حتى تجف، وبعد ذلك تغمر العينات بالماء في الوقت نفسه، وآخر كرة طينية تتفتت تعتبر الأفضل للاستخدام، والعينة التي تذوب بسرعة هي الأسوأ، ويعنى ذلك أنها تحتوى على نسبة عالية من الغبار الناعم.





الشكل رقم (٥) اختبارات الطين

وعلى صعيد تطوير العمل بمادة الطين كان المعماري حسن فتحي[١] من رواد هذا المجال،[١٤] فمنذ مطلع الأربعينيات من القرن الماضي، قام بالعديد من الدراسات لتحديث البناء بالطين واشترك في العديد من لجان البحث العلمي المتخصصة في مجال

[١] حسن فتحي: مهندس معماري مصري لقب بمعمار الفقراء لأنه قضى عمره يدافع عن البناء من أجل المواطن البسيط الفقير بالاعتماد على الإمكانات المحلية، وبهدف إنشاء بيت يتوفر فيه الرخص والبساطة في الشرق الأوسط، وحصل على جائزة آغاخان. اختاره الاتحاد الدولي للهندسة الإنشائية في أمريكا عام ١٩٨٨ كأفضل مهندس معماري في العالم، له ما يزيد على أربعة عشر مؤلف ومنشور ترجم معظمها إلى اللغات الأجنبية – حسن فتحي شاهين شيخ المعماريين –التركيز على استخدام خامات البيئة وتطويع التراث المعماري المحلي – مجلة الهندسة – المجلد ٤ – العدد ١٩ – أيلول – ١٩٨٨م.ص (٢٣-٣٣).

الإسكان الريفي، وكان له اهتمام واضح بإجراء البحوث والدراسات على المواد المحلِّيَّة، وطرق الإنشاء التقليدية، وإمكانية تعميم استخدامها، بعد إخضاعها للمعايير الهندسية ومراعاة الظروف البيئية، وقد كان كتابه "عمارة الفقراء"[٣٠] دليلاً يحمل أفكاره ويعرض نظرياته المتعلقة بعمارة الطين، وتجربته العملية في بناء قرية القرنة.





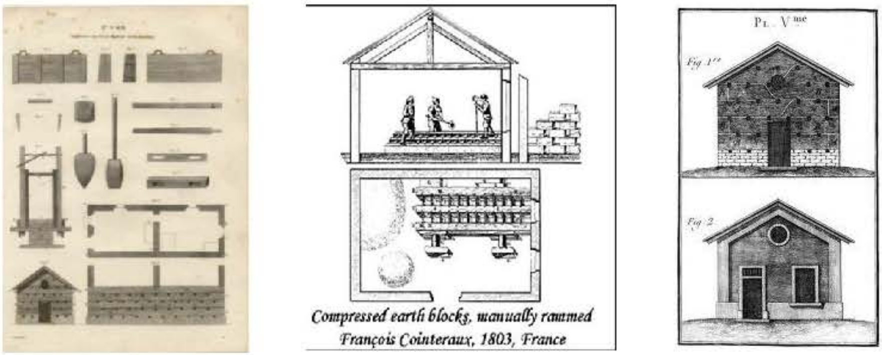
الشكل رقم (٦) من أعمال المعماري حسن فتحي

كما قام بتنفيذ بعض أفكاره تصميمًا وتنفيذًا، وعندما عرف مشاهيرُ المعماريين في العالم أن حسن فتحي قد نادى بهذه المبادئ والاتجاهات قَبْلَهُم، في الثلاثينيّات والأربعينيّات من القرن العشرين عكفوا على دراسة أعماله وقراءة كتبه[١٣]. وتكونت مدارس عالمية تدين له بالريادة والقيادة، كما استشهد رجال سياسة وقيادة بأعماله، كونها مثالا للأعمال التي تحترم استمرارية العادات والتقاليد والتراث، بواقعية المصلح الاجتماعي، وإبداع الفنان وتواضعه[٧].

أما عالمياً، فقد كان للتقاليد المتوارثة في البناء بالطين في منطقة ليون وما حولها دور بارز في ظهور الرائد الأول لعمارة الطين الحديثة المهندس المعماري فرانسوا كوانترو Francois Cointeraux(١) الذي كان لأعماله ودراساته في تحديث البناء بالطين أثر بالغ تجاوز حدود فرنسا ليصل إلى بقية أجزاء أوروبا كألمانيا وايطاليا والدنمارك ابتداءً من عام ١٧٩٠، بل لقد أثارت أعماله أول اهتمام بهندسة العمارة الطينية في استراليا في عام

(١) **فرانسوا كوانترو**: المهندس المعماري ولد في ليون بفرنسا عام ١٧٤٠، عهد إليه إعادة بناء المدن المدمرة بعد الحرب، فاقترح بناء "مدينة طين"، فوجهت له انتقادات كثيرة، ولكنه وضع مؤلفات عن العمارة الطينية، ساعدت على تطوير البناء بالمواد التقليدية، وترجمت إلى لغات العالم، ولا تزال موضع اهتمام الباحثين إلى اليوم.

١٨٢٣م وفي الولايات المتحدة عام ١٨٠٦. لقد كان التشييد بالطين قبل فرانسوا كوانترو مجرد ممارسة اعتيادية تقوم على البديهة وترتكز على الخبرة المتوارثة، إلا أنها كانت خالية من الأسس العلمية والممارسة الفنية، وقد كان له دور رائد في إدخالهما على عمارة الطين الحديثة.[٢٣]



الشكل رقم (٧) جانب من أفكار فرانسوا كوانترو حول عمارة التراب.

وعلى خطى فرانسوا كوانترو وبالقرب من المنطقة التي نشأ فيها قام مجموعة من المعماريين والمهندسين الأوروبيين بتأسيس مركز عالمي لأبحاث وتطبيقات عمارة الطين The International Centre for Research and Application of Earth Architecture أطلقوا عليه اختصاراً: مجموعة كراتير CRATERRE Group، وذلك في عام ١٩٧٩ في مدينة غرونوبل، وإن كانت البداية الحقيقية لهذه المجموعة يمكن إرجاعها إلى عام ١٩٧٣ أثناء أزمة النفط حينما قام مجموعة من طلاب مدرسة غرونوبل للعمارة بعمل بعض التجارب بخصوص البحث عن مواد بناء بسيطة ورخيصة وتقنيات طاقة ذات كفاءة مناسبة لاستخدامها في مشاريع الإسكان منخفض التكلفة.[٣١]

واستمرت تلك الجهود حتى عام ١٩٧٦ حيث أصبحت مدرسة غرونوبل للعمارة تقدم مقرراً متخصصاً عن التشييد بالطين، وبعد ذلك بعام أي في ١٩٧٧ تم تأسيس معمل للطين لتقديم التدريب المتخصص على البناء به، وبتأسيس مجموعة كارتير بعد ذلك بعامين،[٣١] اهتمت تلك المجموعة بالجوانب النظرية والتطبيقية لعمارة الطين وسعت حثيثاً نحو استخدام الطين في البناء ليس فقط في بلدان العالم النامي بل في

أوروبا نفسها. وقد نظمت هذه المجموعة في عام ١٩٨١ معرضاً كبيراً عن عمارة الطين في مركز جورج بومبيدو في العاصمة الفرنسية وذلك بغرض التعريف بهذه التقنية ونماذج من استخدامها في الماضي في بلدان العالم المختلفة مع التحفيز على استخدامها في المستقبل. وقد جاب هذا المعرض عدداً من بلدان العالم، ورافق ذلك المعرض إصدار كتاب عن عمارة الطين: Down to Earth [٢٩] والذي ترجم إلى معظم اللغات. [٢٦]

وتجري حالياً الدراسات(١) في عدد من الجامعات ومراكز الأبحاث في العالم لتطوير مادة الطين وأساليب استخدامها، وقد تمت تجارب حول إدخال نسبة معينة من الإسمنت في اللبن لزيادة مقاومته للعوامل الجوية، وتدرس بعناية عملية أقلمة البناء الطيني[١٧] مع متطلبات التكنولوجيا الحديثة وأدواتها ومتطلبات الإنسان الحديث. وهناك أمثلة ناجحة عديدة، فالمعماري المصري حسن فتحي، اعتمد على تحليل العمارة والفنون في مصر أظهر فيها قدرة التجارب التاريخية لاستجابة مادة الطين لمتطلبات الحياة المتطورة، ولاقت أعماله نجاحاً كبيراً؛ واليمنيون لا زالوا يواصلون البناء بمادة الطين، متبنين العمل بها بشكل معاصر إلى اليوم؛ وأقام السعوديون مؤتمرات عديدة حول العمل بمادة الطين، ونال العمل بالطين رعاية حكومية وأكاديمية؛ وكانت التجربة المغربية في مدينة مراكش من أهم التجارب في شمال أفريقيا؛ وتأتي تجربة العراق في منطقة الأهوار من التجارب المتميزة في مجال البناء المحلي؛ وتتميز التجارب السورية العديدة في تطبيقات العمارة الطينية من حيث المحلية والمعاصرة، نظراً لعراقة هذا النوع من الأبنية. [٢١]

(١) أجريت في المؤسسة الملكية للعلوم بالأردن عدة تجارب على عينات من الطين الإسمنتي بقياس (٩×١٤×٢٩) وهي تحتوي النسب المئوية التالية من الإسمنت (٥% و٧% و٩% و١١%) من حجم العينة. بعد إجراء التجارب الفنية تبين أنها تملك كلها قوة التحمل نفسه تقريباً، أما التي تحتوي على ٩% و١١% من الإسمنت فقد تبين أنها أشد مقاومة للعوامل الجوية ولذلك نصح بنسبة ١٠% من الإسمنت.



العراق



اليمن



السعودية



شمال حلب



المغرب



الحسكة

الشكل رقم (٨) نماذج من أعمال الطين.

ثالثًا: أهمية الأبنية الطينية:

تعد مادة الطين من أهم تطبيقات العمارة البيئية على الإطلاق، ويعتبرها تيار معماري قوي أنها الحل الأمثل لمعالجة أزمة الطاقة والسكن، فالطين مادة رخيصة لا تحتاج إلى خبرات عالية أو كلفة كبيرة، عازلة للحرارة، تعطي قوة في التعبير وإحساساً بالراحة، ولا تتطلب هذه المادة إستيراد مواد بناء، وتتيح اليد العاملة المحلية بعكس التكنولوجيا المتقدمة التي تقلل من اليد العاملة، كما يقتصد الطاقة من خلال خاصيته العازلة للحرارة[١٧].

والأبنية المبنية من الطين بيئية، ومظهرها يندمج مع الطبيعة، ولا تترك نفايات تلوث البيئة في حال هدمها، ومخاطرها أقل على الإنسان عند انهيارها، بل يمكن إعادة استخدام موادها في عمليات بناء جديدة. وفي عمارة الطين يكون كل إنسان مهندس بيته، وهذا يؤدي إلى خلق علاقة خاصة بين الساكنين والبناء الذي يكون ملائما للحاجات والتقاليد.[٢٧]

وتمثل العمارة الطينية وجهاً هاماً من الهوية العربية المحلية، وإعادة الأصول المعمارية العربية المحلية، ولا توجد ضرورة لتقليد العمارة الغربية الحديثة، فكما يقول حسن فتحي: "إن انتقال أي فن معماري مستورد إلى بيئة أخرى غريبة عنه سيرفضه المجتمع، لأن الغربة في البيت أبشع أنواع الغربة"[١٥]. وفي نفس الوقت ليس من الحكمة أن تقليد العمارة العربية القديمة بحرفيتها، وبما قد لا يتناسب مع احتياجات العصر والتكنولوجيا، إذاً يجب الإهتمام بتأصيل القيم الحضارية للعمارة العربية التقليدية في المباني الحديثة في الوطن العربي، والاستفادة من مزايا الطرق البسيطة التي كانت تستخدم للسكن ملبية الاحتياجات الوظيفية وموفرة الراحة الحرارية المرغوبة للساكنين بأقل تكاليف، والعمارة اليمنية تحديداً بقيمها التشكيلية المبتكرة، تعتبر بالنسبة للباحثين صرحاً قيماً وفريداً لمواجهة تيار العمران الاستهلاكي العالمي الذي يزعزع استقرار البيئة وأركان التراث.[٢٠]

ويتيح استخدام مادة الطين في العمارة بشكل معاصر تحقيق إيجابيات عديدة،[٣] منها على سبيل المثال، ما يلي:

١. تشكل أنواع الطين المناسبة للاستعمال في البناء ما نسبته ٤٧% من القشرة الأرضية، وهذا ما جعل السكان المحليين يعتمدون على استخدامها من خلال تقنيات بسيطة في تصنيعها ويعرفون تمام المعرفة الفوائد الفيزيائية لمساكنهم فهي ذات مناخ صحي معتدل باردة صيفاً ودافئة شتاء.
٢. عدم الحاجة لشراء مادة الطين، أمام غلاء المواد الحديثة المصنعة جعل منها مادة رخيصة التكاليف كمواد بديلة في عملية البناء تنافس جميع مواد البناء المبتكرة.[٥]
٣. إن مادة الطين من أفضل المواد البيئية ولا تشكل أي تلوث للبيئة أثناء التصنيع أو التنفيذ والتعديل أو في حالة هدم المبنى وإعادة بنائه أو حتى في حال هجره وتداعيه فهي آتية من الأرض وتعود إليها؛ إضافة إلى أن الطين يختزن الحرارة

والبرودة والرطوبة ويؤثر ذلك في تحسين المناخ، ويمكن باضافة مواد رابطة وبنسب مدروسة الوصول إلى تحقيق المتانة والعزل اللازمين في البناء.[٤]

٤. تتفوق مادة الطين على معظم مواد البناء الأخرى، فمثلاً يحتاج الطين الى ١% فقط من الطاقة اللازمة للبيتون وعند إنتاج هذه الطاقة تحتاج للأوكسجين وتنتج مواد مضرة.

٥. إن سهولة تشكيل مادة الطين تقدم إنتاجاً مباشراً وسريعاً، يعبر عن التراث والفن الفطري المحلي، فهذا النوع من العمارة يستطيع التحرر من قيود المركزية والبيروقراطية والاحتكار.

٦. إن اعتماد عمارة الطين يعيد العلاقة الحميمة بين الإنسان والعمارة المتمثلة في حجوم وأشكال وفنون وتراث نابع من الانسان ومن مقياسه الإنساني، والبساطة في التصميم والتكوين العام الذي يتناساه غالباً أصحاب ما يسمى بالطراز العالمي.

٧. يحقق العمل بمادة الطين نوعاً من الاكتفاء الذاتي، فعدم الحاجة لشراء الطين أو نقله لموقع البناء، يتيح الإنتاج حسب الطلب دون التعرض لمضاربات السوق وتغيراته.

٨. إن البناء بالطين يعطي فرصة لإعادة التكامل المفقود في زحام التصنيع بين فن العمارة والتقاليد الشعبية والثقافية الموروثة، متيحاً المجال للانسجام والتوازن بين الطبيعة في الماضي والحاضر والمستقبل.

٥- البناء بمادة الطين

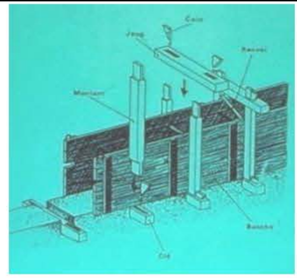
هناك عدة طرق تقليدية لبناء الطين، منها ما يعود لما قبل التاريخ، وفي هذا الصدد يشير فتروفيوس، في معرض ذكره لتاريخ تطور البناء بمادة الطين، إلى أن السكان "كانوا يلجؤون إلى اختيار تلة صغيرة، فيحفرون في وسطها خندقاً ذا ممرات، ويتوسّعون في المكان الداخلي بالقدر الذي يسمح به الموقع، ثمَّ يبنون فوقه سطحاً هرمياً من القطع

الخشبية المشدودة بعضها إلى بعض، ويغطّونها بالقصب والشجيرات المشدودة، ثمَّ يلقون فوق منازلهم أكواماً كبيرة من التراب، وهذا ما يجعل بيوتهم دافئة جداً في الشتاء وباردة لطيفة في الصيف"، ويتابع: "أُممٌ أخرى تبني أكواخاً بسيطة ذات سطوح مشكّلةٍ من قصب المستنقعات؛ أو من مواد شبيهةٍ بذلك، ففي "مرسيليا- Marseilles" يمكن أن نشاهد سطوحاً دون ألواح أو بلاط، وهي مصنوعة من التراب الممزوج بالقش، كذلك في أثينا يمكن مشاهدة تحف أثرية ذات أسطح من الطين، ككوخ "روملوس- Romulus" في "الكابيتول-Capitol" وأسطح المعابد والقلعة المصنوعة من القصب، والتي تعد شاهداً مهماً على طرز الأيام الغابرة".[١٦]

وعموماً، يتم تنفيذ المباني الطينية بطرق مختلفة منها التشكيل المباشر وهذه الطريقة منتشرة في عدة مناطق. وهناك طريقة أخرى شائعة وهي الطوب الطيني، وطريقة أخرى هي التربة المطروقة بالقالب "الدك" PISE.[١]

وبشكل عام يوجد حالياً عدد من طرق البناء بمادة الطين، أهمها ما يلي:

طريقة "الدك" Le Pise: البلوك الطيني المصبوب بالقالب Le bloc de Terre stabilisée، استعملت هذه الطريقة منذ القدم، يتميز فيها التراب بنسبة كبيرة من الرمال واحتوائه على حصيات وبقايا صخرية صغيرة ونسبة ١٠-٢٠ % غضار، بعد تهويته وخلطه جيدا يوضع ضمن دفتين بسماكات مختلفة حسب المجازات المراد إنشاؤها وتدق (تدك جيداً) ليصبح تماسكها عالياً من أجل أن تشكل الجدار المطلوب؛ وغالبا ما يكون الكوفراج من الخشب ويقوم البناء بفكه وزلقه كلما انتهى من جزء من الجدار.[٣١]







الشكل رقم (٩) طريقة الدك.

الطين المصبوب بالقالب ADOBE: مصطلح أساسه من اللغة العربية "الطوب" وهو الطريقة الأكثر شيوعا ويتميز ترابها بـ ٣٠ % غضار وإضافة ١٥-٣٠ % ماء، وتختلف أشكال القوالب وأبعادها وطرق تجفيفها وإمكانية خلط التراب بمواد أخرى لزيادة تماسكها وكذلك إضافة عناصر إنشائية بأشكال مختلفة كالخشب ووضع الطوب في فراغات الشبكة الخشبية لجعل الخشب هو العنصر الإنشائي والوصول إلى سماكات قليلة وأحمال خفيفة تسمح بارتفاعات عالية نسبيا.







الشكل رقم (١٠) الطين المصبوب بالقالب

الطين المخلوط بالقش La Terre – paille: يتم بخلط التراب الذي تكون فيه نسبة الغضار عالية مع القش الناتج عن القمح، وفي هذه الطريقة تستخدم التقنيات اليدوية والتي كانت مستخدمة في السابق من القالب الخشبي وحتى طريقة التجفيف تحت الشمس الطبيعية.



الشكل رقم (١١) الطين المخلوط بالقش.

ويُستخدم الطين المخلوط بالقش المتوفر محلياً مادةً أساسية في عملية البناء، بعد خلطه بتبن بقايا سنابل القمح لتقوية الخلطة، ومن ثم تبدأ عملية الخلط وإضافة التبن ودوس الطين بالأقدام دون توقف، ويختبر نضج الخلطة بفرك عينة باليد فإذا لم يلتصق الطين بها عندها يتوقف الخلط وبعد ذلك يتم تصنيع اللبنات باستخدام قالب خشبي، وبعد ذلك يتم تعريض اللبنات للشمس حتى تجف تماما؛ ويمكن تحديث هذه الطريقة من خلال عجن التراب بإضافة نسبة من الإسمنت 2 إلى 3% بواسطة الماء، ثم توضع الخلطة في قوالب لتضغط ولتخرج أكثر صلابة.[١٠]



الشكل رقم (١٢) طريقة تجهيز الطين للبناء.

أما محلياً،[١١] فتبدأ عملية البناء بحفر الأساس ويستخدم الحجر كركيزة أساس وصولا إلى السقف.



الشكل رقم (١٣) البناء بالطين.

الخاتمة والنتائج والتوصيات:

استخدمت الحضارات السابقة الطين بأشكاله المتعددة، بل إن تاريخ وأعمال معظم هذه الحضارات سجلت علي صخور وألواح طينية ومعظم مبانيهم وأدواتهم وأوانيهم وأثارهم الباقية من تلك المادة، والطين لا يشكل أي تلوث للبيئة عند التصنيع أو التنفيذ أو التعديل، وعند هدمه فإن ناتج الهدم يعود الى بيئتة الأصلية؛ وكان لغزو الخرسانة المسلحة ومواد البناء الحديثة دور في إهمال مادة الطين والبعد عن استخدامها بشكل مباشر.

وبعد الاطلاع على طبيعة وخواص الطين الفنية وأنواعه المختلفة والمنتجات التي يمكن إنتاجها من هذه المادة، بالإضافة إلى صداقته الجميلة للبيئة، فمن أهم النتائج التي يشير إليها البحث تخفيف وطأة استهلاك الطبيعة، وتخفيف استهلاك الطاقة، والاهتمام برفع الكفاءة المحلية وتطوير الهوية الوطنية لتستجيب للتنمية الاجتماعية/ الاقتصادية المطلوبة.

وبعد الاطلاع على تاريخ استخدام الطين في المنطقة، وبيان أهمية تطبيقاته؛ فإن من الواجب دراسة أنواع الطين الموجودة، والعمل على إصدار الأنظمة والتشريعات البيئية وفى نفس الوقت أجراء المعالجات الفنية للأنواع الموجودة في بلادنا، واستخدام التقنيات المناسبة حتى يتسنى لنا استخدامه في كثير من الأعمال، ونستطيع بعد ذلك من استثمار الطين ومنتجاته على المستوى المحلّي والعالمي.

أضف إلى ذلك فإن اعتماد العمارة الطينية يعيد العلاقة الحميمة بين الإنسان والعمارة المتمثلة في حجوم وأشكال وفنون وتراث نابع من الإنسان ومقاييسه الإنسانية؛ كما أنَّ للبناء بالطين آثاراً اجتماعية إيجابية عديدة أهمها ما يتعلق بروح التعاون؛ يقول حسن فتحي: عندما يبني الإنسان بالمشاركة مع جيرانه تتم عملية تبادل المنطقة الرائعة جهداً وخبرة؛ ويؤكد: لا شك أن رجلاً واحداً لا يستطيع أن يبني بيته ولكن يستطيع عشرة رجال لو تعاونوا بناء عشرة بيوت ومع الوقت ستكتمل القرية وتعيش. وهكذا بنيت قرية القرنة ثم قرية باريس بعدها؛ وهكذا فإن الروح الجماعية تصل ذروتها في عمائر الطين حيث يشارك الجميع في إقامة صروحها وهم ينشدون معاً لحن الحياة، إذْ تعلمت هذه الأيادي أن تشارك

معاً لتبني السكن والمستوصف والمدرسة... والحب ناشرين في المادة منطقية النهوض الشامل في عمارة تجسد الروح والثقافة والأمل.

إن المجتمعات المحلية بحاجة ماسة لعمارة حديثة تناسب عصرنا وواقعنا وحضارتنا وحداثتنا ومناخنا، ولا يوجد ما يحقق ذلك سوى استخدام وتطوير ثقافة البناء بالمواد والمهارات المحلية، ومن هنا كانت العودة لدراسة وتسجيل كل الطرز والتقنيات وأشهرها وأهمها العمارة الطينية التي قامت عليها عمارتنا والتي لا تزال أغلب تقنياتها مستعملة إلى يومنا هذا رغم اقتصارها فقط على المناطق الفقيرة جداً؛ فالعودة إلى الطين وإحياء طابعه التاريخي وجعله العمارة السائدة في المناطق التي تلائمها أمر في غاية الأهمية.

ويوصي البحث الجهات المعنية بتولي دورها الريادي في تشجيع وتنمية ثقافة عمارة التراب، وذلك من خلال إنشاء مدارس ومعاهد لتعليم مهارات البناء بالمواد المحلية؛ وتشجيع الدراسات والبحوث العلمية التي تعنى بمواد وتكنولوجيا البناء على جميع المستويات، وتطوير القدرات للحفاظ على التراث المعماري الموجود في مجتمعاتنا كأحد ملامح هويتنا الثقافية من جانب آخر.

إن اعتماد نتائج البحث يساعد في تخطي عدد من المشاكل العالقة في تأمين المأوى المثالي الذي يمكن أن يتوفر لكل الأسر مهما كان مستواها الاقتصادي والاجتماعي، ويساعد في دعم الدولة والمجتمع لتأمين المساكن؛ فالطلب الكبير المتزايد الذي يواجهه قطاع الإسكان، أمام التحديات الاقتصادية، وزيادة استهلاك الموارد الطبيعية، وارتفاع نسب التلوث، يمكن لعمارة التراب أن تكون العلاج الأمثل فعمارة التراب تبعدنا عن استيراد الكثير من المواد الداخلة في صناعة البناء وتعيدنا إلى ترابنا الوطني والتفكير من خلال واقع نحياة وذلك بالعمل من خلال نهضة وطنية اعتمادًا على مصادرنا الطبيعية.

كما يوصي البحث برعاية المشاركين من التقنيين والمعماريين والباحثين الصناعيين والتجاريين من أجل توفير الدعم اللازم والثقة اللازمة للبناء باستخدام هذه المادة، وخلق جو من الثقة والراحة النفسية أمام تطوير البناء في هذه المادة وكذلك التقنيات المستخدمة بها، وحماية ودعم التجارب المحلية لتكون شاهداً على محاولة إعطاء البناء والعمارة بالطين بعداً جديداً، وإعطاء مادة الطين من جديد مكاناً في عمارتنا المعاصرة.

المراجع

١- تشوربا عمانويل، ١٩٩٠، **التقرير الفني حول استعمال مواد البناء المحلية غير المستثمرة بشكل كاف حتى الآن**، هيئة الأمم المتحدة، مركز الإسكان، دمشق.

٢- الجديد منصور بن عبد العزيز ، ٢٠٠٠، **عمارة الطين بين خبرات الماضي وتطلعات المستقبل**. سجلات المؤتمر العلمي الأول، العمارة الطينية على بوابة القرن الحادي والعشرين، مدينة سيئون، الجمهورية اليمنية، ١٠-١٢ فبراير ٢٠٠٠م - ص ص٦٩-٨١.

٣- الجديد منصور بن عبد العزيز ، ٢٠٠٩، **عمارة الطين في البلاد العربية والبلاد الغربية- طرق البناء السائدة ومحاور التطوير المقترحة**، قسم العمارة وعلوم البناء بكلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود بالرياض، السعودية.

٤- حج وسوف جفان، ٢٠٠١، **المعالجات البيئية والمناخية للعمارة الطينية في ريف حلب**.

٥- دغمان موفق، ١٩٩١، **الأبنية الطينية في منطقة دمشق الشرقية**، رسالة دكتوراه، كلية الهندسة المعمارية- جامعة دمشق، دمشق- سورية.

٦- الدملوجي سلمى، ١٩٩٥، **وادي حضرموت هندسة العمارة الطينية**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت.

٧- رأفت علي، **دور حسن فتحي في تطوير العمارة العالمية**، القاهرة ، بدون تاريخ .

٨- ريدان دانا، ١٩٩٨، **بيوت من الطين**، مجلة البيئة والتنمية، المجلد الثالث، العدد ١٢، أيار/حزيران، مايو/يونيو، بيروت.

٩- عبد الجواد توفيق أحمد، ٢٠٠٢، **تاريخ العمارة والفنون الأولى**، ط٣، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة مصر.

١٠- عطفة سيف الدين، ٢٠٠٢، **صناعة التشييد ومواد البناء في الوطن العربي حتى عام ٢٠٠٠**، دراسات قطاعية، المنظمة العربية للتنمية بالتعاون مع مجموعة الخبراء العرب، بغداد، العراق.

١١- علي آزاد، ١٩٩١، **الملامح الهندسية للتراث في الإنشاءات الريفية**، رسالة ماجستير، قسم تاريخ العلوم التطبيقية، معهد التراث العربي، جامعة حلب، حلب، سورية.

١٢- علي يوسف نصير عاطف، ٢٠٠٧، **عمارة التراب**، كلية العمارة والتخطيط، قسم التخطيط العمراني، الرياض السعودية.

١٣- الغفري أحمد، حسن فتحي: المعماري الرائد والناقد اللاذع، مجلة المهندس العربي (دمشق)، العدد ٩٧، (١٩٩٠م) - ص٦.

١٤- فتحي حسن شيخ المعماريين، ١٩٨٨، **التركيز على استخدام خامات البيئة وتطويع التراث المعماري المحلي**، مجلة الهندسة، المجلد ٤ - العدد ١٩ - أيلول.

١٥- فتحي حسن، ٢٠٠٥، **عمارة الفقراء**، القاهرة، مصر.

١٦- فيتروفيوس، الكتب العشرة في العمارة، إعداد: عقبة فاكوش وآخرين، منشورات جامعة دمشق، دمشق، سورية، ٢٠٠٩. ص: ٣٤-

١٧- قعوار رمزي وديك أمل ، **البناء باللبن**، مجلة الهندسة، المجلد ٢- العدد ٩- ص١٤.

١٨- كوفان جاك، ١٩٩٥، **القرى الأولى في بلاد الشام من الألف التاسع حتى الألف السابع ق.م**، ترجمة: الياس مرقص، دار الحصاد، دمشق، سورية.

١٩- المالكي قبيلة، ٢٠٠٧، تاريخ العمارة عبر العصور، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.

٢٠- مبارك مُحَمَّد، ٢٠٠٨، **بيوت الطين**، القاهرة، مصر.

٢١- مجموعة باحثين، ٢٠٠٤، العمارة التقليدية في سورية، المديرية العامة للآثار والمتاحف، الاتحاد الأوروبي، وزارة الثقافة، دمشق، سورية.

٢٢- ميلارت جيمس، ١٩٩٠، **أقدم الحضارات في الشرق الأدنى**، ترجمة: مُحَمَّد طلب، تدقيق وتقديم سلطان محيسن، دار دمشق، دمشق.

23- Ashurst، Jone & Nicola. Practical Building Conservation. Gower Technical Press Ltd. England 1988 .

24- Building Materials، 2009، 3rd Edition، New Age Publications | ISBN: 8122423922 |،

25- - "Grains de bâtisseurs" Laetitia Fontaine/ Romain Anger - édition Craterre
- "Traité de construction en terre" Craterre - édition Parenthèses
- "Terre crue, technique de construction et rénovation" Bruno Pignal - édition Eyrolles CRATerre - ENSAG - Maison Levrat Parc Fallavier BP53 F38092 Villefontaine - France

26- Dethier، J. Back to Earth. The Architectural Review. Vol.CLXXXVIII، No. 1123. September 1990. (pp 80-83.) .

27- Dethier، J. Down to Earth. Centre of Georges Pompidou، Paris، 1981. English edition published by Thames & Hudson Ltd. London، 1982 .

28- Dethier، J. Earth Architecture. Saudi-French Meetings on Earth Architecture. Tuwaig Palace، Diplomatic Quarter، Riyadh. March 1988. (pp 1-13.) .

29- Dethier، J. 1981، **Down to Earth**. Centre of Georges Pompidou، Paris. English edition published by Thames & Hudson Ltd. London، 1982 .

30- Fathy، H. Architecture for the Poor. An Experiment in Rural Egypt. University of Chicago Press. Chicago 1973 .

31- Le Domain de la terre، Isle D'Aboa، Grenoble- France 1980.

التراث العربي
العدد المزدوج (١٥٩-١٦٠)/ خريف - شتاء/٢٠٢٠- ٢٠٢١

صحيفة المدينة المنورة

النصّ، والتوثيق : دراسة في ضوء علم الحديث النبويّ

إياد خالد الطبّاع*

الملخص:

قام مجتمع المدينة المنورة الجديد على ثلاثة أسس: الأساس الأول: بناء المسجد، والأساس الثاني: الأخوة بين المسلمين، والأساس الثالث: كتابة وثيقة بين المسلمين وغيرهم، عُرفت في الدراسات القديمة باسم «الكتاب»، «الصحيفة»، وفي المصادر الحديثة بـ «الدستور» و«الوثيقة» وهي أهم ما قام به النبي عليه الصلاة والسلام مما يتعلق بالقيمة الدستورية للدولة الجديدة.

وتُعدّ صحيفة المدينة المنورة إحدى الوثائق الإدارية والسياسية الهامة التي أتحفت التاريخ الإنساني بنموذج مبرور من العلاقات الإنسانية المتكافئة، وقدّمت أساساً هنيئاً للتعايش في ظلّ دولة المواطنة. وقد نطقت هذه الوثيقة برغبة المسلمين في التعاون الخالص مع يهود المدينة؛ لنشر السكينة في ربوعها، والضرب على أيدي العادين ومدبّري الفتن أيّاً كان دينهم. وقد نصّت بوضوح على أنّ حرية الدين مكفولة.

الكلمات المفتاحية:
صحيفة المدينة – الحديث النبوي

* باحث، جامعة بلاد الشام للعلوم الشرعية بدمشق.

- **أهداف البحث:** يهدف البحث إلى:

١. جمع الروايات وتبيان الطرق المرويّة بها ورواتها.
٢. تسويغ الاختلاف في النصوص المرويّة في صحيفة المدينة وتوثيقها.
٣. النَّقد الحديثيّ لطرُق الرواية، والحكم عليها في ضوء علوم الحديث النبوي.

- **مشكلة البحث:** الشك في ثبوت صحيفة المدينة، وزعم بعض الباحثين ردّها وضعفها بل وضعها عند البعض الآخر.

- **فروض البحث:** وجود طرق قويّة ثبتت فيها الصحيفة، ومجموع طرقها دالٌّ على ثبوت أصل لها.

- **أدوات البحث:** اعتمد الباحث على كتب السيرة النبويّة الأصيلة وكتب الحديث المسندة التي رويت الوثيقة فيها بهدف جمع رواياتها ونصوصها، لما لها من فائدة في المقارنة والموازنة بين النصوص، واعتمد كتب أهل النقد من علماء الحديث في تبيان حال الراوي والمروي، للوصول بعدالة إلى توثيق النصّ وضبطه؛ فقد قال الإمام مسلم: «فبجمع هذه الروايات ومقابلة بعضها ببعض يتميّز صحيحها من سقيمها، ويتبيّن رواة ضعاف الأخبار من أضدادهم من الحفاظ»[١]، وقال عبد الله بن المبارك: «إذا أردت أن يصحّ لك الحديث فاضرب بعضه ببعض»[٢]، وقال يحيى بن معين: «إذا كتبت فقمِّش[٣]، وإذا حدّثت ففتِّش»[٤].

- **أهمّ الدراسات السابقة:**

درست بعض الكتب المعاصرة هذه الوثيقة أذكر أهمّها:

١. بيان الحقيقة في الحكم على الوثيقة، ضيدان بن عبد الرحمن اليامي، الرياض: مكتبة المعارف، ط الأولى، ١٤٠٨، ذهب فيه إلى ضعف ثبوتها.

---

(١) كتاب التمييز، الإمام مسلم، ١٦٢.
(٢) مقدمة كتاب التمييز للإمام مسلم، بقلم محمّد مصطفى الأعظمي، ٣٣.
(٣) القمش: جمع الشيء من هاهنا وهاهنا. وكذلك التقميش. الصحاح للجوهري (قمش) = ٣/١٠٢٦ .
(٤) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ١/٤٣.

٢. السيرة النبوية الصحيحة: مُحَاوَلَةٌ لِتَطبِيْقِ قَوَاعِدِ الـمُحَدِّثِيْنَ في نقدِ رواياتِ السِّيْرَةِ النَّبَوِيَّة، أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط٦، ١٤١٥ هـ =١٩٩٤م. وهي من أهم الدراسات وأعدلها حسب موضوعنا؛ انتهى فيها إلى القول: «بأن الحكم بوضع الوثيقة مجازفة، ولكن الوثيقة لا ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة، ... ولكن نصوصاً من الوثيقة وردت في كتب الأحاديث بأسانيد متصلة، وبعضها أوردها البخاري ومسلم، فهذه النصوص هي أحاديث صحيحة، وقد احتج بها الفقهاء وبنوا عليها أحكامهم. كما أن بعضها ورد في مسند أحمد وسنن أبي داود وابن ماجة والترمذي. وهذه النصوص جاءت من طرق مستقلة عن الطرق التي وردت منها الوثيقة، وإذا كانت الوثيقة بمجموعها لا تصلح للاحتجاج بها في أحكام الشريعة سوى ما ورد منها في كتب الحديث الصحيحة فإنّها تصلح أساساً للدراسة التاريخية التي لا تتطلب درجة الصحة التي تقتضيها الأحكام الشرعية خاصة أن الوثيقة وردت من طرق عديدة تتضافر في إكسابها القوة... ثم إن أهم كتب السيرة ومصادر التاريخ ذكرت موادعة النبي ﷺ لليهود وكتابته بينه وبينهم كتاباً. كما ذكرت كتابته كتاباً بين المهاجرين والأنصار أيضاً. كذلك فإن أسلوب الوثيقة ينم على أصالتها؛ فنصوصها مكونة من جمل قصيرة بسيطة وغير معقدة التركيب، ويكثر فيها التكرار، وتستعمل كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول ﷺ ثم قل استعمالها فيما بعد حتى أصبحت مغلقة على غير المتعمقين في دراسة تلك الفترة. وليس في هذه الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح بفرد أو جماعة، أو تخص أحداً بالإطراء أو الذم، لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية وغير مزورة . ثم إن التشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة وأساليب كتب النبي ﷺ الأخرى يعطيها توثيقاً آخر».

٣. السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد، الرياض: مركز الملك فيصل.

٤. صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ت: ١٤٢٥هـ)، تقديم: عمر سليمان الأشقر، راجعه: د. همام سعيد، عمان: دار النفائس، ط١، ١٤١٥ هـ = ١٩٩٥ م.
٥. الصحيفة – ميثاق الرسول – دولة يثرب، برهان زريق، دمشق: دار معد للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٧.
٦. صحيفة المدينة: دراسة حديثية وتحقيق، هارون رشيد مُحَمَّد إسحاق، إشراف الدكتور مصطفى الأعظمي، جامعة الملك سعود –كلية التربية – قسم الثقافة الاسلامية، ١٩٨٤،
٧. صحيفة المدينة في العهد النبوي: دراسة فقهية مقارنة تأليف عارف عز الدين حامد حسونة، عمان: الجامعة الاردنية، ١٩٩٧.
٨. المجتمع المدني في عهد النبوة، للدكتور أكرم العمري، المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ط١، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.وفيه نقد حديثيّ وتاريخي، وتبيان أنها أول دستور.
٩. مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، مُحَمَّد حميد الله، بيروت: دار النفائس، ط ٦، ١٩٨٦. وفيها مقارنة لألفاظ مروياتها.
١٠. النظم الإسلامية، الدكتور عبد العزيز الدوري، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨.
١١. نشوء الفكر السياسي الإسلامي من خلال وثيقة المدينة، خالد بن صالح الحامدي، بيروت: دار الفكر اللبناني، ١٩٩٧.
١٢. وثيقة المدينة المنورة: المفاهيم الحضارية وأسس الدولة المدنية، للدكتور عبد الأمير كاظم زاهد، وهو بحث منشور في مجلة نصوص معاصرة بتاريخ ٢٠١٧/٢/١٩.
١٣. صحيفة المدينة بين الاتصال والانقطاع: دراسة حديثية، للدكتور حاكم المطيري، وهو بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، العدد ٨٨، ٢٠١٢.

● **أهمّية الدراسة:**

تبرز أهمية هذه الدراسة في:

١. تتبّع الروايات التي رُويت فيها الصحيفة، وجمعها.
٢. تخريج الروايات من مظانّها، وعزوها إلى رواتها من أصحاب الكتب المسندة.
٣. سبرُ طرق الحديث، ونقدُها؛ ونقْلُ كلام المحدّثين وأهل الدراية في الرواية والرواة.
٤. جمع كلام أهل السيرة والفقهاء في الكلام عليها.
٥. إجراء مقارنة بين النصوص = المتون.
٦. القيام بمقارنة المرويات من حيث الراوي وطبقته، وحكم الرواية، ومواصفات الخبر = الرواية من حيث: مقدار النص=المتن، المحتوى وتعلّقه: العلاقة بين المهاجرين والأنصار، والعقول، وواجب كلّ طائفة، وشموله المعاهدة مع اليهود.

أوّلاً: الرواة والروايات

رُويَت الصحيفة عن ستة من الصحابة، وخمسة من التابعين وتابعي التابعين.

فأمّا الصحابة الذين رووها؛ فهم ستّة: أنس بن مالك، وعبد الله بن عَمرو بن العاص، وعبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وعَمرو بن عوف بن زيد المزني المدني، وعلي بن أبي طالب.

وأمَّا الذين روَوْها من التابعين وتابعيهم فهم خمسة: عامر بن شراحيل الشَّعبِيّ (ت١٠٧ هـ)، ومُحَمَّد بن شهاب الزُّهري (ت ١٢٥ هـ)، وعثمان بن محمَّد بن المغيرة بن الأخنس بن شريق (ت بعد ١٢٠ هـ)، وابن إسحاق: مُحَمَّد بن إسحاق بن يسار (ت ١٥٠ هـ)، وابن جريج: عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج (ت ١٥١هـ).

ثانيًا: تاريخ الوثيقة

الظاهر والراجح أنّ الوثيقة كُتبت في أوائل العهد النبوي في المدينة؛ يرجّح ذلك ما قاله الطبري في «تاريخه»: (حوادث السنة الثانية): «وقيل: إنّ في هذه السنة [السنة الثانية] كتب رسول الله ﷺ المعاقل فكان معلَّقاً بسيفِه»(١).

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/٥١

ويرى عبد العزيز الدوري أنه: «هناك اختلاف في تاريخ وضعه إذ يرى فلهاوزن[1] كما يرى المؤرّخون المسلمون أنه وُضع قبل غزوة بدر [أي الثانية للهجرة]، بينما يرى مُحَمّد حميد الله أنّ الكتاب يتألف من قسمين: القسم الأول: يخصّ المهاجرين والأنصار، وربّما يرجع إلى ما بعد الهجرة بشهور قلائل، والقسم الثاني: في الحلف بين المسلمين واليهود، وقد كُتب بعد غزوة بدر، لأنّ نصّه - في رأيه - يفهم منه ذلك. والذي أراه هو أنّ الكتاب بقسمَيْه وُضع بعد معركة بدر، لأنّ نظام المؤاخاة لم يبطل قبل ذلك، ولأنّ المسلمين لم يصبحوا ذوي كلمة مسموعة في المدينة إلا بعد أن قويَ مركزهم على إثر انتصارهم في بدر، وبعد ذلك فقط تمكّن الرسول من جعل نفسه المرجع الأعلى في المدينة، كما يُفهم من الكتاب، إنّ البخاري يشير إلى حادثتين من إجارة مسلمين لقرشيين قبل بدر، بينما الكتاب يمنع إجارة قرشيّ أو مال قرشيّ ومعنى ذلك أنّ المنع كان بعد بدر»[2].

ثالثًا: النصّ والتوثيق والتخريج

● **النصّ الأول: نصّ ابن شهاب الزُّهري (كما ورد عند أبي عُبيد القاسم بن سلّام في كتاب الأموال)[3]:**

«حدَّثني يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُكَيْرٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ، قَالَا: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُقَيْلُ بْنُ خَالِدٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، أَنَّهُ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَبَ بِهَذَا الْكِتَابِ:

(١) يوليوس ڤلهاوزن Julius Wellhausen، (١٨٤٤-١٩١٨): باحث توراتي ومستشرق ألماني، مؤرخ لليهودية ولصدر الإسلام، وناقد للكتاب المقدس (العهد القديم)، ألماني مسيحي، وهو صاحب الفرضية الوثائقية. ألف الكتاب الشهير المملكة العربية وسقوطها، ١٩٠٢، الذي أثّر في الكتابة التاريخية العربية تأثيراً كبيراً في مسائل عدة. ترجمته في موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بديوي، ١٩٩٢.

(٢) النظم الإسلامية، عبد العزيز الدوري، ص ٢٢-٢٣،

(٣) الأموال، أبو عُبيد القاسم بن سلّام: الحديث (٥١٨)، ورواه أيضاً بالطريق نفسه مختصراً في كتابه «الأموال» برقم (٣٢٨).

هَذَا الْكِتَابُ مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَهْلِ يَثْرِبَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ، فَلَحِقَ بِهِمْ، فَحَلَّ مَعَهُمْ وَجَاهَدَ مَعَهُمْ: أَنَّهُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ دُونَ النَّاسِ وَالْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ – قَالَ ابْنُ بُكَيْرٍ: عَلَى رَبَعَاتِهِمْ، قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: وَالْمَحْفُوظُ عِنْدَنَا رَبَاعَتِهِمْ – يَتَعَاقَلُونَ بَيْنَهُمْ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى – وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ: رَبَعَاتِهِمْ – وَهُمْ يَفْدُونَ عَانِيَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَبَنُو عَوْفٍ عَلَى رَبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَبَنُو الْحَارِثِ بْنُ الْخَزْرَجِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رِبَاعَتُهُمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَبَنُو سَاعِدَةَ عَلَى رَبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَنُو جُشَمٍ عَلَى رَبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَنُو النَّجَّارِ عَلَى رَبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْقِسْطِ وَالْمَعْرُوفِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ عَلَى رَبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَنُو النَّبِيتِ عَلَى رَبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَبَنُو الْأَوْسِ عَلَى رَبَاعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى وَكُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحاً مِنْهُمْ أَنْ يُعِينُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ أَيْدِيهِمْ عَلَى كُلِّ مَنْ بَغَى وَابْتَغَى مِنْهُمْ دِسْيعَةَ ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ، أَوْ عُدْوَانٍ أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعِهِ، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ. لَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِناً فِي كَافِرٍ، وَلَا يَنْصُرُ كَافِراً عَلَى مُؤْمِنٍ، وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ، وَأَنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنَ الْيَهُودِ فَإِنَّ لَهُ الْمَعْرُوفَ وَالْأُسْوَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ، وَلَا مُتَنَاصَرٌ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدٌ، وَلَا يُسَالِمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ يُعْقِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ هَذَا وَأَقْوَمِهِ وَأَنَّهُ لَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالاً لِقُرَيْشٍ وَلَا يُعِينُهَا عَلَى مُؤْمِنٍ وَأَنَّهُ مَنِ اعْتَبَطَ مُؤْمِناً قَتْلاً فَإِنَّهُ قَوَدٌ،

إِلَّا أَنْ يَرْضَى وَلِيُّ الْمَقْتُولِ بِالْعَقْلِ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهَا كَافَّةً وَأَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرَّ بِمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ أَوْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثاً أَوْ يُؤْوِيَهُ فَمَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللَّهِ وَغَضَبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ وَأَنَّكُمْ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ حُكْمَهُ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَإِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ، وَأَنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ وَمَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ أُمَّةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ دِينُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي النَّجَّارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْحَارِثِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي جُشَمٍ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَأَنَّ لِيَهُودِ بَنِي سَاعِدَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَأَنَّ لِيَهُودِ الْأَوْسِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصِيحَةَ وَالنَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ، وَأَنَّ الْمَدِينَةَ جَوْفُهَا حَرَمٌ لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، وَأَنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ يُخِيفُ فَسَادُهُ فَإِنَّ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، وَأَنَّ بَيْنَهُمُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ، وَأَنَّهُمْ إِذَا دَعَوا الْيَهُودَ إِلَى صُلْحِ حَلِيفٍ لَهُمْ فَإِنَّهُمْ يُصَالِحُونَهُ، وَإِنْ دَعَوْنَا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، إِلَّا مَنْ حَارَبَ الدِّينَ، وَعَلَى كُلِّ أُنَاسٍ حِصَّتُهُمْ مِنَ النَّفَقَةِ، وَأَنَّ يَهُودَ الْأَوْسِ وَمَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ مَعَ الْبَرِّ الْمُحْسِنِ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَنَّ بَنِي الشَّطْبَةِ بَطْنٌ مِنْ جَفْنَةَ، وَأَنَّ الْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ فَلَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبَرِّهِ، لَا يَحُولُ الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ وَلَا آثِمٍ، وَأَنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، وَأَنَّ أَوْلَاهُمْ بِهَذِهِ الصَّحِيفَةِ الْبَرُّ الْمُحْسِنُ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: قَوْلُهُ: بَنُو فُلَانٍ عَلَى رَبَاعَتِهِمِ الرَّبَاعَةُ هِيَ الْمَعَاقِلُ وَقَدْ يُقَالُ: فُلَانٌ رِبَاعَةُ قَوْمِهِ، إِذَا كَانَ الْمُتَقَلِّدَ لِأُمُورِهِمْ، وَالْوَافِدَ عَلَى الْأُمَرَاءِ فِي مَا يَنُوبُهُمْ، وَقَوْلُهُ: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحاً فِي فِدَاءِ الْمُفْرَحِ: الْمُثْقَلِ بِالدَّيْنِ، يَقُولُ: فَعَلَيْهِمْ أَنْ يُعِينُوهُ، إِنْ كَانَ أَسِيراً فُكَّ مِنْ إِسَارِهِ، وَإِنْ كَانَ جَنَى جِنَايَةَ خَطَأٍ عَقَلُوا عَنْهُ، وَقَوْلُهُ: وَلَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالاً لِقُرَيْشٍ يَعْنِي الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانَ وَادَعَهُمْ. يَقُولُ: فَلَيْسَ مِنْ مُوَادَعَتِهِمْ أَنْ

يُجِيرُوا أَمْوَالَ أَعْدَائِهِ، وَلَا يُعِينُوهُمْ عَلَيْهِ، وَقَوْلُهُ: وَمَنِ اعْتَبَطَ مُؤْمِناً قَتْلاً فَهُوَ قَوَدٌ الِاعْتِبَاطُ: أَنْ يَقْتُلَهُ بَرِيّاً مُحَرَّمَ الدَّمِ، وَأَصْلُ الِاعْتِبَاطِ فِي الْإِبِلِ: أَنْ تُنْحَرَ بِلَا دَاءٍ يَكُونُ بِهَا، وَقَوْلُهُ: إِلَّا أَنْ يَرْضَى أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ بِالْعَقْلِ، فَقَدْ جَعَلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخِيَارَ فِي الْقَوَدِ أَوِ الدِّيَةِ أَوْ أَوْلِيَاءِ الْقَتِيلِ وَهَذَا مِثْلُ حَدِيثِهِ الْآخَرِ: وَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِأَحَدِ النَّظَرَيْنِ إِنْ شَاءَ قَتَلَ وَإِنْ شَاءَ أَخَذَ الدِّيَةَ وَهَذَا يَرُدُّ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ: لَيْسَ لِلْوَلِيِّ فِي الْعَمْدِ أَنْ يَأْخُذَ الدِّيَةَ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنَ الْقَاتِلِ وَمُصَالَحَةٍ مِنْهُ لَهُ عَلَيْهَا وَقَوْلُهُ: وَلَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثاً أَوْ يُؤْوِيَهُ الْمُحْدِثُ: كُلُّ مَنْ أَتَى حَدّاً مِنْ حُدُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مَنْعُهُ مِنْ إِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِ، وَهَذَا شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ الْآخَرِ: مَنْ حَالَتْ شَفَاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ فَقَدْ ضَادَّ اللَّهَ فِي أَمْرِهِ وَقَوْلُهُ: لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، عَنْ رَجُلٍ قَدْ سَمَّاهُ عَنْ مَكْحُولٍ، قَالَ: الصَّرْفُ التَّوْبَةُ، وَالْعَدْلُ: الْفِدْيَةُ. وَهَذَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: الْفَرِيضَةُ وَالتَّطَوُّعُ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ٤٨] فَكُلُّ شَيْءٍ فُدِيَ بِهِ شَيْءٌ فَهُوَ عَدْلُهُ.

وَقَوْلُهُ: وَإِنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارِبِينَ، فَهَذِهِ النَّفَقَةُ فِي الْحَرْبِ خَاصَّةً، شَرْطٌ عَلَيْهِمُ الْمُعَاوَنَةُ لَهُ عَلَى عَدُوِّهِ وَنَرَى أَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يُسْهِمُ لِلْيَهُودِ إِذَا غَزَوْا مَعَ الْمُسْلِمِينَ بِهَذَا الشَّرْطِ الَّذِي شَرَطَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّفَقَةِ، وَلَوْلَا هَذَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي غَنَائِمِ الْمُسْلِمِينَ سَهْمٌ»[1].

وقال أبو عبيد في كتابه (الأموال): «حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: «كَانَ الْيَهُودُ يَغْزُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُسْهِمُ لَهُمْ» قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: وَقَوْلُهُ: وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا أَرَادَ نَصْرَهُمُ الْمُؤْمِنِينَ وَمُعَاوَنَتَهُمْ إِيَّاهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ بِالنَّفَقَةِ الَّتِي شَرَطَهَا عَلَيْهِمْ، فَأَمَّا الدِّينُ فَلَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ أَلَا تَرَاهُ قد بَيَّنَ ذَلِكَ فَقَالَ: لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ دِينُهُمْ وَقَوْلُهُ: وَلَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ يَقُولُ: لَا يُهْلِكُ غَيْرَهَا، يُقَالُ: قَدْ وَتِغَ الرَّجُلُ وَتَغًا، إِذَا وَتِغَ فِي أَمْرٍ يُهْلِكُهُ، وَقَدْ أَوْتَغَهُ غَيْرُهُ. وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا الْكِتَابُ فِيمَا نَرَى

(١) ألاموال، أبو عبيد، ٢٦٠.

حِدْثَانَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ الْإِسْلَامُ وَيَقْوَى، وَقَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِأَخْذِ الْجِزْيَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَكَانُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ: بَنُو الْقَيْنُقَاعِ، وَالنَّضِيرِ، وَقُرَيْظَةَ فَأَوَّلُ فِرْقَةٍ غَدَرَتْ وَنَقَضَتِ الْمُوَادَعَةَ بَنُو الْقَيْنُقَاعِ، وَكَانُوا حُلَفَاءَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ، فَأَجْلَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ بَنُو النَّضِيرِ، ثُمَّ قُرَيْظَةُ فَكَانَ مِنْ إِجْلَائِهِ أُولَئِكَ وَقَتْلِهِ هَؤُلَاءِ مَا قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي كِتَابِنَا هَذَا»[(١)].

ونحوه رواه ابن زنجويه في كتابه «الأموال» عن ابن زنجويه عن ابن شهاب الزهري برقم (٧٥٠) قال: حدَّثنا حميد، حدَّثني عبد الله بن صالح، حدَّثني الليث، حدَّثني عقيل عن ابن شهاب أنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ كتب بهذا الكتاب، فذكره.

التوثيق والتخريج: رواية ابن شهاب الزهري (ت ١٢٥هـ) ؛ رواها عنه أبو عُبيد القاسم بن سلّام (ت ٢٢٤ هـ) في كتابه «الأموال»[(٢)]: الخبر (٥١٨) و(٥١٩)، وحُمَيد بن زنجويه (ت ٢٤٧ هـ) في كتابه «الأموال»[(٣)]، وابنُ أبي حاتم الرازي (ت٣٢٧هـ) في «الجرح والتعديل»[(٤)]: «حدَّثنا عبد الرحمن[(٥)]، أنا العباس بن الوليد قراءة قال: أخبرني أبي، عن الأوزاعي: أنَّه كتب إلى وزير الخليفة أبي عبيد الله في تنجز كتاب من الخليفة بتخلية محبوس: حدَّثني الزُّهري أنه كان في كتاب رسول الله ﷺ.. الخ» وهو استشهاد من الأوزاعي بما فيها وتصحيح لها باشتهارها عندهم».

وتُعدّ رواية ابن شهاب الزهري وابن إسحاق من البلاغات.

رواية ابن شهاب الزهري: قال أبو عُبيد القاسم بن سلّام في كتابه «الأموال»: الخبر (٥١٨): «حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير[(٦)]، وعبد الله بن صالح، قالا: حدثنا

(١) الأموال، أبو عبيد، الحديث (٥١٩) = ص٢٦٦،

(٢) الأموال، أبو عُبيد القاسم بن سلّام، الحديث (٥١٨)، (٥١٩).

(٣) الأموال، ابن زنجويه، الخبر (٧٥٠)،

(٤) الجرح والتعديل: ١/١٨٨- ١٩٧

(٥) هو ابن أبي حاتم عبد الر حمن الرازي، مؤلف كتاب الجرح والتعديل.

(٦) يحيى بن عبد الله بن بكير المخزومي (١٥٥-٢٣١): الإمام، المحدث، الحافظ، الصدوق، أبو زكريا القرشي، المخزومي مولاهم، المصري، احتج به الشيخان، وذكره ابن حبان في (الثقات)، وأما أبو حاتم، فقال: لا يحتج ==

الليث بن سعد، قال: حدثني عقيل بن خالد، عن ابن شهاب، أنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ كتب بهذا الكتاب...الخ».

وروى أبو عُبيد القاسم بن سلام في كتابه «الأموال»: الخبر (٥١٩) قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن يزيد بن يزيد بن جابر، عن الزهري، قال: «كان اليهود يغزون مع رسول الله ﷺ فيسهم لهم».

وروى حُمَيد بن زنجويه (ت ٢٤٧ هـ) في كتابه «الأموال»: الخبر (٧٥٠) قال: «حدثني عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني عقيل عن ابن شهاب أنَّه قال: بلغني أنَّ رسول الله ﷺ كتب بهذا الكتاب».

والإمام الزُّهْرِيّ من طبقة صغار التابعين، روت عن كبارها مثل سعيد بن المسيّب، وبلاغاته التي رواها عن رسول الله ﷺ فهي فيما أُرى من المرسل أو المعضل، وصورة المرسل عند المحدِّثين: "أن يقول التابعيّ سواء كانَ كبيراً أم صغيرًا: قال رسول صلى الله عليه وسلم كذا، أو فعل كذا، أو فُعِل بحضرته كذا، ونحو ذلك"، "فإن المرَاسِيل للتابعين دون غَيرهم"، وأما ما سقط من رُوَاته قبل التَّابِعِيّ واحد أَو أَكثر فيسمى معضلاً.

وعليه فإن البلاغ قد يُعبَّر عنه بالمعضل إذا سقط من رُوَاته قبل التَّابِعِيّ واحد أَو أَكثر، وقد يُعبَّر عنه بالمرسل إذا صدر من التّابعيّ. وبلاغات الزهري اصطلاحاً تُسمّى عند المحدّثين (مراسيل الزهري) بالنظر إلى كونه من طبقة التابعين، وأمّا تُسميتها (بلاغات الزهري) فهي بالنظر لمعاصرته كبار تابعي التابعين، ولكون جلّ رواياته عن التابعين دون الصحابة، فيكون الساقط منها اثنان: التابعيُّ والصحابيّ.

حُكمُ الحديث البلاغ، أو البلاغات، وحكم الحديث المعضل؛ قال ابن الصلاح: «المعضل: وهو لقب لنوع خاص من المنقطع، وقوم يسمونه مرسلًا، وهو عبارة عما

به. قال: وكان يفهم هذا الشأن. وقال النسائي: ضعيف، قال الذهبي: كان غزير العلم، عارفاً بالحديث وأيام الناس، بصيراً بالفتوى، صادقًا، ديّنًا، وما أدري ما لاح للنسائي منه حتى ضعَّفه، وقال مرة: ليس بثقة. وهذا جرح مردود، فقد احتجَّ به الشيخان، وما علمتُ له حديثاً منكراً حتى أورده؛ انظر سير أعلام النبلاء ٦١٢/١٠، وتهذيب الكمال ٤٠٣/٣١.

سقط من إسناده اثنان فصاعداً. ومثاله: ما يرويه تابعي التابعي قائلاً فيه: "قال رسول الله ﷺ"، وكذلك ما يرويه مَن دون تابعي التابعي عن رسول الله ﷺ، أو عن أبي بكر وعمر وغيرهما غير ذاكر للوسائط بينه وبينهم. .. وقال [السجزي]: أصحاب الحديث يسمونه المعضل»[1]. وقال البقاعي في مبحث المعضل: «وإنْ كانَ مما لا تجوزُ نسبتهُ إلى غيرِ النبيّ ﷺ كأنْ يقولَ التابعيُّ: «أُسرِيَ بي، ورأيتُ ربي»، ونحو ذلكَ مما يعلمُ أنَّهُ عنِ النبيّ ﷺ؛ فهوَ مرفوعٌ حكماً، وهو معضلٌ بالنظرِ إلى صورتِهِ الظاهرةِ في سقوطِ اثنينِ منهُ، ومرسلٌ نظراً إلى أنَّ النبيَّ ﷺ مذكورٌ فيهِ حكماً، وإنْ لم يصرّح بهِ»[2]، وقال الجوزجاني في مقدمة كتابه في الموضوعات: "المعضل أسوأ حالاً من المنقطع، والمنقطع أسوأ حالا من المرسل، والمرسل لا تقوم به حجة[3]، قال السيوطي: «وقال الزركشي في مختصره: ما ضعفُه لا لعدم اتصاله سبعة أصناف، شرها: الموضوع، ثم المدرج، ثم المقلوب، ثم المنكر، ثم الشاذ، ثم المعلل، ثم المضطرب. انتهى. قلت [القائل السيوطي]: وهذا ترتيب حسن، وينبغي جعل المتروك قبل المدرج، وأن يقال فيما ضعفه لعدم اتصال: شره المعضل، ثم المنقطع، ثم المدلس، ثم المرسل، وهذا واضح»[4].

ومراسيل الزهري ضعيفة نصّ عليها العلماء، قال ابن رجب في «شرح علل الترمذي»: «خرَّج البيهقي من طريق أبي قدامة السرخسي قال: سمعت يحي بن سعيد يقول: «مرسل الزهري شر من مرسل غيره، لأنه حافظ، وكلما يقدر أن يسمي سمى، وإنَّما يترك من لا يستجيز أن يسميه»، وقال يحي بن معين: «مراسيل الزهري ليست بشيء». وقال الشافعي: «إرسال الزهري عندنا ليس بشيء، وذلك أنَّا نجده يروي عن سليمان بن أرقم». وقد رُوي أيضاً تضعيف مراسيل الزهري عن يحي بن سعيد، وأنَّ أحمد بن صالح المصري أنكر عليه ذلك، لكن من وجه لا يثبت»[5]، ويقول ابن رجب

(١) علوم الحديث، ابن الصلاح، ٥٩.
(٢) النكت الوفية بما في شرح الألفية، برهان الدين البقاعي ٤٠٨/١
(٣) الأباطيل، الجوزقاني ١٢/١.، النكت على كتاب ابن الصلاح ٥٨١/٢.
(٤) تدريب الراوي، السيوطي، ٣٤٨/١.
(٥) شرح علل الترمذي، ابن رجب، ٥٤١/١.

في «فتح الباري»: «مراسيل الزهري لو صحت عنه من أضعف المراسيل»[1]، قال الذهبي: «مراسيل الزهري كالمعضل؛ لأنه يكون قد سقط منه اثنان، ولا يسوغ أن نظنَّ به أنه أسقط الصحابي فقط، ولو كان عنده عن صحابي لأوضحه، ولما عجز عن وصله، ولو أنه يقول: عن بعض أصحاب النبي ﷺ، ومن عدَّ مرسل الزهري كمرسل سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، ونحوهما، فإنه لم يدر ما يقول، نعم، مرسله كمرسل قتادة، ونحوه»[2].

● **النصّ الثاني: نصّ ابن إسحاق (ت ١٥٠)**: وقد ورد عند ابن هشام في "السيرة النبوية"، وهو نصّ يُماثل نصّ ابن إسحاق؛ باختلاف طفيف في الألفاظ.

التوثيق والتخريج: رواية ابن إسحاق (ت ١٥٠هـ): رواها عنه ابن هشام (ت٢١٣هـ) في «السيرة النبويّة»[3]، وذكرها عنه: ابنُ سيّد الناس (ت ٧٣٤هـ) في «عيون الأثر»[4]، وابنُ كثير (ت ٧٧٤هـ)، في «البداية والنهاية»[5]، وجمال الدين بن حديدة (ت ٧٨٣ه) في «المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي»[6]،

وقد وردت **رواية ابن إسحاق** عند:

أ- ابن هشام في «السيرة النبويّة»[7]، مطوّلةً بلاغاً.

---

(١) فتح الباري، ابن رجب، ٢/٢٠٧

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٥/٣٣٩.

(٣) السيرة النبوية، ابن هشام، ١/٥٠١.

(٤) عيون الأثر، ابن سيد الناس ١/٢٢٧ (ذكر الموادعة بين المسلمين واليهود)،

(٥) البداية والنهاية، ٤/٥٥٥، (فَصْلٌ فِي عَقْدِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الألفة بَين الْمُهَاجِرين والانصار بِالْكِتَابِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ فَكُتِبَ بَيْنَهُمْ وَالْمُؤَاخَاةِ الَّتِي أَمَرَهُمْ بِهَا وَقَرَّرَهُمْ عَلَيْهَا، وَمُوَادَعَتِهِ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا بِالْمَدِينَةِ وَكَانَ بِهَا مِنْ أَحْيَاءِ الْيَهُودِ بَنُو قَيْنُقَاعَ وَبَنُو النَّضِيرِ وَبَنُو قُرَيْظَةَ)،

(٦) المصباح المضي في كتاب النبي الأمي، ٢/٥،

(٧) السيرة النبوية، ابن هشام، ١/٥٠١.

ب- والبيهقيّ باختصار[1]؛ عنه قال: حدَّثني عثمان بن محمَّد بن عثمان بن الأخنس بن شريق قال:،..». وسيأتي تفصيلها عند رواية عثمان.

- **النص الثالث: نصّ علي بن أبي طالب: (رواية البخاري):**

«عن عليّ ﷺ، قال: ما عندنا شيء إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة عن النبي ﷺ: «المدينة حرم، ما بين عائر إلى كذا، من أحدث فيها حدثاً، أو آوى محدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، وقال: ذمة المسلمين واحدة، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف، ولا عدل، ومن تولى قوماً بغير إذن مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف، ولا عدل»، قال أبو عبد الله: "عدل: فداء»[2].

و«عن إبراهيم التيمي[3]، عن أبيه، قال: خطبنا عليٌّ فقال: ما عندنا كتاب نقرؤه إلا كتاب الله تعالى، وما في هذه الصحيفة، فقال: فيها الجراحات وأسنان الإبل: «والمدينة حرم ما بين عير إلى كذا، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى فيها محدثا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، ومن تولى غير مواليه فعليه مثل ذلك، وذمّةُ المسلمين واحدة، فمن أخفر مسلماً فعليه مثل ذلك»[4].

التوثيق والتخريج:

رواية علي بن أبي طالب (ت ٤٠ هـ): رواها أبو إسحاق الفزاري (ت١٨٨ هـ) في «السير»، والإمام أحمد في «مسنده»، وابن أبي شيبة في «المصنّف»، والطيالسي «مسنده»، والبخاري في «صحيحه»، ومسلم في «صحيحه»، وأبو داود في «سننه»،

(١) في «السنن الكبرى» (١٦٨٠٨) = ٨/١٠٦، و«دلائل النبوة» ٢/٥٢٤ ،
(٢) البخاري (١٨٧٠)،
(٣) إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيّ هو ابْنُ يَزِيدَ بْنِ شَرِيكٍ من تَيْمِ الرِّبَابِ ويُكْنَى أَبَا أَسْمَاءَ، من صغار التابعين، ورؤوس العلم، توفي ١٩٢.
(٤) البخاري (٣١٧٢).

والترمذي في «جامعه»، والنسائي في «السنن الصغرى»، وفي «السنن الكبرى»، وأبو يعلى في «مسنده»، وابن حبَّان في «صحيحه»[1].

حكم رواية علي بن أبي طالب: صحيحة؛ أخرجها الشيخان وغيرهما كما أسلفنا.

- **النصّ الرابع: نصّ أنس بن مالك (كما في السنن المأثورة للشافعي)**:

«عن أنس بن مالك، قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا فقيل له: أليس قد قال النبي ﷺ: «لا حلف في الإسلام»؟ فقال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دارنا. قال سفيان: فسَّرته العلماء: آخَى بينهم».

رواية الصحابيّ الجليل أنس بن مالك، رضي الله عنه (ت ٩٣ هـ): رواها عنه الإمام الشافعي في «السنن المأثورة»، والحميدي في «المسند»، والبخاري في «صحيحه» وفي «الأدب المفرد»، ومسلم في «صحيحه»، وأبو داود في «السنن»، وأبو يعلى في «مسنده»، وابن حبَّان في «صحيحه»، والبيهقي في «سننه الكبرى»[2].

حكم رواية أنس بن مالك، رضي الله عنه: صحيحة ؛ رواها الشيخان وغيرهما كما أسلفنا.

- **النصّ الخامس: نصّ عبد الله بن عَمرو بن العاص (كما في المسند للإمام أحمد بن حنبل)**: «عن عَمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه، أن النبي ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار: أن يعقلوا معاقلهم، وأن يفدوا عانيهم بالمعروف، والإصلاح بين المسلمين»[3].

---

(١) أبو إسحاق الفزاري (ت١٨٨ هـ) في «السير» (٣٤٦)، والإمام أحمد في «مسنده» (٦١٥)، و(١٠٣٧)، وابن أبي شيبة في «المصنّف» ١٤/١٩٨، والطيالسي «مسنده» (١٨٤)، والبخاري في «صحيحه» (١٨٧٠)، و(٣١٧٢)، و(٣١٧٦)، و(٦٧٥٥)، و(٧٣٠٠)، ومسلم في «صحيحه» (١٣٧٠)، (١٩٧٨)، وأبو داود في «سننه» (٢٠٣٤)، والترمذي في «جامعه» (٢١٢٨)، والنسائي في «السنن الصغرى» (٤٧٣٤) = ١٩/٨، وفي «السنن الكبرى» (٤٢٧٨)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٦٣)، (٢٩٦)، وابن حبّان في «صحيحه» (٣٧١٦).

(٢) الإمام الشافعي في «السنن المأثورة» (٦٥٥)، والحميدي في «المسند» (١٢٠٥)، والبخاري في «صحيحه» (٢٢٩٤)، و(٦٠٨٣) وفي «الأدب المفرد» (٥٦٩)، ومسلم «صحيحه» (٢٥٢٩)، (٢٠٥)، وأبو داود في «السنن» (٢٩٢٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٣٥٦)، و(٤٠٢٣)، و(٤٠٢٤)، وابن حبَّان في «صحيحه» (٤٥٢٠)، والبيهقي في «سننه الكبرى» ٦/٢٦٢.

(٣) «المسند» للإمام أحمد، الحديث: (٢٤٤٣).

التوثيق والتخريج:

رواية الصحابي الجليل عبد الله بن عَمرو بن العاص ﷺ (ت هـ٦٥هـ): (عَمرو ابن شعيب بن مُحَمَّد بن عبد الله بن عَمرو بن العاص، عن أبيه، عن جدّه)، رواها عنه الإمام أحمد في «المسند»[(١)].

حكم رواية عبد الله بن عَمرو بن العاص: الحديث في «مسند أحمد» (٢٤٤٣) قال الإمام أحمد: «حدَّثنا سريج، حدثنا عباد، عن حجاج، عن عَمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه»، قال فيه أحمد مُحَمَّد شاكر: «إسناده صحيح»، وقال شعيب الأرنؤوط في تعليقه على «المسند» لأحمد (٢٤٤٣): «إسناده ضعيف لتدليس الحجاج. إسناده ضعيف».

قلتُ: الحجَّاج بن أرطأة: مدلّس، مع علمه وفقهه، قال أبو حاتم: «صدوق يدلِّس فإذا قال حدثنا فهو صالح». وهو هنا دلّس في روايته ولم يذكر صيغة التحديث؛ ويبدو أن روايته عن عمرو بن شعيب كانت عن طريق مُحَمَّد بن عبيد الله العرزمي، وهو متروك الحديث، فيسقطه، قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» : «وقال ابن المبارك: كان الحجاج يدلس، فكان يحدثنا بالحديث عن عمرو بن شعيب مما يحدثه العرزمي، والعرزمي متروك»[(٢)]. وقال الذهبي في «ميزان الاعتدال»: «مُحَمَّد بن عبيد الله بن ميسرة العرزمي الكوفي. قال أحمد بن حنبل: ترك الناس حديثه. وقال ابن معين: لا يكتب حديثه. وقال الفلاس: متروك. قال الذهبي: هو من شيوخ شعبة المجمع على ضعفهم، ولكن كان من عباد الله الصالحين»[(٣)]، وأوضح ابن سعد سبب ضعف العرزميّ فقال: «كان قد سمع سماعاً كثيراً وكتب ودفن كتبه فلمّا كان بعد ذلك حدّث. وقد ذهبت كتبه فضعَّف الناس حديثه لهذا المعنى»[(٤)]، وقال ابن حبّان: «وكان رديء الحفظ

(١) «المسند» للإمام أحمد، الحديث: (٢٤٤٣) و(٦٩٠٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» ٧/ ٧٠.

(٣) «ميزان الاعتدال» ٣/ ٦٣٥.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد ٦/ ٣٦٨.

فجعل يحدث من حفظه ويهم فكثر المناكير في روايته، تركه ابن المبارك ويحيى القطان وابن مهدي ويحيى بن معين»[1].

وأمّا الحديث رقم (٦٩٠٤) في «مسند أحمد» فقد قال الإمام أحمد: «حدثنا نصر بن باب، عن حجاج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده»، قال فيه أحمد شاكر: «إسناده صحيح، ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد[2]، وقال: "رواه أحمد، وفيه الحجاج بن أرطاة، وهو مدلّس، ولكنه ثقة». وقال الأرنؤوط في تعليقه على المسند (٦٩٠٤): «[في سنده] نصر بن باب: ضعيف الحديث، وحجاج وهو ابن أرطاة: كثير الخطأ والتدليس. وذكره ابن كثير في "تاريخه" ٣/٢٢٤، وقال: تفرد به الإمام أحمد. وأورده الهيثمي في "المجمع" ٤/٢٠٦، وقال: رواه أحمد، وفيه الحجاج بن أرطاة، وهو مدلس، لكنه ثقة». قلت: قال أبو حاتم: «إذا قال حدثنا فهو صالح وليس بالقوي»، وهو قد دلّس في روايته.

قلتُ: فإن كان الحجاج بن أرطأة قد رواه عن مُحَمَّد بن عبيد الله بن ميسرة العرزمي وأسقطه، فالعرزمي معروف بسوء الحفظ، وظاهرٌ أنّ ضعفه بسبب ضبطه لا بسبب عدالته؛ فقد كان «من عباد الله الصالحين» كما قال الذهبي.

والذي يترجَّح للباحث أنَّ هذه الرواية ضعيفة الإسناد صالحة للاعتبار تتقوّى بغيرها؛ والظاهرُ أنّ تصحيح الشيخ أحمد شاكر لها للشواهد فحسبُ؛ فقد سبق أن ضعَّف حديث أحمد برقم (٣٤٦) فقال: «إسناده ضعيف، لأنَّ حجاج بن أرطاة يدلّس عن عمرو بن شعيب» وهو هنا قد دلّس فكان يجب أن يكون الحكم مثله، غير أنّه قد صحّح الشيخ أحمد شاكر حديثاً لأرطأة غير هذا في الرقم (٣٤٢) للشاهد؛ فقال: «إسناده صحيح، الحجاج بن أرطاة: ثقة صدوق، ولكنه مدلّس، ولم يصرّح هنا

(١) كتاب المجروحين لابن حبان ٢/٢٤٦.

(٢) مجمع الزوائد، الهيثمي، ٤: ٢٠٦.

بالتحديث، ولكن سيأتي الحديث برقم (٣٥١) من طريق شعبة عن الحكم بن عتيبة، فذهب ما كان يُخشى من تدليس الحجاج».

والخبر رُوي بمتنه من طريق الحجَّاج بن أرطأة عَن الحكمِ عنِ مِقْسَمٍ عَن ابنِ عَبَّاسٍ؛ كما سيأتي في النص السابع، فرواه مرّة عن الحكم عنِ مِقْسَمٍ عَن ابنِ عَبَّاسٍ، ومرة عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده. وسيأتي تفصيل بذلك.

- **النصّ السادس: نصّ جابر بن عبد الله (كما في «صحيح مسلم»):**

«عن جابر بن عبد الله، يقول: كتب النبي ﷺ: «على كل بطن عُقُولَه»[1]، ثمّ كتب: «أنه لا يحل لمسلم أن يتوالى مولى رجل مسلم بغير إذنه»، ثم أُخبرت أنه لعن في صحيفته من فعل ذلك»[2].

التوثيق والتخريج:

رواية الصحابيّ الجليل جابر بن عبد الله: ﷺ (ت ٧٨): رواها عنه عبد الرزاق في «المصنف»، ومن طريقه مسلم في «صحيحه» [3]، ومن طريقه ابن حزم في «المحلى»[4]، ورواها أيضاً النسائي في «السنن الكبرى »[5] كلاهما «عن ابن جريج، قال: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابراً، يقول..».

حكم رواية جابر بن عبد الله : صحيحة؛ رواها مسلم في «صحيحه» وغيره.

- **النصّ السابع: نصّ عبد الله بن عباس (كما في المصنَّف لابن أبي شيبة):**

«عن ابن عباس، قال: كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار: أن يعقلوا معاقلهم، وأن يفدوا عانيهم بالمعروف، والإصلاح بين المسلمين»[6].

---

(١) (عُقوله) العُقول: جمع عَقْل، وهو الدِّيَة.
(٢) مسلم في «صحيحه» (١٥٠٧)، ومن طريقه ابن حزم في «المحلى» ١١/٢٥٨.
(٣) عبد الرزاق في «المصنف» (١٦١٥٤)، ومن طريقه مسلم في «صحيحه» (١٥٠٧).
(٤) «المحلى» ١١/٢٥٨.
(٥) السنن الكبرى (٧٠٠٤).
(٦) المصنف لابن أبي شيبة، (٢٨١٥٠.)،

التوثيق والتخريج:

رواية الصحابي الجليل عبد الله بن عباس: ﷺ (ت ٦٨هـ): رواها عنه الإمام أحمد في «المسند»، وابن أبي شيبة في «المصنّف»[١]، ومن طريقه أبو يعلى في «مسنده»، وابن حزم في «المحلّى»، عن الحجّاج بن أرطأة، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عبّاس ﵁[٢].

حكم رواية عبد الله بن عباس: قال الشيخ أحمد شاكر في «المسند» (٢٤٤٤): «إسناده صحيح»، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: «إسناده ضعيف، الحجاج – وهو ابن أرطاة – مدلّس وقد رواه بالعنعنة».

قلت: خبر عبد الله بن عباس ضعَّفه ابن حزم، ونصُّ ابن حزم: « أخبرنا حُمَامٌ نا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَاجِيَّ أخبرنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُونُسَ أخبرنا بَقِيُّ بْنُ مَخْلَدٍ أخبرنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ أخبرنا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ عَنْ الْحَجَّاجِ بْنِ أَرْطَاةَ عَنْ الْحَكَمِ عن مِقْسَمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «كَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِتَاباً بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ: أَنْ يَعْقِلُوا مَعَاقِلَهُمْ، وَيَفْدُوا عَانِيَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ»: فِيهِ حَجَّاجُ بْنُ أَرْطَاةَ – وَهُوَ سَاقِطٌ – وَفِيهِ مِقْسَمٌ وَهُوَ ضَعِيفٌ».

وقال البوصيريّ في «إتحاف الخيرة المهرة»: «رواه أبو بكر بن أبي شيبة واللفظ له وأحمد بن حنبل بسند فيه الحجّاج بن أرطأة»[٣].

وقد سبق أن أشرتُ في النص الخامس إلى أنّ الحجاج بن أرطأة قد رواه مرّة عن الحكم عنِ مِقْسَمٍ عَن ابنِ عَبَّاسٍ، ومرة عن عَمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده. فقد رواه على وجهين، يلوح منهما الاضطراب، ويروي الحجاج بالمعنى، وقد لخص ذلك مُحَمَّد

(١) الإمام أحمد في «المسند» (٢٤٤٤)، وابن أبي شيبة في «المصنّف» (٢٨١٥٠) = ٩/٣١٨، و(٣٣٩٢٧) = ١٢/٤١٧.

(٢) أبو يعلى في «مسنده» (٢٤٨٤)، وابن حزم في «المحلّى» ١١/٢٥٩.

(٣) «إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة»، البوصيري (٢٨٨٦) = ٣/٣٥٠

بن نصر المروزي فقال: «والغالب على حديثه الإرسال والتدليس وتغيير الألفاظ» فإذا صرّح بالسماع فقد أمِنَّا تدليسه، وهو فقيهٌ عارف لا يُخشى من روايته بالمعنى، لكن إذا خالفه في اللفظ ثقة يتحرى الرواية باللفظ، وكان بين اللفظين اختلاف ما في المعنى قُدّم فيما اختلفا فيه لفظ الثقة الآخر[1]. وقال يعقوب بن شيبة: «واهي الحديث، في حديثه اضطراب كثير، وهو صدوق، وكان أحد الفقهاء»[2]. وقال ابن عدي: «إنما عاب الناس عليه تدليسه عن الزهري وغيره، وربما أخطأ في بعض الروايات، فأما أن يتعمد الكذب فلا، وهو ممن يكتب حديثه»[3]. وقال أبو طالب، عن أحمد بن حنبل: «كان من الحفاظ. قيل: فَلِمَ ليس هو عند الناس بذاك؟ قال: لأن في حديثه زيادة على حديث الناس، ليس يكاد له حديث إلا فيه زيادة»[4].

لذا يترجّح للباحث أنّ **رواية اين عباس ضعيفة الإسناد صالحة للاعتبار، فهي تتقوّى بغيرها بالشواهد.**

- **النصّ الثامن: نصّ عَمرو بن عوف بن زيد المزني المدني: (كثير بن عبد الله بن عَمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جدّه):**

«عن كثير بن عبد الله بن عَمرو بن عوف عن أبيه عن جدِّه أنَّه قال: كان في كتاب النبي ﷺ: «إنَّ كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط من المؤمنين، وإنَّ على المؤمنين أن لا يتركوا مفرحاً منهم حتى يعطوه في فداء أو عقل»[5].

(١) التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل، المعلمي، ٢/٤٣٤.
(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٧/٧١.
(٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٧/٧١.
(٤) تهذيب الكمال ٥/٤٢٤.
(٥) الحاكم، والبيهقيُّ في «السنن الكبرى» (١٦٨٠٩) =٨/١٠٦، و وابن أبي خثيمة.

التوثيق والتخريج:

رواية الصحابيّ الجليل عَمرو بن عوف بن زيد المزني المدني (ت ٦٠ هـ تقريبًا)[١]: (كثير بن عبد الله ابن عَمرو المزني عن أبيه عن جدّه)[٢]، رواها عنه: أبو عبيد القاسم بن سلام، وابن أبي خيثمة، والبيهقي.

أ- **أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) في «غريب الحديث»**: «حديث النَّبِيِّ ﷺ: «لا يترك في الإسلام مفرج»[٣]. قال: هو من حديث حفص، عن كثير بن عبد الله، عن أبيه، عن جدَّه»[٤].

---

(١) عمرو بن عوف بن زيد بن مُلَيْحة المزَني، أَبُو عَبْد اللهِ، قديم الصّحْبة، وَكَانَ أحد البكائين في غزوة تبوك، شهد الخندق وسكن المدينة. من حديثه (التاريخ الكبير للبخاري ٣٠٧/٦): كُنّا مَعَ النَّبِيِّ صَلى اللهُ عَلَيه وسَلم حينَ قَدِمَ المدِينَةَ، فَصَلَّى نَحوَ بَيتِ المقدِسِ، سَبعَةَ عَشَرَ شَهرًا. رَوَى كثير بن عَبْد اللهِ بن عمرو، عَن أبيه، عن جده هذا عدّة أحاديث، وكثير وَاهِي الحديث. تُوُفِّيَ عمرو في آخر زمن مُعَاوِيَة. تاريخ الإسلام للذهبي ٥٣٨/٣.

(٢) قال ابن حبان في كتاب المجروحين ٢٢١/٢: «كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني يروي عن أبيه عن جده روى عنه مروان بن معاوية وإسماعيل بن أبي أويس منكر الحديث جداً يروي عن أبيه عن جده نسخة موضوعة لا يحل ذكرها في الكتب ولا الرواية عنه». وفي تاريخ الإسلام للذهبي ٥٣٨/٣: رَوَى كثير بن عَبْد اللهِ بن عمرو، عَن أبيه، عن جده هذا عدّة أحاديث، وكثير وَاهِي الحديث. تُوُفِّيَ عمرو في آخر زمن مُعَاوِيَة، وقال الذهبي في ترجمته من تاريخ الإسلام ٤٨٥/٤: «اتَّفقوا على ضعفه، وضرب أحمد بن حنبل على حديثه. وقال الشافعي: هو ركن من أركان الكذب. وكذا قال أبو داود. وروى عباس، عن ابن معين: ضعيف. وروى الدارمي، عن ابن معين: ليس بشيء. وقال النسائي: متروك. وكذا قال الدارقطني. وأما الترمذي فأخذ بملىء فقال: قلت لمحمد في حديث كثير بن عبد الله، عن أبيه، عن جده في ساعة الجمعة؟ قال: هو حديث حسن، إلا أن أحمد بن حنبل يحمل على كثير، يضعفه. وقال ابن حبان: يروي كثير، عن أبيه، عن جده نسخة موضوعة، لا يحل ذكرها إلا على جهة التعجب. قلت: مات سنة ثلاث وستين ومئة».

(٣) روي هذا بالجيم، والحاء، أما بالجيم، فقال مُحَمَّد بن الحسن: هو القتيل يوجد بأرض فلاة يودى من بيت المال، ولا يطل دمه. قال أبو عبيدة: هو أن يسلم الرجل، ولا يوالي أحدا، فإذا جنى جناية كانت على بيت المال، لأنه لا عاقلة له، وقال ابن الأعرابي: المفرج: الذي لا عشيرة له، وأما بالحاء، فهو الذي أثقله الدين، يقال: أفرحه، أي: أثقله، ويروى: «مفدوح» بالدال، ومعناه هذا، يقال: فدحه الدين، أي: أثقله. شرح السنة للبغوب ٢١١/١٠.

(٤) غريب الحديث، القاسم بن سلام، ١٥٥/١،

ب- **وابن أبي خثيمة في تاريخه الكبير (ت٢٧٩هـ)**[١]: «حدَّثنا أحمد بن جناب أبو الوليد، ثنا عيسى بن يونس، قال: ثنا **كثير بن عبد الله بن عَمرو المزني عن أبيه عن جدّه** أنَّ رسول الله ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار فذكر بنحوه. كما في «الاكتفاء» للكلاعي[٢]، و«عيون الأثر» لابن سيّد الناس[٣].

ت- **والبيهقيُّ (ت ٤٥٨هـ) في «السنن الكبرى»** : «أخبرناه أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر القاضي، قالا حدَّثنا أبو العباس: مُحَّد بن يعقوب قال: حدَّثنا مُحَّد بن إسحاق الصغاني قال: أخبرنا معاوية بن عَمرو عن أبي إسحاق هو الفزاري، عن كثير بن عبد الله عن أبيه عن جدّه»[٤]. وظاهر من هذه الرواية أنّ البيهقي يرويها من طريق أبي عبدالله الحاكم صاحب «المستدرك»، وهو يرويها من طريق أبي إسحاق الفزاري صاحب «المغازي».

وروايةُ كثير بن عبد الله بن عَمرو المزني عن أبيه عن جدّه قال ابن حبان في «كتاب المجروحين»: «كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني يروي عن أبيه عن جده، روى عنه مروان بن معاوية وإسماعيل بن أبي أويس: منكر الحديث جدًا، يروي عن أبيه عن جده نسخة موضوعة لا يحلّ ذكرها في الكتب ولا الرواية عنه»[٥]. وفي «تاريخ الإسلام» للذهبي: «رَوَى كثير بن عَبْد اللَّهِ بن عمرو، عَن أبيه، عن جده هذا عدّة أحاديث، وكثير وَاهِي الحديث. تُوُفِّيَ عمرو في آخر زمن مُعَاوِيَة»، وقال الذهبي في ترجمته من «تاريخ الإسلام»: «اتفقوا على ضعفه، وضرب أحمد بن حنبل على حديثه. وقال الشافعي: هو ركن من أركان الكذب. وكذا قال أبو داود. وروى عباس، عن ابن

(١) ابن أَبي خَيْثَمَة (١٨٥ - ٢٧٩هـ) أبو بكر أحمد بن زهير بن حرب ابن شداد النَّسائي ثم البغدادي: مؤرخ، حافظ، كان ثقة، راوية للأدب، بصيرا بأيام الناس، له مذهب، ألف التاريخ الكبير؛ قال الخطيب: وَلا أعرف أغزر فوائد من تاريخه وكان لا يُحدِّث به إلا كاملاً؛ «لسان الميزان» ١/٤٦٣.

(٢) الاكتفاء، للكلاعي١/٢٩٦،

(٣) عيون الأثر، لابن سيّد الناس ١/٢٢٩،

(٤) السنن الكبرى، البيهقي الحديث: (١٦٨٠٩) =١٠٦/٨،

(٥) كتاب المجروحين، ابن حبّان ٢/٢٢١.

معين: ضعيف. وروى الدارمي، عن ابن معين: ليس بشيء. وقال النسائي: متروك. وكذا قال الدارقطني. وأما الترمذي فأخذ بمليء فقال: قلت لمحمد في حديث كثير بن عبد الله، عن أبيه، عن جده في ساعة الجمعة؟ قال: هو حديث حسن، إلا أنَّ أحمد بن حنبل يحمل على كثير، يضعِّفه»[1].

حكم رواية عمرو بن عوف: الذي يراه الباحث أن رواية **عَمرو بن عوف بن زيد المزني ضعيفة لضعف كثير بن عبد الله صالحة للاعتبار تتقوى بغيرها بالشواهد.**

● **النصّ التاسع: نصّ عثمان بن محمَّد بن المغيرة بن الأخنس بن شريق (ت بعد ١٢٠هـ)** [2]:

«عن ابن إسحاق قال: حدَّثني عثمان بن مُحَّد بن عثمان بن الأخنس بن شريق قال:

أخذتُ من آل عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الكتاب كان مقروناً بكتاب الصدقة الذي كتب عمر للعمال:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من مُحَّد النبي ﷺ بين المسلمين والمؤمنين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة دون الناس المهاجرين من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، ثم ذكر على هذا النسق بني الحارث، ثم بني ساعدة، ثم بني جشم، ثم بني النجار، ثم بني عَمرو بن عوف، ثم بني النبيت، ثم بني الأوس، ثم قال: وإنَّ المؤمنين لا يتركون مفرحاً منهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عَقْل»[3].

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي ٤/٤٨٥.

(٢) تقدير الوفاة من «تاريخ الإسلام» للذهبي ٣/ ٤٦٢.

(٣) الحاكم، والبيهقيُّ في «السنن الكبرى» (١٦٨٠٨) =٨/١٠٦،

التوثيق والتخريج:

رواية عثمان بن محمَّد بن المغيرة بن الأخنس بن شريق: رواها الحاكم[1]، وعنه البيهقيُّ في «السنن الكبرى» (١٦٨٠٨) = ٨/١٠٦، و«دلائل النبوة» ٢/٥٢٤، قال: «أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال: حدَّثنا أبو العباس محمَّد بن يعقوب قال: حدَّثنا أحمد بن عبد الجبّار قال حدَّثنا يونس بن بُكير عن **ابن إسحاق قال: حدَّثني عثمان بن محمَّد بن عثمان بن الأخنس بن شريق قال:**...».

وأمّا رجال إسناده؛ فأبو عبد الله الحافظ شيخ البيهقي؛ هو مُحمَّد بن عبد الله بن مُحمَّد، الحاكم النيسابوري، المعروف بابن البيّع؛ إمام أهل الحديث في عصره، صاحب المستدرك، حافظ إمام صدوق[2].

وأمّا أحمد بن عبد الجبار: فهو العطاردي، قال ابن حبان في «الثقات»: «ربما خالف ولم أر في حديثه شيئاً يجب أن يعدل عن سبيل العدول إلى سنن المجروحين»، وقال الخليلي: «ليس في حديثه مناكير لكنه روى عن القدماء فاتهموه لذلك»، قال ابن حجر: «ضعيف وسماعه للسيرة صحيح»[3]، وقال: «قد ضعفه أحمد، وهو في الأصل صدوق، لكن له أوهام»[4]. وقال في سند حديث هذا أحد رجاله: «إسناد حسن»[5].

---

(١) لم أجده في «المستدرك» له، وذكره عنه ابن حجر في «التلخيص الحبير» ٤/١٠٣، وابن الملقّن في «البدر المنير» ٨/٤٩٦، والشوكاني في السيل الجرار المتدفِّق على حدائق الأزهار ٩١٠.

(٢) ميزان الاعتدال ٣/٦٠٨، وفيات الأعيان ٤/٣٨٠،

(٣) لسان الميزان ٧/٥١١، وتقريب التهذيب، ص ٨١،

(٤) موافقة الخُبْر الخبر في تخريج أحاديث المختصر، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: حمدي السلفي، وصبحي السامرائي، الرياض: مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٢هـ، ٢/ ٢٥٤، وانظر: تحفة اللبيب بمن تكلم فيهم الحافظ ابن حجر من الرواة في غير «التقريب»، نور الدين الوصابي، ٢/٢٦٦.

(٥) مختصر زوائد البزار، ابن حجر، ١/٤٦٨، وانظر: تحفة اللبيب بمن تكلم فيهم الحافظ ابن حجر من الرواة في غير «التقريب»، ٢/٢٦٦.

ويونس بن بُكير: راويةٌ لمغازي ابن إسحاق، وأحد أئمة الأثر والسير كما وصفه الذهبي(١)؛ قال أَبو حَاتِمٍ: مَحَلُّه الصِّدْقُ، وقال النَّسائي: ليس بالقويّ، وقال الجوزجاني: ينبغي أن يتثَبَّت في أمره، وقال ابن مَعِين: صدوق، وقال المزّي: وثّقه يحيى بن معين،؛ إلا أنّ عثمان بْن سَعِيد الدارمي قال: يُخالَفُ فِي يونس؛ يعني أنَّ غيرَ يحيى من أهل الجرح والتعديل يخالفونه في هذا الحكم؛ ويُضعّفون روايته. وقد روى له مسلم في الشواهد، والبخاري تعليقًا، وفي جزء القراءة خلف الإمام، وأبو داود، والترمذي(٢).

وأمّا عُثْمَان بن مُحَمَّد الثقفي الأخنسي(٣): فقد وقع اسم الراوي (عثمان بن محمَّد بن عثمان بن الأخنس بن شريق) عند البيهقيّ في «السنن الكبرى»(٤)، و«دلائل النبوة»(٥)، والذهبي في «المهذب في اختصار السنن الكبير»(٦) ٦/٣١٩٥، ووقع عند ابن الملقن في «البدر المنير»(٧)، وابن حجر في «التلخيص الحبير»(٨)، والشوكاني في «السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار»(٩): (عمر بن مُحَمَّد بن عُثْمَان بن الْأَخْنَس بن شريق)، والصواب في الرواية فيما يترجّح لي هو: «عُثْمَان بن مُحَمَّد بن الْمُغِيرَة بْن الأخنس بْن شريق»، فوهم الراوي فقال (عثمان) بدل (المغيرة) إذ ليس في الرواة عثمان بن محمَّد بن (عثمان) بن الأخنس بن شريق، وإنما هو عُثْمَان بن مُحَمَّد بن (المغِيرَة) بْن الأخنس بن شريق، وقد وقع على الصواب منسوباً للبيهقي في «صحيح السيرة النبوية»، تأليف إبراهيم العلي (ت: ١٤٢٥هـ)(١٠). ولا أستبعد أن يكون الخطأ في حال الإملاء، إذ إنّ (عثمان) و(المغيرة) أخوان، كما في «نسب قريش» لمصعب ابن

(١) سير أعلام النبلاء، وميزان الاعتدال ٤/٤٧٧.
(٢) ميزان الاعتدال ٤/٤٧٧، تهذيب الكمال ٢٢/ ٤٩٧.
(٣) الأخنسي: نسبة إلى الأخنس بن شريق.
(٤) السنن الكبرى، للبيهقي (١٦٨٠٨) = ٨/١٠٦.
(٥) دلائل النبوة، البيهقي٢/٥٢٤،
(٦) المهذب في اختصار السنن الكبير، الذهبي، ٦/٣١٩٥،
(٧) البدر المنير، ابن الملقّن، ٨/٤٩٦،
(٨) التلخيص الحبير، ابن حجر، ٤/ ١٠٣،
(٩) السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، الشوكاني ١/ ٩١٠،
(١٠) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي، ص ١٤٣،

عبد الله الزُّبَيري[1]، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر[2]؛ فلعلّه اشتبه على الراوي فنسبه إلى أخيه؛ والله أعلم.

وعُثْمَان بن مُحَمَّد بن الْمُغِيرَة بن الأخنس بن شريق الثقفي، هذا من طبقة تابعي التابعين، روى عن بعض كبار التابعين مثل سعيد بن المسيّب وحنظلة بن قيس[3]، وقد وثّقه يحيى بن مَعِين وابن حبَّان والبخاريّ، كما في «العلل الكبير» للترمذي[4]، وصحّح أحاديثه الترمذي في «جامعه»[5]، روى عنه حنظلة بن قيس الزرقي، وسعيد بن المسيَّب، وسعيد المقبري وعَبد اللهِ بْن جَعفَر المخرَمِيّ، وغيرهم، ووالده راوية مجهول روى عن سعيد بن المسيّب[6]، وجدّه صحابي[7]، قال ابن حبَّان في «الثقات»: «يعتبر حديثه من غير رواية المخرمي عنه لأنَّ المخرمي ليس بشيء في الحديث»[8].

حكم رواية عثمان بن محمد: الذي يراه الباحث أنّه من بلاغاته المنقطعة بينه وبين النبي ﷺ، وهو مرويّ بالوِجادة؛ فضلاً عن جهالة الراوي عنه بالوجادة، إذ فيه: «أخذت من آل عمر بن الخطاب ﷺ هذا الكتاب كان مقروناً بكتاب الصدقة الذي كتب عمر للعمال»،

- **النص العاشر: نصّ الشَّعبِيّ (ت ١٠٧هـ)[9]، أو عن أبي جعفر محمَّد بن عليّ (ت ١١٤هـ)[10] – الشَّك من أبي عُبيد: (رواية أبي عُبيد القاسم بن سلام**

---

(١) نسب قريش، مصعب بن عبد الله الزبيري، ١٥٩.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر، ٣١٢/٣٤ (ترجمة: عثمان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية).

(٣) انظر ترجمته في تاريخ الإسلام للذهبي ٤٦٣/٣، وتهذيب الكمال للمزي ٤٨٨/١٩.

(٤) العلل الكبير، الترمذي (٢٧٣)،

(٥) جامع الترمذي (٣٤٤)، و(٢٥٠٨).

(٦) لسان الميزان ٥١٦/٧.

(٧) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٢٩٨/١٠.

(٨) الثقات، ابن حبّان ٢٠٣/٧:

(٩) هو عامر بن شراحيل الشَّعبيّ، إمام تابعي ثقة، «سير أعلام النبلاء» ٢٩٤/٤.

(١٠) هو محمَّد بن علي بن الحسين بن على بن أبي طالب القرشي الهاشمي المدني، أبو جعفر الباقر (ت ١١٤هـ). «سير أعلام النبلاء» ٤٠٨/٤.

٢٢٤هـ) في كتابه «غريب الحديث»): قال: «وحدَّثني حمَّاد بن عبيد، عن جابر[١]، عن الشَّعبِيّ، أو عن أبي جعفر محمَّد ابن علي – الشَّك من أبي عبيد – عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «العقل على المسلمين عامَّة، ولا يترك في الإسلام مُفْرَجٌ». قال: حمَّاد: فقلت لجابر: ما المِفْرَجُ[٢] ؟ قال: هو الرجل يكون في القوم من غيرهم، فحقَّ عليهم أن يعقلوا عنه، وقال غير حمَّاد: مفرح بالحاء»[٣].

التوثيق والتخريج:

لم يُخرّج هذه الرواية سوى أبي عبيد القاسم بن سلام في «غريب الحديث»[٤]، وهو غريب؛ فقد قال البخاري في حمَّاد بن عُبيد: «حماد بن عُبَيد عن جابر الجعفيّ، روى عنه أبو عُبَيد القاسم بن سلام ولم يصحّ حديثه»[٥]، وقال أبو حاتم: «ليس بصحيح الحديث، لا يُعبأ به»[٦]. وجابر الجعفي: أجمعوا على ضعفه، بل كذبه قوم وتركه آخرون[٧]؛ وكان من أوعية العلم إلا أنهم ضعفوه لأنه كان يؤمن بالرجعة، أي رجعة سيدنا علي ﵁ لذا قال أبو داود، سمعت أحمد بن حنبل يقول: «لم يُتكلم في جابر في حديثه، إنما تكلم فيه لرأيه»[٨]. فَضَعفُه في عدالتِه لا في ضبطِه.

---

(١) هو جابر الجعفي، ت ١٢٧ هـ و قيل: ١٣٢ هـ.

(٢) المِفْرَجُ: قيل: هو القتيل يوجد بأرض فلاة ولا يكون قريباً من قرية، فإنه يؤدَّى من بيت المال ولا يطل دمه.
وقيل: هو الرجل يكون في القوم من غيرهم فيلزمهم أن يعقلوا عنه.
وقيل: هو أن يسلم الرجل ولا يوالى أحداً حتى إذا جنى جناية كانت جنايته على بيت المال؛ لأنَّه لا عاقلة له.
والمفرد الذي لا عشيرة له.
وقيل: هو المثقل بحق دية أو فداء أو غنم. ويروى بالحاء المهملة. النهاية في غريب الحديث: مادة (فرج)،

(٣) غريب الحديث، القاسم بن سلام ١/١٥٥، تحقيق الدكتور حسين محمَّد محمَّد شرف، مراجعة عبد السلام هارون، القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط١، ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤ م.

(٤) غريب الحديث، ابن سلام ١/١٥٥

(٥) الكامل لابن عدي ٣/٢٩،

(٦) لسان الميزان ٣/٢٧١،

(٧) انظر ترجمته في الكامل لابن عدي ٢/٣٢٧، وتاريخ الإسلام للذهبي ٣/٣٨٥.

(٨) موسوعة أقوال أبي الحسن الدارقطني في رجال الحديث وعلّله ١/١٦٤.

حكم رواية الشَّعبِيّ: إسنادها ضعيف لسببين: لأنّه مرسل، ولضعف حماد بن عُبَيد وجابر الجعفي، والحديث أرسله التابعيّ عامر بن شراحيل الشَّعبِيّ فأضافه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يذكر الصحابيَّ الذي رواه عنه؛ إلا أنّ هذه الرواية تتقوى بالروايات الأخرى.

• **النص الحادي عشر: رواية ابن جُريج (ت ١٥١)، (كما في الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلَّام) (ت ٢٢٤ هـ):**

«قال: قال حدَّثني حجاج[١]، أنّ ابن جريج، قال: في كتاب النبي ﷺ بين المسلمين والمؤمنين من قريش وأهل يثرب ومن اتبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم: أن المؤمنين لا يتركون مفدوحاً منهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل[٢]».

التوثيق والتخريج:

رواه أبو عُبيد القاسم بن سلَّام (ت ٢٢٤هـ) في كتابَيه «الأموال»[٣]، و«غريب الحديث»[٤].

• **حكم رواية ابن جريج**: عبد المِلك بن عبد العزيز بن جُرَيْج القرشي، (ت ١٥١هـ)، عالِم مكة، إمام حافظ، من تابعي التابعين الذين عاصروا صغار التابعين[٥]، قال ابن حجر: «ثقة فقيه فاضل، وكان يدلّس ويرسل»[٦]. والخبرُ من البلاغات الضعيفة المعضلة المرويّة عن ابن جريج، فقد سقط منها التابعيُّ والصحابيُّ، وقد أسلفنا القول بتضعيف حجّاج بن أرطأة الراوي عن ابن جريج،

(١) هو الحجاج ابن أرطأة؛ وقد سلفت ترجمته،
(٢) الأموال، القاسم بن سلام ١٦٦ (الخبر: ٣٣٠)،
(٣) الأموال، ص ١٦٦ = (الخبر: ٣٣٠)،
(٤) غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام، ١/١٥٥.
(٥) تهذيب الكمال، المزّي ١٨/٣٥٤،
(٦) تقريب التهذيب، ابن حجر (الترجمة: ٤١٩٣)،

رابعًا: دراسة النص وآراء العلماء في إثباته:

أولاً: من حيث سعة النصّ وقصره: اختلفت النصوص التي روت نص الصحيفة بين الإيجاز والاتساع؛ إذ نرى تفاوتاً بين نصوص الوثيقة فبعض الروايات، ولاسيما روايتا ابن إسحاق والزهري؛ فقد جاءتا أطول من غيرهما؛ بينما اقتصرت رواياتٌ أخرى على العاقلة؛ ولذلك يرى بعض الباحثين أنّهما صحيفتان؛ جُمعت في بعض الروايات - مثل رواية ابن إسحاق والزهري - في رواية واحدة، بينما اقتصرت الروايات القصيرة على العاقلة وما يتعلّق بها، يشهد لذلك قول ابن حجر: «والجمع بين هذه الأخبار أنَّ الصحيفة المذكورة كانت مشتملة على مجموع ما ذكر فنقل كل راو بعضها.»[١]،

ثانيًا: مذاهب العلماء في ثبوت نسبتها: ينقسم العلماء من حيث ثبوتُ نسبتها إلى المذاهب الآتية:

المذهب الأوّل: ينفي ثبوت الوثيقة ويحكم عليها بالوضع، وهو رأي الدكتور يوسف العش رحمه الله[٢]، يقول العش: «إنها لم ترد في كتب الفقه والحديث الصحيح رغم أهميتها التشريعية، بل رواها ابن إسحاق دون إسناد، ونقلها عنه ابن سيِّد الناس»، وأضاف: «إنّ كثيراً بن عبد الله بن عمرو المزني روى هذا الكتاب عن أبيه عن جدّه، وقد ذكر ابن حبان البستي[٣]: «أنّ كثير المزني روى عن أبيه عن جده نسخة موضوعة لا يحلّ ذكرها في الكتب ولا الرواية عنها إلا على جهة التعجّب»، ويرى العش أنّ «ابن إسحاق اعتمد على رواية كثير لكنه تعمَّد حذف الإسناد»[٤].

(١) فتح الباري، ابن حجر ٤/٨٥.

(٢) في إحدى حواشيه على كتاب «الدولة العربية وسقوطها» لفلهاوزن، حاشية رقم (٩) ص ٢٠. كما نقلها عنه أكرم ضياء الدين العمري في «المجتمع المدني في عهد النبوة»، ص ١٠٧.

(٣) قال ابن حبان في كتاب المجروحين ٢/٢٢١: «كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني يروي عن أبيه عن جده روى عنه مروان بن معاوية وإسماعيل بن أبي أويس منكر الحديث جداً يروي عن أبيه عن جده نسخة موضوعة لا يحل ذكرها في الكتب ولا الرواية عنه».

(٤) المجتمع المدني في عهد النبوة، أكرم العمري، ص ١٠٧.

المذهب الثاني: يُضعِّف سندها؛ وممّن وهَّنها وضعّفها الأستاذ ضيدان اليامي في كتابه «بيان الحقيقة في الحكم على الوثيقة: وثيقة – المدينة»[1]، والشيخ مُحَمَّد ناصر الدين الألباني إذ قال: «هذا مما لا يُعرف صحته، فَذَكره (ابن إسحاق) هكذا بدون إسناد، فهو معضل، وقد نقله ابن كثير عن ابن إسحاق ولم يزد عليه في تخريجه شيئاً على خلاف عادته، مما يدلُّ على أنه ليس مشهوراً عند أهل العلم والمعرفة بالسيرة والأسانيد»[2]. وقال في تعليقه على «فقه السيرة» لمحمد الغزالي عند ذكرها: «روى هذه الوثيقة ابن إسحاق بدون إسناد»[3].

المذهب الثالث: يرى ثبوتها؛ فبعضُ طرقها صحيحة ثابتة في كتب الصحاح والسنن والمسانيد؛ وبعضها الآخر تُعامل معاملة مرويّات السير. ويرى المثبِتون لها بأن القول بأنّ الوثيقة موضوعة مجازفة، وذلك للأسباب الآتية:

١) إنّها وردت من طرق كثيرة، تتضافر في إكسابها القوة، والزهري علَم من رواد كتاب السيرة، وهو من أوثق أهل العلم والرواية.

٢) ثبوت المحالفة بين المهاجرين والأنصار، وكتاب الرسول ﷺ في ذلك.

٣) ثبوت موادعة اليهود، وكتاب الرسول ﷺ في ذلك، وإن أهم كتب السيرة والتاريخ، ذكرت موادعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لليهود، وإنهم جميعهم – أي: القبائل الكبيرة المعلومة في التاريخ – هي التي نقضت عهودها، وإلا ما معنى أن ترد الروايات التاريخية، المدعومة بالقرآن الكريم في مهاجمتهم، وإخراجهم من المدينة المنورة، وما ذلك إلا لسبق العهود القوية، التي نقضوها مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما ذكرت الروايات كتابتها أيضاً بين المهاجرين والأنصار.

---

(١) نقلاً عن: السيرة النبوية بين الآثار المروية والآيات القرآنية، مُحَمَّد بن مصطفى بن عبد السلام الدبيسي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب – جامعة عين شمس، القاهرة، ص ٤١٢.

(٢) دفاع عن الحديث النبوي والسيرة. ناصر الدين الألباني، ص ٢٥، ٢٦.

(٣) فقه السيرة، مُحَمَّد الغزالي، ص ١٩٤.

٤) إنَّ أسلوب الوثيقة يدل على أصالتها، فنصوصها مكونة من جمل قصيرة وغير معقدة، وفيها كلمات وتعابير كانت مألوفة في العهد النبوي، وإن تشابهها، واستخدام نفس الجمل مع أساليب كتب الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الأخرى ليعطيها قوة ويكسبها الثقة.

٥) إنّه ليس في الوثيقة نصوص تمدح أو تقدح بفردٍ، أو جماعة، أو أي قرينة يمكن القول معها بأنها مزورة.

٦) التشابه الكبير بين أسلوبها، وأساليب كتب النبي ﷺ الأخرى يعطيها توثيقا آخر.

٧) إنّ الأحكام المستنتجة من الوثيقة يمكن استنتاجها من عموميات النصوص الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد، وهناك الكثير من الشواهد على فقرات الوثيقة قرآناً وسنة وتأريخاً تدل على صحة الصحيفة من القرآن والسنة وكتب التاريخ، حتى نرد بذلك على القائلين بخلافه، حيث ذكر المؤرخون فقرات معينة، وردت في الصحيفة كالطبري حيث أشار إلى كتابة المعاقل، وابن سعد أشار إلى كتابة المعاقل بين المؤمنين، وأن لا يترك مُفرح في الإسلام، ولا يقتل مسلم بكافر، وعبد الرزاق الصنعاني، أشار إلى العقل على العاقلة، وأن ذلك بلغهم عن الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كما في الكتاب الذي بين قريش والأنصار. وذكر المقريزي[١]، وابن حزم[٢]، والديار بكري[٣]، أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب كتاباً وادع فيه اليهود، ذكر بعضهم بني قينقاع، والنضير، وقريظة، إلى آخر ما ذكر، والآخر ذكر يهود فقط. وأما ما كان من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي تؤيد فقرات في

(١) في كتابه «إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع» ٦٩/١، إذ قال: «موادعة يهود: ووادع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من بالمدينة من يهود، وكتب بذلك كتابا، وأسلم حبرهم عبد الله بن سلام بن الحارث، وكفر عامتهم وهم ثلاث فرق: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة».

(٢) في المحلّى، كما بيّنّا سابقًا،

(٣) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، الدياربكري، ١/ ٣٥٣، إذ قال: «ذكر موادعة اليهود: وفى هذه السنة بعد ما قدم رسول الله صلّى الله عليه وسلم المدينة بخمسة أشهر وادع اليهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم أن لا يعينوا عليه أحدا وان دهمه بها عدوّ نصروه».

الوثيقة، فقد روى منها البخاري وأبو داود والنسائي[(١)]، وهذه الروايات تثبت تحرير الكتاب، من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين المهاجرين والأنصار، وتؤيد الفقرات التي جاءت في الصحيفة عن المعاقل، وفداء الأسرى للمهاجرين وبطون الأنصار.

٨) هناك عددٌ من الأحاديث تثبت أصل الصحيفة، والكتابة بين المهاجرين والأنصار في المدينة، وما فيها من تفصيلات.

٩) وأما الآيات القرآنية فقد ذكر أحد الباحثين سبعاً وعشرين آية، توافق فقرات الصحيفة، ولولا خشية الإطالة، لأوردنا طرفاً منها.

١٠) ونهاية النظر في هذه الأدلة، توحي بأن جميع فقرات الصحيفة، لها شواهد من القرآن الكريم، والسنة الصحيحة.

١١) إن التشكيك بعد ذلك، يعد مجازفة كبرى، وتَسَرُّعاً في إصدار الأحكام، ومجافاة للأسلوب العلمي، فضلاً عن مخالفة الواقع.

وهذا المذهب هو الذي يراه الباحث متّجهاً ؛ وهو المؤيّد علميّاً وتثبته الأدلّة.

خامسًا: نقد المرويات وبيان حكم قبول الروايات وردّها:

يُعدُّ ثبوت سند الصحيفة أحد الإشكاليات عند كثير من الباحثين الذين نفوا، أو أثبتوا، أو رجّحوا ثبوتها؛ ولابدّ من الإشارة ابتداءً إلى الحقائق الآتية:

أولاً: لم يتكلّم أحد من الحفّاظ والعلماء السابقين، في حدود علم الباحث، في ردّها وعدم ثبوتها، وكان كلام ابن حبّان البستي في رواية كثير المزنيّ فحسبُ[(٢)].

ثانيًا: ذكرها كثير من العلماء في كتبهم إضافة إلى الرواة السابقين، ولاسيما الرواية المطوّلة وموادعة يهود:

---

(١) كما أسلفنا في الروايات السابقة:

(٢) كما سبق ذكره؛ وهو قوله في كتاب المجروحين ٢/٢٢١: «كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني يروي عن أبيه عن جده روى عنه مروان بن معاوية وإسماعيل بن أبي أويس منكر الحديث جداً يروي عن أبيه عن جده نسخة موضوعة لا يحل ذكرها في الكتب ولا الرواية عنه».

١) الأوزاعيّ (ت١٥٤هـ) (روايةً عن الزهريّ)، كما نقله ابن أبي حاتم الرازي في «الجرح والتعديل»[١].

٢) والسهيليُّ (ت ٥٨١هـ) (رواية ابن إسحاق)، في «الروض الأنف في شرح السيرة النبوية» لابن هشام[٢].

٣) ومثلُه الكلاعي (ت ٦٣٤هـ)، في «الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء»[٣].

٤) وابن أبي خيثمة في التاريخ الكبير.

٥) وابن سيّد الناس (ت٧٣٤هـ) في «عيون الأثر»[٤].

٦) ومغلطاي (ت ٧٦٢هـ) في «الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفا»[٥].

٧) وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) في «البداية والنهاية»[٦].

٨) وابن حديدة (ت ٧٨٣هـ) في «المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي»[٧].

٩) والمقريزي، في كتابه «إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع»(٨).

١٠) والديار بكري في «تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس»[٩].

وجلّهم أئمّة لهم اعتبار في الحديث وعلومه.

---

(١) الجرح والتعديل: ١/١٩٧.

(٢) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، السهيلي، ٤/١٧١.

(٣) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، الكلاعي، ١/٢٩٦.

(٤) عيون الأثر، ابن سيد الناس١/٢٢٧.

(٥) الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفا، مغلطاي، ١٧٨.

(٦) البداية والنهاية، ابن كثير ٤/٥٥٥،

(٧) المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، ابن حديدة ٢/٥.

(٨) في كتابه «إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع» ١/٦٩.

(٩) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، الدياربكري، ١/ ٣٥٣.

ثالثًا: نصّ على كتاب موادعة يهود عددٌ من العلماء منهم:

أ- الشافعي (ت٢٠٤ هـ) رحمه الله تعالى في الأم، وتبعه المزني في مختصره[(١)]: إذ قال: «لم أعلم مخالفاً من أهل العلم بالسير «أن رسول الله ﷺ لما نزل بالمدينة وادع يهود كافة على غير جزية وأن قول الله عز وجل ﴿فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ [المائدة: ٤٢] إنما نزلت في اليهود الموادعين الذين لم يعطوا جزية ولم يقروا بأن يجري عليهم الحكم»[(٢)]،

ب- والماورديّ (ت ٤٥٠ هـ) في «الحاوى الكبير» [(٣)]،

ت- والبغوي في «التهذيب في فقه الإمام الشافعي»[(٤)].

ث- والروياني (ت٥٠٢هـ) في «بحر المذهب: في فروع المذهب الشافعي»(٥).

ج- وابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) في «الصارم المسلول»[(٦)].

ح- وابن قيّم الجوزية (ت ٧٥١هـ) في «أحكام أهل الذمة»[(٧)]، فقال: «وهذه الصحيفةُ معروفةٌ عند أهل العلم». وقال فيه أيضًا: «إن النبي ﷺ لما قدم المدينة وادع جميع اليهود، الذين كانوا بها موادعة مطلقة، ولم يضرب عليهم جزية، وهذا مشهور عند أهل العلم بمنزلة التواتر بينهم.»[(٨)]. وقال في «زاد المعاد»: «وثبت عنه أنّه صالح اليهود وعاهدهم لما قدم المدينة فغدروا به ونقضوا عهده مرارًا..»[(٩)].

(١) مختصر المزني (بهامش الأم) ٨/٢٨٨،

(٢) الأم، الشافعي ٤/٢٢٢.

(٣) الحاوى الكبير، الماوردي ١٤/٧٨٤.

(٤) التهذيب في فقه الإمام الشافعي، البغوي ٧/٤٥٦.

(٥) بحر المذهب (في فروع المذهب الشافعي)، الروياني ١٢/٤٣١.

(٦) الصارم المسلول، ابن تيمية ص ٦٤،

(٧) أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية ص ٢٣٢،

(٨) أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية ٣/١٤٠٤.

(٩) زاد المعاد، ابن قيم الجوزية ٥/٨٥،

خ- والحافظ زين الدين العراقي (ت ٨٠٦هـ) في ألفيته [١] إذ قال:

«وَوَادَعَ اليهودَ في كتابِهِ.. ما بينهم وبين ما أصحابه»

د- وابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) في «فتح الباري» فقال: «وذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ وادع اليهود لما قدم المدينة الخ»[٢].

ذ- وذكرها وأثبتها ودرسها العلامة مُحَمَّد أبو زهرة (ت ١٣٩٤هـ) في كتابه «خاتم النبيين ﷺ»[٣].

ر- وإبراهيم العلي (ت ١٤٢٥هـ) في «صحيح السيرة النبوية». وله فيها تخريج ونقد[٤].

سادسًا: النتيجة:

لقد كنّا أمام ثلاثة متون: نصّ طويل، ومتوسّط، وقصير:

أولًا: النص الطويل للصحيفة: ورد من ثلاثة طرق:

١) الأول: رواه عثمان بن محمَّد بن الأخنس بلاغًا، وإسناده ضعيف صالح للاعتبار.

٢) والثاني: رواه مُحَمَّد بن شهاب الزُّهري بلاغًا؛ وإسناده ضعيف صالح للاعتبار،

٣) وابن إسحاق بلاغًا؛ وإسناده ضعيف صالح للاعتبار.

وهذه الطرق للنصّ الطويل الأول منها يذكر المعاهدة بين المهاجرين والأنصار والعقول، والطريقان الثاني والثالث: يذكران ما سبق في الطريق الأول ويزيد عليه المعاهدة مع اليهود، وهذه الطرق يُقوّي بعضُها بعضاً ويرتفع بهما الحديث من مرتبة الحديث الضعيف إلى مرتبة الحسن لغيره لتعدّد طرق الحديث الضعيف، وانتفاء الشذوذ والعلّة

(١) ألفية العراقي في السيرة النبوية، ص ٧٠.

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٢٧٥/٧،

(٣) خاتم النبيين ﷺ، مُحَمَّد أبو زهرة ٢/ ٤٩٦،

(٤) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي ص١٢٤.

القادحة، ولاسيما أنّ لأصل الحديث طرقاً صحيحة؛ غير أنّ نصوص المعاهدة مع اليهود لم تأتِ إلا من طريق معضلة ضعيفة لم تتقوَّ بغيرها لإعضالها وانقطاعها .

ثانيًا: النصّ المتوسط: (يذكر الصحيفة بين المهاجرين والأنصار والعقول) رواه الصحابيّ الجليل علي بن أبي طالب ﷺ، وهو صحيح.

ثالثًا: النصّ القصير: ورد من سبعة طرق، وهو يذكر الصحيفة بين المهاجرين والأنصار والعقول،

١) الأول: رواه الصحابي الجليل عمرو بن عوف المزني ﷺ، وإسناده ضعيف صالح للاعتبار.

٢) والثاني: رواه عبد الله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنهما، وإسناده ضعيف صالح للاعتبار.

٣) والثالث: رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وإسناده ضعيف صالح للاعتبار.

٤) والرابع: جابر بن عبد الله؛ وهو صحيح.

٥) والخامس: أنس بن مالك ﷺ؛ وهو صحيح.

٦) والسادس: أرسله عامر الشَّعبِيّ، وإسناده ضعيف صالح للاعتبار.

٧) والسابع: أرسله ابن جريج، وإسناده ضعيف صالح للاعتبار.

والحكمُ على هذا النص (القصير) أنّه متن صحيح لحديث جابر عبد الله ﷺ، وتتقوّى الطرق الأخرى بعضُها ببعض، وترتفع من مرتبة الضعيف إلى مرتبة الحسن لغيره لتعدّد الطرق وانتفاء الشذوذ والعلّة القادحة.

وبذلك يُردُّ قول مّن قال بضعف حديث الصحيفة مطلقاً ؛ ذلك أنّ إسنادها في حيّز المقبول، ولبعض فقراتها أسانيد صحيحة ومؤيّدات من الآيات القرآنية، فضلاً عن اشتهار قضية موادعة يهود عند الفقهاء والمحدّثين وكتّاب السيرة؛ وقد قال الحافظ ابن حجر في حديث «لا وصية لوارث»: «ولا يخلو إسناد كل منها عن مقال، لكن مجموعها يقتضي أن للحديث أصلاً بل جنح الشافعي في «الأم» إلى أنَّ هذا المتن

متواتر فقال: وجدنا أهل الفتيا ومن حفظنا عنهم من أهل العلم بالمغازي من قريش وغيرهم لا يختلفون في أن النبي ﷺ قال عام الفتح: لا وصية لوارث[1]، ويؤثرون عمَّن حفظوه عنه ممَّن لقوه من أهل العلم، فكان نقل كافة عن كافة، فهو أقوى من نقل واحد»[2]؛ ويبقى علم الحديث هو الحَكم في تقدير ثبوتها، وجمعُ طرقها وسبرُها هو السبيل إلى كشف حال الأسانيد.

جدول يُبيّن روايات الصحيفة وتوصيفها

م	الراوي	طبقته	حكم الرواية	مواصفات نص الخبر
١	علي بن أبي طالب (ت٤٠)	صحابي	صحيحة	• النص متوسّط • يذكر العلاقة بين المهاجرين والأنصار والعقول
٢	عمرو بن عوف المزني (ت٦٠ تقريبًا)	صحابي	ضعيفة	• النص قصير • يذكر كتاب النبي ﷺ في العقول وواجب كلّ طائفة
٣	عبد الله بن عَمرو ابن العاص (ت٦٥)	صحابي	ضعيفة	• النص قصير • يذكر كتاب النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار والعقول
٤	عبد الله بن عباس (ت٦٨)	صحابي	ضعيفة	• النص قصير • يذكر الكتاب بين المهاجرين والأنصار والعقول
٥	جابر بن عبد الله (ت٧٨)	صحابي	صحيحة	• النص قصير • يذكر الصحيفة والعقول

---

(١) نصُّ الإمام الشافعيّ في كتابه «الأم» ٥/٢٢٤ : «ورأيت متظاهراً عند عامة مَن لقيتُ من أهل العلم بالمغازي أن رسول الله ﷺ قال في خطبته عام الفتح: «لا وصية لوارث»، ولم أرَ بين الناس في ذلك اختلافًا» .

(٢) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٥/٣٧٢.

٦	أنس بن مالك (ت٩٣)	صحابي	صحيحة	● النص قصير ● يذكر المعاهدة بين المهاجرين والأنصار
٧	عامر الشَّعبيّ (ت١٠٧)	تابعي	ضعيفة	● النص قصير ● يذكر جزءا من المعاهدة دون الإشارة إليها
٨	عثمان بن محمَّد بن الأخنس (ت بعد ١٢٠)	تابعي	إسنادُه حسن إلى عثمان، وهو من بلاغاته؛ فإسناده ضعيف.	● النص طويل ● يذكر المعاهدة بين المهاجرين والأنصار والعقول
٩	مُحَمَّد بن شهاب الزُّهري (ت١٢٥)	تابعي	بلاغاً عن النبي ﷺ	● النص طويل ● يذكر المعاهدة بين المهاجرين والأنصار والعقول ● يشمل المعاهدة مع اليهود
١٠	ابن إسحاق (ت١٥٠)	تابعي التابعين	بلاغاً عن النبي ﷺ	● النص طويل ● يذكر المعاهدة بين المهاجرين والأنصار والعقول ● يشمل المعاهدة مع اليهود
١١	ابن جريج (ت١٥١)	تابعي التابعين	من البلاغات الضعيفة الإسناد المرويّة عن ابن جريج	● النص قصير ● يذكر جزءا من المعاهدة دون الإشارة إليها

المصادر والمراجع

١. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة البوصيريّ، إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد، الرياض دار الوطن، ط١، : ١٩٩٩.

٢. أحكام أهل الذمة، ابن قيم الجوزية تحقيق: يوسف بن أحمد البكري، شاكر بن توفيق العاروري، الدمام : رمادي للنشر، ط١، ١٩٩٧.

٣. الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفا، مغلطاي، تحقيق مُحَمَّد نظام الدين الفُتَيِّح، دمشق : دار القلم ، ط١: الأولى، ١٩٩٦.

٤. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، القاهرة : دار هجر

٥. الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، الكلاعي، بيروت: دار الكتب العلمية ١٤٢٠.

٦. ألفية العراقي في السيرة النبوية، مخطوط، المكتبة الشاملة.

٧. الأم، الشافعي، رفعت فوزي عبد المطلب، المنصورة: دار الوفاء، ط١، ٢٠٠١.

٨. إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، المقريزي، تحقيق مُحَمَّد عبد الحميد النميسي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١ ١٩٩٩ .

٩. الأموال، ابن زنجويه، تحقيق شاكر ذيب فياض، الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية،ط١٩٨٦،١.

١٠. الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، تحقيق خليل مُحَمَّد هراس، بيروت: دار الفكر.

١١. بحر المذهب (في فروع المذهب الشافعي)، الروياني

١٢. البداية والنهاية، ابن كثير.

١٣. البدر المنير ابن الملقّن، تحقيق مصطفى أبو الغيط وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال، الرياض: دار الهجرة، ط١، ٢٠٠٤.

١٤. تاريخ الإسلام للذهبي، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

١٥. تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، الدياربكري، بيروت: دار صادر.

١٦. التاريخ الكبير للبخاري، ط الهند.

١٧. تاريخ دمشق لابن عساكر، بيروت: دار الفكر.

١٨. تحفة اللبيب بمن تكلم فيهم الحافظ ابن حجر من الرواة في غير «التقريب»، نور الدين الوصابي
١٩. تقريب التهذيب، ابن حجر، تحقيق مُحَمَّد عوامة.
٢٠. التلخيص الحبير، ابن حجر،
٢١. التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل، المعلمي،
٢٢. تهذيب الكمال، المزّي .
٢٣. التهذيب في فقه الإمام الشافعي، البغوي .
٢٤. الثقات، ابن حبّان .
٢٥. جامع الترمذي.
٢٦. الجامع الصحيح، البخاري .
٢٧. الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم الرازي.
٢٨. الحاوى الكبير، الماوردي، بيروت: دار الكتب العلمية.
٢٩. دفاع عن الحديث النبوي والسيرة، مُحَمَّد ناصر الدين الألباني.
٣٠. دلائل النبوة، البيهقي
٣١. الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، السهيلي،
٣٢. زاد المعاد، ابن قيم الجوزية .
٣٣. سنن أبي داود.
٣٤. السنن الصغرى النسائي.
٣٥. السنن الكبرى النسائي.
٣٦. سير أعلام النبلاء، الذهبي.
٣٧. السير، أبو إسحاق الفزاري.
٣٨. السيرة النبوية بين الآثار المروية والآيات القرآنية، مُحَمَّد بن مصطفى بن عبد السلام الدبيسي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب - جامعة عين شمس، القاهرة، ص ٤١٢ .
٣٩. السيرة النبوية، ابن هشام،
٤٠. السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، الشوكاني
٤١. الصارم المسلول، ابن تيمية

٤٢. صحيح ابن حبان
٤٣. صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي،
٤٤. صحيح مسلم
٤٥. الطبقات الكبرى لابن سعد
٤٦. العلل الكبير، الترمذي
٤٧. عيون الأثر، ابن سيد الناس
٤٨. غريب الحديث، القاسم بن سلام، تحقيق الدكتور حسين مُحَمَّد مُحَمَّد شرف، مراجعة عبد السلام هارون، القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط١، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.
٤٩. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، القاهرة: المكتبة السلفية.
٥٠. فقه السيرة، مُحَمَّد الغزالي.
٥١. الكامل لابن عدي، بيروت: دار الفكر.
٥٢. كتاب التمييز للإمام مسلم، بقلم مُحَمَّد مصطفى الأعظمي
٥٣. كتاب المجروحين، ابن حبان ،
٥٤. لسان الميزان، عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ط١، ٢٠٠٢.
٥٥. المجتمع المدني في عهد النبوة، أكرم ضياء الدين العمري، المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ط١، ١٩٨٣.
٥٦. مجمع الزوائد، الهيثمي، القاهرة: مكتبة القدسي.
٥٧. المحلّى، ابن حزم، بيروت: دار الفكر.
٥٨. مختصر المزني (بهامش الأم) .
٥٩. مختصر زوائد البزار، ابن حجر، **تحقيق صبري عبد الخالق أبو ذر، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٩٢.**
٦٠. مسند أبي يعلى، دمشق: دار المأمون للتراث،
٦١. مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩.
٦٢. مسند الطيالسي، مُحَمَّد بن عبد المحسن التركي، ط١، القاهرة: دار هجر، ١٩٩٩.

٦٣. المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، ابن حديدة، تحقيق : مُحَمَّد عظيم الدين، بيروت : عالم الكتب

٦٤. المصنّف، ابن أبي شيبة، تحقيق مُحَمَّد عوامة. :

٦٥. المهذب في اختصار السنن الكبير، الذهبي، دار الوطن للنشر، ط١، ٢٠٠١ .

٦٦. موافقة الخُبْر الخبر في تخريج أحاديث المختصر، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: حمدي السلفي، وصبحي السامرائي، الرياض: مكتبة الرشد، ط١، ١٤١٢هـ.

٦٧. موسوعة أقوال أبي الحسن الدارقطني في رجال الحديث وعلّله، تأليف: مجموعة من المؤلفين، بيروت : عالم الكتب، ٢٠٠١.

٦٨. ميزان الاعتدال، الذهبي، تحقيق البجاوي، القاهرة: دار المعرفة، ١٩٦٣.

٦٩. نسب قريش، مصعب بن عبد الله الزبيري، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة : دار المعارف، ط٣.

٧٠. النكت الوفية بما في شرح الألفية، برهان الدين البقاعي، تحقيق ماهر ياسين الفحل، الرياض: مكتبة الرشد ناشرون،٢٠٠٧ .

٧١. وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، ١٩٩٣.

التراث العربي
العدد المزدوج (١٥٩-١٦٠)/ خريف - شتاء/٢٠٢٠- ٢٠٢١

تراثنا الحضاري بين عبق الماضي والرؤية المستقبلية

أسبقيات علماء الحضارة العربية الإسلامية نموذجاً

د. عمار م حمد النهار*

الملخص:

يتناول هذا البحث قضية تأصيل إبداعات علماء الحضارة العربية الإسلامية العالمية، وكيف نُسِبَتْ إلى علماء غربيين، بهدف بسط الحجج والبراهين أمام أجيالنا، وتثبيت حقوق علماء حضارتنا العلمية كي لا تتعرض للانتهاك، وذلك من خلال الحديث عن نماذج من أسبقيات إبداعية ملفتة ومنسية ومعظمها منسوب إلى كبار علماء الغرب في الوقت نفسه، وهي إبداعات استند عليها العلم الحديث: كأبحاث جابر بن حيان في الاستنساخ، وأبحاث الكندي في علم التعمية واستخراج المعمى (الشيفرة والتشفير)، وأبحاث الجاحظ في علم الحيوان، وقوانين الحركة عند ابن سينا وابن ملكا البغدادي، وطب النساء عند علماء حضارتنا، وقضية بناء مهندسي العمارة العربية الإسلامية لمدينتي بكين ومدريد.

كلمات مفتاحية

الاستنساخ - الشيفرة - التشفير - التهجين - التكافل بين الحيوانات - مشاعر الحيوانات - قوانين الحركة - الأجنة - ولادة الحوض - عسر الولادة - منع الحمل - بكين - مدريد.

* عضو هيئة تدريسيّة في جامعة دمشق - قسم التاريخ.

_ **المقدمة:**

إنَّ حاجتنا ماسَّة إلى المواضيع التراثية للتاريخ العربي ,الإسلامي كي نتخلَّص ونُخلِّص أبناءَنا من عقدة الصَّغَار أمام التطور الغربي، الذي قام أصلاً على جهودِ الحضارة العربية ,الإسلامية في كل ميدان من ميادين الحياة والعلم، وإنَّ معرفة تاريخ العلوم في حضارتنا تُقيم ركائز من نوع خاصٍّ في أعماق كياننا لتدعيم الانتماء الذي أوشك أن يصير مفقوداً لدى ناشئتنا.

فهذا البحث تأصيل لتراث العرب المسلمين الذي كان واحة غنَّاء بإبداعات أولئك العلماء في شتَّى ميادين العلوم من طب وهندسة وفلك وكيمياء ورياضيات وعمارة وتاريخ وعلوم أخرى كثيرة.

فلم يكن غرضنا فيه عرضاً لتلك الإبداعات الإنسانية التي تزخر بها الكتب شرقاً وغرباً، وإنَّما تأصيل العلوم الحاضرة التي اقتبسها علماء الغرب وطوَّروها وبنوا عليها وأنكروا أصولها أو حاولوا، بينما كانت تلك العلوم عربية المنبت، وترتَّب على هذا الأمر إنكار لإبداع العقل العربي الذي أريد له أن يبدو خاملاً لا رواء فيه ولا إثمار.

وخطورة هذه الإرادة لا تنسحب على المبدعين وحسب بل إنَّها تمتد لتشمل كيان الأمة كلَّه، في صراع يجردها من روحها، وروح أية أمة إنَّما يكون بمنتجها الحضاري وإبداع عقول أبنائها.

وقد انسحب هذا الصراع إلى يوم النَّاس هذا، بل غدا صراع حضارات تسود وتبيد في نهج مرسوم تتفاعل فيه عوامل السياسة والدين والقومية والعصبية .

فلا بد من رد الأمور إلى نصابها، وكشف الحقائق المجهولة والمعلومة.

ولاشك أن أجيالنا الحاضرة في أمس الحاجة إلى من يبسط أمامهم الحجج والبراهين، ويوجِّه أنظارهم إلى خفايا يسعى كثيرون إلى إبقائها خافية على العقول والعيون لهذا الغرض أو ذاك، فضلاً عن سياسة التجهيل التي ترصف لها قنوات فضائية وإعلامية ومطبوعات زاهية برَّاقة شعارها الخفي (ناموا ولا تستيقظوا).

وبناء على كل ذلك؛ فإن هذا البحث سيتكلم عن نماذج فقط من أسبقيات إبداعية لعلماء حضارتنا ملفتة ومنسية ومعظمها منسوب إلى كبار علماء الغرب في الوقت نفسه، وهي إبداعات استند عليها العلم الحديث وما يزال: كأبحاث جابر بن حيان في الاستنساخ، وأبحاث الكندي في علم التعمية واستخراج المعمى (الشيفرة والتشفير)، وأبحاث الجاحظ في علم الحيوان، وقوانين الحركة عند ابن سينا وابن ملكا البغدادي، وطب النساء عند علماء حضارتنا، وقضية بناء مهندسي العمارة العربية الإسلامية لمدينتي بكين ومدريد.

وهدفنا في ذلك محاولة فتح عيون وأذهان الجيل الحاضر الذي تحاصره (بهرجة) إعلامية تعمل على حجبه عن ينابيع الحقائق وطمسها أمامه، من خلال تثبيت حقوق علماء حضارتنا العلمية كي لا تتعرض للانتهاك من أحد من الآن فصاعداً، و نكون قد عوَّضنا شيئاً من تقصير الماضي في حقهم.

لذلك فإن من أهم أهداف هذا البحث ربط الماضي بالحاضر واستشراف المستقبل من خلال ما يأتي:

١- كشف الحقائق:

العلم الحقيقي هو العلم القائم على كشف حقائق الأشياء، وإجلاء وتوضيح حدث تاريخي بحد ذاته في علم من العلوم أو فن من الفنون لهو جوهر الحقيقة، ومن هنا فإن أول مهمة في هذا البحث هو كشف الحقيقة، وتبيين الحقائق بالعودة إلى خبرة السنين الطويلة التي عاشها أجدادنا واصلين الليل بالنهار، وذلك لتكوين روح الانتماء إليهم، وحسن الاستفادة من تراثهم في حاضرنا ومستقبلنا.

٢- فهم ذاتنا وقدراتنا:

إن كثيراً من أبناء هذه الأمة على مختلف فئاتهم الاجتماعية والثقافية قد تأثروا بما يبث ويعرض، وبهرتهم الدعايات، ولذا فإن من أهم أهداف البحث التوصل إلى فهم ذاتنا وقدراتنا ومعرفة ماضينا للانتقال إلى مرحلة الترقي والتطور والتقدم، فواقعنا بشكل

مؤكد لا يتناسب مع ماضينا، ولا مع ما نملك من قدرات وإمكانات، وهذا ما شجع المتربصين على قطع صلتنا بماضينا وبث روح الانهزامية في نفوس أبنائنا.

٣- إحداث تغيير اجتماعي:

ومن أهداف البحث إحداث اهتمام وفير في مجتمعاتنا بإنجازات الأجداد من أجل تحقيق تغيير اجتماعي في تفكيرنا.

وذلك من خلال محاولة جدية وموضوعية ودلائلية لإثبات أن كثيراً من الإبداعات والاختراعات التي تتصف بالعالمية هي إبداعات لعلماء الحضارة العربية والإسلامية اقتُبست منهم أو سُرقت عنهم.

ومن خلال الاعتزاز بأمجاد العرب المسلمين الذين سطروا تاريخاً مشرقاً ما زالت آثاره إلى اليوم، لندفن مشاعر الأسى والألم على تلك الصورة القاتمة التي صورت بها إبداعات علماء العرب المسلمين الأوائل، الذين عمروا الدنيا بمؤلفاتهم واكتشافاتهم ليقدموا للبشرية تراثاً مضيئاً، فآن لنا أن نستفيق لندرك ما في هذا التراث العظيم، لا من أجل التفاخر، وإنما لتذكرة النفوس وشحذ الهمم، فالمعرفة بماضي الأمة العربية والإسلامية ركيزة مهمة لفهم الحاضر وعلاجه وإعادة الثقة إلى ناشئتنا وإلى من أصابهم القنوط، ثم الانطلاق إلى واقع ومستقبل أرحب.

أولاً _ هل عرف علماء الحضارة العربية الإسلامية الاستنساخ؟:

وهذا البحث يربط الماضي العربي الإسلامي بالحاضر الغربي وباستمرار أبحاث الاستنساخ مستقبلاً، ففي فبراير عام ١٩٩٧م أعلن فريق من الباحثين في معهد روزلين بأدنبرة في إسكوتلندة بقيادة إيان ويلموت عن نجاحهم في توليد نعجة سمُّوها (دولي)، ليس بطريقة التكاثر الجنسي المعروف، ولكن بطريقة تكوين النسائل فيما عرف بعملية الاستنساخ، إذ أخذ العلماء خلية من ضرع النعجة (دولي) وعالجوها بسحب المادة الوراثية منها، وحقنوا المادة الوراثية المسحوبة في بويضة نعجة أخرى أخذت منها المادة الوراثية، ووضعوا البويضة، بعد دمج المادة الوراثية فيها بالنبضات الكهربائية، في رحم

نعجة ثالثة، والتي وضعت بعد مدَّة حمل عادية نعجة مطابقة تماماً لدولي، مما يعني أنَّ هذه النعجة قد وُلدت من ثلاثة أمهات، ولكن دون أب.

وفي فبراير من عام ١٩٩٨م، أي بعد عام من استنساخ (دولي)، أعلنت الشركة نفسها التي تبنَّت هذه العملية، وهي شركة بي. بي. إل. ثيرابيوتكس، استنساخ عجل من سلالة هولستين سمُّوه جيفرسون. وقد تمَّت عملية الاستنساخ هذه المرة من خلية جينية بدلاً من نقل المادة الوراثية من خلية بالغة.

لقد كان نجاح هاتين التجربتين نقطة تحوُّل كبرى في تاريخ البحوث البيولوجية، لأنَّهما هدمتا الاعتقاد بأنَّ الثدييات لا تتكاثر إلا بالتلاقح الجنسي بين الذكر والأنثى.

وظلَّت قضية الاستنساخ، واحتمال تطبيقه على الإنسان، مثار جدل بين الباحثين وغيرهم، إذ انقسم الناس بين رافض لإجراء مثل هذه التجارب، ومؤيِّد منبهر بها، ومنهم من وقف موقف التوسُّط والاعتدال، داعياً إلى تسخير مثل هذه الاكتشافات لصالح البشرية، ومطالباً بضبط استخداماتها، لكي لا تؤدي إلى تقويض المؤسسات الاجتماعية والأسس الأخلاقية.

وفي مطلع عام ٢٠٠٠م، أُعلن عن فكِّ شفرة الخارطة الجينية؛ وهو إنجاز علمي جعله كثير من العلماء بنفس أهمية الإنجاز العلمي الذي حقَّقه الإنسان عندما حطَّ بقدمه على سطح القمر عام ١٩٦٩م. ويُنتظر أن يفتح فك هذه الشفرة المجال واسعاً أمام تطورات كبيرة في الهندسة الوراثية وتشخيص ومعالجة كثير من الأمراض، ولكن ربَّما العبث بالأسس والمبادئ الأخلاقية أيضاً[(١)].

وبعد هذا التمهيد أقول: لم تُعط قضية الاستنساخ في الحضارة العربية الإسلامية أي اهتمام في أوساطنا العربية والإسلامية، مع أنَّها ذُكرت في عدد من كتب حضارتنا منذ قرون طويلة، وهذا أمر يثير الغرابة.

---

(١) الموسوعة العربية العالمية، الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، موضوع: الاستنساخ، الهندسة الوراثية.

فمن الذين تحدَّثوا عنها: جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي الأزدي الصوفي (أبو موسى) (اختُلف في تاريخ وفاة جابر، ونستطيع القول أنَّه عاش تقريباً في المدة ما بين ١٠١ - ٢٠٠هـ / ٧٣٧ - ٨١٣م).

هذا العالم الذي تنوَّعت أعماله وتعدَّدت، ويتجاوز المعروف منها الأربعة والخمسين مؤلَّفاً، بالإضافة إلى ما فُقد ولم يصل إلينا، وكانت كتبه أهم مصادر الدراسة الكيميائية وأكثرها تأثيراً في أوروبا العصور الوسطى، وقد انتقلت عدَّة مصطلحات علمية عربية من مؤلَّفاته إلى اللغات الأوروبية، وقال عنه الفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون: «إنَّ جابر بن حيان هو أول من علَّم علم الكيمياء للعالم، فهو أبو الكيمياء».

ولذلك سمَّى العرب الكيمياء عامَّةً (صنعة جابر) إشارة إلى أنَّ جابر بن حيان هو أول من زاولها[١].

وقد قرأت مرة في دائرة المعارف الإسلامية عن جابر بن حيان، فلفت انتباهي سطر مكتوب فيه أنَّ جابراً كان يؤمن بالتوالد الذاتي[٢]، فأثار هذا الحديث استغرابي وحفيظتي في الوقت نفسه، ثم وقع بين يدي عدد من مجلة علم وعالم، وعند تصفُّحي لأوراق تلك المجلة وقع نظري على بحث للدكتور عكاشة الدالي[٣]، وما أثار دهشتي ما ذكره الدكتور من أنَّ جابر بن حيان: «كان أول من تحدَّث عن الاستنساخ»، وعندما سُئل: كيف ذلك؟ قال: «تحدَّث جابر عن كيفية إنشاء فأر من خلية توضع في التراب لمدة معيَّنة، ثم يُولد من هذا الإنشاء فأرٌ كامل»[٤].

(١) انظر في ترجمة جابر: الفهرست: مُحَمَّد بن النديم، سوسة، تونس، دار المعارف، ص٤٩٨-٥٠٠. إخبار العلماء بأخبار الحكماء: علي بن يوسف القفطي، القاهرة، مكتبة المتنبي، ص١١١-١١٣. معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ج١، ص٤٦٩. المسلمون والعلم الحديث: عبد الرزاق نوفل، دار الكتاب العربي، بيروت، ص٤٩-٥١.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت، ج٦، ص٢٣٠.

(٣) أكَّد لي الدكتور عكاشة الدالي على ذلك لمَا التقيته في المؤتمر الدولي التاسع لتاريخ العلوم عند العرب.

(٤) مجلة علم وعالم: العدد (١٨) تاريخ ١-١٢-٢٠٠٤م، ص٢١.

وقبل طرح هذه القضية بشكل علمي ورسمي، جهدت في البحث عن مصدر هذه المعلومات، وإذا بكلام الدكتور عكاشة كلام سليم، فبالفعل لقد آمن جابر بن حيان بالتوالد الذاتي وبالاستنساخ، إذ ذكر ذلك في كتبه الآتية: (التجميع) و(إخراج ما في القوة إلى الفعل) و(السبعين) و(السر المكنون) و(كتاب التصريف) و(كتاب الميزان الصغير).

وقد اعتمدت في هذه القضية على مختارات لعالم غربي هو (باول كراوس) اختارها من كتب جابر المذكورة آنفاً، وهي مجموعة من رسائل حققها ونشرها للمرة الأولى سنة ١٩٣٥م.

وأُنبِّه أنَّ جابراً كان يسمي الاستنساخ بـ (التكوين) أو (التوليد) أو (التَّعفين).

وقد ركَّز ابن حيان على إمكانية خلق إنسان يتمتع بصفات وراثية معينة، وأشار إلى إمكانية خلق إنسان بصفات عقلية معينة وخلق إنسان بصفات شكلية معينة، بل إنَّه تجاوز ذلك إلى القول بإمكانية خلق إنسان بجناحين.

ومهَّد جابر الحديث عن عملية الاستنساخ البشري بقوله: «فأمَّا قولنا في المثال في تكون الحيوان خاصة فأن ينظر إلى الإنسان الذي يراد تكوين مثله أو أي شيء أُريد من الحيوان، فلتؤخذ قوة فهمه أولاً... ثم بعد ذلك الذي ينبغي أن يقوَّم هو الجسم الذي عليه العناصر».

ويشير جابر أنَّه يمكننا بوساطة هذه العملية أن ننقل بدن جارية، ووجه رجل، أو عقل وجسم صبي، وأن نغيِّر ما نُريد من جسم الإنسان بوساطتها.

أما كيفية القيام بالعمل وأدواته، فيقول جابر عنها: «ثم تتخذ آلة من زجاج أو بلور أو حجارة أو لون من الألوان والزجاج أجودها إذا عُملت منه في ثخن الإصبع وإن أُريد أن تجعل أنقص في الطول والعرض أو أكثر فُعِل».

ثم يشترط مراقبة أيام العملية لأيام محددة، إذ يقول: «وإيَّاك أن تكون قليل المعرفة بتمام الأيام فتنقصها أو تزيدها فيتلف ذلك الشي المتكون».

ولعلَّ الذي يجعلنا متأكِّدين بأنَّ ابن حيان كان متأكداً من صحة هذه المعلومات وحقيقة استنساخ الإنسان المشابه هو قَسمه بأنَّه إذا ما اتَّبعت الشروط في عملية التحضير «فإنَّه يخرج . وحق سيدي أحسن من كل شخص في العالم وأتمَّه»(١).

وهناك تفاصيل كثيرة واستفاضات مثيرة ذكرها جابر عن هذه القضية(٢).

وأرجو أن يكون بحثي هذا عن الاستنساخ في الحضارة العربية الإسلامية فاتحة أبحاث تأتي بعده، وتُفصِّل في هذه القضية، وأن يتولَّى مهمَّة ذلك المتخصِّصون بالاستنساخ، كي تُعطى هذه القضية صفة العلمية والأكاديمية والمنهجية والمصداقية.

ثانياً _ الكندي مؤسِّس علم الشيفرة والتَّشفير:

اشتُهر الكندي في علوم كثيرة، وكُتب عنه وعنها كثيراً، لكن إبداعاً كبيراً ومؤثِّراً من إبداعاته لم يُنتبه إليه؛ وهو أنَّه عالم شيفرة ومؤسِّس علم الشيفرة والتَّشفير الذي كان العرب يسمُّونه: علم التعمية واستخراج المعمَّى، وهو العلم الذي يُعتمد عليه في كل دولة اليوم.

---

(١) مختار رسائل جابر بن حيان، تح: باول كراوس، مكتبة المثنى، بغداد، ص٣٤٢ - ٣٤٩.

(٢) انظر تفاصيل ذلك في مخطوطات جابر الآتية: ١_ كتاب إخراج ما في القوة إلى الفعل: ١ - ٩٦، على حسب المخطوط الوحيد المحفوظ بدار الكتب المصرية رقم (٣م) قسم الكيمياء والطبيعة. ٢_ كتاب السر المكنون: ٣٣٣ - ٣٤٠ على حسب مخطوط باريس تحت رقم (٥٠٩٩). ٣_ كتاب التجميع: ٣٤١-٣٩١ على حسب المخطوط الوحيد المحفوظ في المكتبة الوطنية في باريس تحت رقم (٥٠٩٩). ٤_ كتاب التصريف: ٣٩٢ - ٤٢٥ على حسب المخطوط الوحيد المحفوظ في المكتبة الوطنية في باريس تحت رقم (٥٠٩٩). ٥_ كتاب الميزان الصغير: ٤٢٥ - ٤٥٩ على حسب المخطوط الوحيد المحفوظ في المكتبة الوطنية في باريس تحت رقم (٥٠٩٩). ٦_ كتاب السبعين: حسب مخطوط أحمد تيمور باشا المحفوظ في دار الكتب المصرية، و مخطوط آخر محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم (٧٣١خ) علوم طبيعية، ومخطوط آخر محفوظ في وقف جار الله من مكتبة استانبول تحت رقم (١٥٥٤). وكل ذلك بالاعتماد على كتاب: مختار رسائل جابر بن حيان للمستشرق باول كراوس. وانظر كذلك جابر بن حيان: زكي نجيب محمود، مؤسسة البلاغ، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م، ص١٥٧ - ٢٣٢. جابر بن حيان: رحاب عكاوي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص١٢٨ - ١٣٥.

فلقد كتب عدَّة علماء من علماء الحضارة العربية الإسلامية عن الشيفرة والتَّشفير، لكنَّ من حوَّل هذه القضية إلى علم هو الكندي، فهو أول من وضع أسَّس علم التَّعمية ومبادئه، وهو يعقوب بن إسحق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن مُحَمَّد بن الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي، أبو يوسف، فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها، وُلد بالكوفة، وكان أبوه أميراً عليها في عهد الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ – ١٦٩هـ / ٧٧٥ – ٧٨٥م)، ثم نشأ بالبصرة وانتقل منها إلى بغداد حيث تعلَّم وحصَّل العلوم، فبرع في الطب والفلسفة والموسيقا والهندسة والفلك، وحاز مكتبة كبيرة سُمِّيت بالكندية، حيث ألَّف وترجم وشرح كتباً كثيرة زادت على الثلاثمائة، وهذا ما دفع النديم ليقول عنه: «فاضل دهره وأوحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها»(١).

ونأتي إلى رسالة الكندي في علم التَّعمية واستخراج المعمَّى؛ هذه الرسالة التي تعدُّ من أقدم ما وصل إلينا من آثار في علم التَّعمية واستخراج المعمَّى، إذ يعود تأليفها إلى أوائل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وقد استكملت أسباب التأليف العلمي المنهجي في هذا الفن عمقاً وشمولاً فأبرزته علماً قائماً بذاته له أصوله وطرائقه المختلفة، والمهم أنَّه مع ظهور هذه الرسالة كانت ولادة علم جديد يدعى علم التَّعمية واستخراج المعمَّى.

ولا شكَّ أنَّ سعة إطلاع الكندي وتنوع موارده وإدارته لبيت الحكمة أعظم صرح ثقافي عرفته الحضارة العربية الإسلامية، كل ذلك آتى أكله في هذه الرسالة العظيمة التي غدت المرجع الأول لمبدعي هذا العلم بعد الكندي كابن دنينير وابن الدريهم.

---

(١) انظر عنه الفهرست: النديم، ص٣٥٧-٣٦٥. طبقات الأطباء والحكماء: سليمان بن جلجل، تح: فؤاد سيد، ط٢، ١٩٨٥م، ص٣٣٧. إخبار العلماء بأخيار الحكماء: القفطي، ص٢٤٠-٢٤٦. عيون الأنباء في طبقات الأطباء: أحمد ابن القاسم بن أبي أصيبعة، تح: نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة، ص٢٨٥-٢٩٣. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: قدري طوقان، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٤م، ص١٣٧-١٤٧. معجم المؤلفين: كحالة، ج٤، ص١٢٥، ١٢٦.

وقد كانت هذه الرسالة خبيئة مجهولة لا تطالها الأيدي ولا تذكرها المراجع، حتى كبير مؤرِّخي علم التَّعمية دافيد كهن لم يعلم عنها شيئاً ولم يشر إلى وجودها مطلقاً، إلى أن اكتشفها محققو كتاب (علم التَّعمية) في المكتبة السليمانية باستنبول عام ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م، ونهضوا بتحقيقها فكانت عاملاً مهمَّاً وأساسياً في تحقيق تاريخ علم التَّعمية واستخراج المعمَّى عند العرب، وتصحيح ما شاب هذا التاريخ من أخطاء لدى الكُتَّاب الغربيين[(١)].

استهلَّ الكندي رسالته بمقدمة أظهر فيها أنَّه قام بإنجاز هذا العمل تلبية لرغبة الخليفة العباسي[(٢)]، وبيَّن فيها عمله بها بقوله: «فهمت. فسح الله فهمك ووفر علمك. ما أمرت برسمه في كتاب مما توجد به الحيلة إلى استخراج ما رُسم في الكتب المعمَّاة، واختصار ذلك في وجيز القول»[(٣)].

وقد أتى فيها على ذكر كل ما يتعلق بعلمي التَّعمية واستخراج المعمَّى على نحو يحيط بالموضوع من أطرافه وينفذ إلى خفاياه وأسراره، كل ذلك بتركيز واضح وترتيب حسن.

ويمكننا تقسيم هذه الرسالة إلى خمسة فصول: سبل استخراج المعمَّى. أنواع التَّعمية العظام. مناهج استخراج بعض أنواع التَّعمية. دوران الحروف ومراتبها في اللغة العربية. اقتران الحروف وامتناعه من اللغة العربية.

---

(١) انظر علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب (دراسة وتحقيق: لرسائل مخطوطة في التعمية): محمَّد مراياتي، يحيى ميرعلم، محمَّد حسان الطيان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ط١، ١٩٩٧م، ج١ ص ١٠٦، ١٠٧. تطور المفتاح في منظومة التعمية عند العرب: نضال يعقوب، أطروحة دكتوراه، جامعة حلب، ١٩٩٧م، ص٢١.

(٢) وهو أحمد بن محمَّد بن المعتصم بن هارون الرشيد، أبو العباس.

(٣) علم التَّعمية واستخراج المعمَّى عند العرب: مراياتي وآخرون، تحقيق رسالة الكندي في المعمَّى، ج١، ص٢١٣.

ودراسة هذه الرسالة دراسة موضوعية متعمِّقة توصلنا إلى أنَّ الكندي هو أبو التَّعمية واستخراج المعمَّى في العالم، إذ كتب أول مخطوطة عُرفت في التاريخ في هذا العلم وذلك في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، أي قبل سبعة قرون من وضع أول مخطوطة في الغرب في علم التَّعمية من قبل (ألبرتي) الذي كتب رسالته المؤلفة من ٢٥ صفحة سنة ٨٧١هـ / ١٤٦٦م باللغة اللاتينية، والذي يُعد أبا التَّعمية في الغرب، بينما ينسبها الألمان إلى (تريثمس) الذي وضع كتابه (Polygraphia) سنة ١٥٠٨م / ٩١٤هـ.

ولم يكن الكندي واضع علم التَّعمية واستخراج المعمَّى فحسب، وإنَّما كان أول من وضع أُسسه المهمَّة الآتية:

- التفريق الواضح بين طرق التَّعمية الأساسية: الإبدال، والقلب، وغيرها وإرجاع مختلف الطرق لواحدة منها.
- توضيح المراد بالتَّعمية المركبة.
- وضعه لطرائق تحليلية ومنهجية لاستخراج المعمَّى، وذلك باستعمال تواتر الحروف في اللغة ومراتبها.
- اعتماده تواتر الثنائيات عند استخدام اقتران الحروف مع بعضها، أو امتناعه بالتقديم والتأخير.
- استعمال فكرة الكلمة المحتملة.
- إجراء إحصائيات عملية على تواتر الحروف باللغة العربية، والإشارة إلى مبادئ ذلك في كل اللغات.
- الفهم الواضح لطبيعة الحروف.
- وضع جداول وإحصائيات دقيقة لتواتر الحروف وتواتر الثنائيات، وما يقترن وما لا يقترن من الحروف بعضها مع بعض، يمكن الأخذ بها حتى أيامنا المعاصرة[(١)].

(١) انظر علم التَّعمية واستخراج المعمَّى عند العرب: مراياتي وآخرون، ج١ص١٠-١٣٨، ص٢١١-٢٥٥. تطور المفتاح في منظومة التَّعمية عند العرب: نضال يعقوب، ص٢١-٥٦، وفيهما تفاصيل كل ما تحدَّثنا عنه.

ولا بدَّ هنا أن نذكر شهادة (دافيد كهن) عالم الغرب الأول في العلم الذي نتحدَّث عنه، يقول: «وُلد علم التَّعمية بشقَّيه بين العرب، فقد كانوا أول من اكتشف طرق استخراج المعمَّى»(1).

وحينما قال: «طوَّر المسلمون المعرفة في استخراج المعمَّى، تنمُّ على ممارستهم العملية لاعتراض المراسلات واستخراج تعميتها، وذلك على الرغم من تشكيك بعض الباحثين في ذلك، وبما أن التراث الإسلامي المخطوط لا يزال غير مكتشف في معظمه فقد يُحصِّل الباحث فيه اكتشافات جديرة بالتقدير».

وقوله: «اطَّلعت على مقال نشر في مجلة الدراسات السامية ... بيَّن المقال أنَّ العرب مارسوا استخراج المعمَّى قبل الغرب بزمن طويل، ووفَّر لي ما أعدُّه أكبر فتح تاريخي في كتابي كله»(2).

إذن حقَّق الكندي لتاريخ البشرية فتحاً علمياً كبيراً وليس ثانوياً، مما يدفعنا إلى استغراب إهمال تناول هذا العِلم عند هذا العالِم الكبير.

ثالثاً _ إبداعات الجاحظ في علم الحيوان التي نُسبت إلى علماء العصر الحديث:

اشتُهر الجاحظ كثيراً كعالم في الأدب والبلاغة وعلوم العربية، واشتُهر بشكل أقل كمهتم بعلم الحيوان، وألَّف في ذلك، لكن تسليط الضوء على الجاحظ كرائد في قضايا جوهرية تتعلق بعلم الحيوان جاء ضعيفاً.

فهو عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري، عاش تقريباً فيما بين ١٥٠ - ٢٥٠هـ / ٧٦٧ - ٨٦٩م، فعاصر بذلك هارون الرشيد وأولاده، وكانت ولادته في البصرة من العراق(3).

(1) The Code Breakers, David Kahn, New york, 1976, P 93

(2) Kahn On Codes; David Kahn, New york, 1983, P 284- 41.

(٣) انظر في ترجمة الجاحظ تاريخ بغداد: أحمد بن علي البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتب العلمية، ج١٢، ص٢٢٠. معجم الأدباء: ياقوت الحموي، تح: عمر الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف، ط١، ==

إنَّ الجاحظ وإن كان على رأس قائمة الأدباء والشعراء والفلاسفة، إلا أنه كان رائداً من روَّاد المنهج العلمي، وإبداعات كثيرة تلك التي أبدعها عقله في علم الحيوان ونُسبت إلى غيره، وقد وردت جميعها في كتابه (الحيوان)، هذا الكتاب الذي يعد أشبه ما نسمِّيه في العصر الحاضر بدائرة معارف، إذ سرد فيه الجاحظ كل ما ورد منشوراً في موضوعه بعينه، وزاد على هذا ما سمع من العلماء، وما وعته ذاكرته، مع العلم أنه لم يقرأ للعلماء العرب وحسب، وإنما كان يقرأ للعلماء اليونان من أمثال أرسطوطاليس ومعلمه أفلاطون، وأبقراط، وبطلميوس، وجالينوس، فقد ورد ذكر هؤلاء في كثير من مواضع هذا الكتاب.

تكلَّم الجاحظ في هذه الموسوعة على طبائع الحيوانات من الدواب والطير والحشرات، ووصف سلوكها وعاداتها، وأورد كذلك فيها طائفة من المعارف والمسائل الفلسفية، وتحدَّث في سياسة الأقوام والأفراد، كما تضمن الكتاب كثيراً من المسائل الجغرافية في خصائص البلدان، وفي تأثير البيئة وعواملها في الإنسان والحيوان، وأشار إلى مسائل في الطب وأمراض الإنسان والحيوان وطريقة علاجها، هذا إلى جانب كثير من القصص والملح والنوادر.

واعتمد في تأليفه لهذا الكتاب على مصادر مهمة كالقرآن الكريم والحديث الشريف وشعر العرب وأخبارهم الصحيحة، كما اعتمد على ما أُلف قبله من كتب.

وأجمل ما في هذا الكتاب إبانة الجاحظ فيه حكمة الله عز وجل في خلق الحيوانات، إذ كان هدفه الواضح من تأليفه لهذا الكتاب هو تمجيد الخالق سبحانه

١٩٩٩م، ج٦، ص٥٢-٨٢. وفيات الأعيان: أحمد بن مُحَمَّد بن خلكان، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ط٢، ١٩٦٦م، ج٣، ص٤٧٠-٤٧٥. الجاحظ: فوزي عطوي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٩م، ص١١-١٩. مقدمة كتاب البخلاء: عمرو بن بحر الجاحظ، دار المدى، ط٢، ١٩٦٣م، ص٩-١٢.

وتعالى، من خلال عجائب مخلوقات الحيوانات، فلم يقف عند طبائعها، بل أوضح حكمة الله تبارك وتعالى في خلقها(١).

ونأتي إلى ممارساته المنهجية التي أبدع من خلالها أسبقيات نُسبت إلى عدد من علماء الغرب، وهي كثيرة ورائدة ورائعة.

ومنها التهجين، إذ يدخل التهجين في علم الوراثة الذي هو انتقال الصفات من السلف إلى الخلف، ففي قولنا: إن الابن قد ورث أنف أبيه، وخلق خاله، ورزانة عمه، مما يفيد أنه يشبه هذا أو ذاك النسيب في بعض ملامحه أو سجاياه.

ويُخَيَّل لكثير من الناس أن الوراثة علم حديث لم يعرف الأوائل عنه شيئاً، وهذا الزعم باطل، فقد خلق الإنسان بحّاثاً عن كل ما هو مجهول لديه، وقد رأى الأبوان ولدهما وهو أقرب الناس إليهما وأكثرهم صلة بهما، منهما تولد وهما كوناه، وربي في أحضانهما وترعرع في بيتهما يشبههما في الصفات والطباع والأخلاق والميول، وعندما تعجَّب الإنسان من هذا الشبه، شرع في التنقيب عن أسبابه وأسراره(٢).

أما صاحب السبق في البحث في علم التهجين والنتاج المركب، فهو الجاحظ الذي عُدَّ من خلال كتابه (الحيوان) أول من بحث في هذا العلم علمياً على وجه الإطلاق، إذ عالجه في هذا الكتاب معالجة علمية مفصلة.

ولقد نُسب هذا العلم إلى العالم النمساوي (غريغوري مندل) الذي توفي عام ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤م، أي بما يقارب ألف عام بعد الجاحظ.

---

(١) ومما يستوقف النظر في قضية كتاب الحيوان للجاحظ، أن الكُتّاب الغربيين الذين أرَّخوا للعلم لم يشيروا إلى الجاحظ بوصفه عالماً، مع العلم أنَّ كتابه هذا مشحون بالمشاهدات الصادقة، التي إن دلت على شيء فإنّما تدل على صفاء ذهن صاحبها ومقدرته الفائقة.

(٢) مجموعة أبحاث عن العلوم الطبيعية في الحضارة العربية الإسلامية: أحمد شوكت الشطي، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٤م، ص٧٠، ٧١.

ففي كتابه (الحيوان) تحدَّث الجاحظ عن موضوع التهجين، ومن أخباره المنقولة عن ذلك قوله: «قالوا: قد وجدنا غُرمول البغل أطول من غرمول الحمار والفرس والبرذون، وهؤلاء أعمامه وأخواله، فقد وجدنا بعض النِّتاج المركَّب، وبعض الفروع المستخرجة أعظم من الأصل، ووجدنا الحمام الراعبي (الحمامة الراعبية، ترعب في صوتها ترعيباً، وذلك قوة صوتها) أعظم من الورشان الذي هو أبوه، ومن الحمامة التي هي أمه، ولم نجده أخذ من عمر الورشان شيئاً، وخرج صوته من تقدير أصواتهما، كما خرج شحيج البغل من نهيق الحمار وصهيل الفرس، وخرج الراعبي مُسرولاً ولم يكن ذلك في أبويه، وخرج مثقلاً سيئ الهداية، وللورشان هداية، وإن كان دون الحمام، وجاء أعظم جثة من أبويه، ومقدار النفس من ابتداء هديله إلى منقطعه، أضعاف مقدار هديل أبويه»[1].

ويتحدَّث في موضع آخر عن خضوع النتاج المركب للطبيعة، فيقول: «ولو كان أمر النتاج وما يحدث بالتراكيب ويخرج من التزاويج، إلى تقدير الرأي وما هو أقرب إلى الظن، لكانت الأظلاف تجري مجرى الحوافر والأخفاف، ألا ترى أن قرابة الضأن من الماعز، كقرابة البُخت من العراب، والخيل من الحمير!!.

وسبيل نتائج الظلف على خلاف ذلك، لأن التَّيس ـ على شدة غُلمته ـ لا يعرض للنعجة إلا بالقليل الذي لا يذكر، وكذلك ما يحدث بينهما من الولد كذلك، إمَّا ألَّا يتم خلقُه، وإمَّا ألا يعيش، وكذلك الكبش والعنز فضلاً عن أن يكون بينهما نتاج لأنه قد يضرب الجنس في الجنس الذي لا يُلْقحه، ولا يكون اللقاح بعد ضراب.

وطلب التيس للنعجة قليل، وأقل من القليل، وكذلك الكبش للعنز، وأقل من ذلك أن تتلاقح ولا يبقى ذلك الولد البتة»[2].

(١) الحيوان: عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م، ج١، ص١٣٧ - ١٣٩.

(٢) الحيوان: الجاحظ، ج١، ص١٤٢.

ويتحدَّث الجاحظ عن النتاج المركب في الطيور، فيقول: «وأنا رأيت طائراً له صوت غير حسن، فقال لي صاحب الطيور: إنه من نتاج ما بين القُمري والفاختة»[١].

وكان للجاحظ السبق في قضية أخرى هي نظام التكافل بين الحيوانات، إذ عُدَّ العالم الفيلسوف الألماني الكبير (جوهان جيته: ت ١٨٣٢م / ١٢٤٨هـ) أباً لعلم المشاركة و التكافل بين الحيوانات (Symbiois)، وذلك لمجرد عبارة عارضة وردت في مؤلفه «فاوست» ومضمونها «إن روحين يسكنان صدري».

وبعد بحثي في كتاب الحيوان للجاحظ ثبت لي أنَّ الجاحظ هو المؤسس الحقيقي لعلم التكافل بين الحيوانات، إذ خطَّ في موسوعته هذه عبارات وتحاليل كثيرة تثبت ما نقول، وسأختار نماذج من ذلك تُثبت الحقيقة.

يقول الجاحظ: «وزعمت العرب أنَّ الضب يُعد العقرب في جحره، فإذا سمع صوت الحرش استشعرها فألصقها بأصل عجب الذنب من تحت وضم عليها، فإذا أدخل الحارش يده ليقبض على أصل ذنبه لسعته العقرب»[٢].

وفي مثال آخر يتحدث الجاحظ عن الوُد والعون الذي يقدمه الذئب للضباع، فيقول عن ذلك: «إنَّ الضبع إذا هلكت قام بشأن جرائها الذئب»، ويقول: «لكثرة ما بين الذئاب والضباع من التسافد قد يظن الذئب أن أولاد الضبع أولاده»[٣].

ومن صور المودة بين الحيوان أيضاً، ما ذكره الجاحظ من أنَّ العصفور يلجأ في شدَّة الحر إلى جحر الضب، يقول: «وإذا وصفوا شدَّة الحر، وصفوا كيف يوفي الحرباء على العود والجذل (أصل الشجرة) وكيف تلجأ العصافير إلى جحر الضب من شدة الحر»[٤].

---

(١) الحيوان: الجاحظ، ج١، ص ١٤٤.

(٢) الحيوان: الجاحظ، ج٦، ص٥٩،٥٨.

(٣) الحيوان: الجاحظ، ج٦، ص٣٩٨.

(٤) الحيوان: الجاحظ، ج٥، ص٢٣٢،٢٣١.

وكان للجاحظ السبق في قضية أخرى هي مشاعر الحيوانات إذ تابع حياة الحيوان بالملاحظة والمحاكمة والمقارنة الجاحظ، وبيَّن حياة الحيوانات وطريقة عيشها وغذائها وتكاثرها، فوصفها وراقبها وسجل كل ما يتعلق بها وما يأتي عنها.

وكان أكثر الحيوانات التي تحدث عنها: الضب، والخنفساء، والسمك، والأسد، والفيل، والحية، وكثيراً ما كان يحاول أن يجعل الحيوان يعبر عن أفكاره، فيجعله يتكلم ويبدي رأيه، وأحياناً يغدر، أو يكذب، أو يقسو قلبه، بل توصل الجاحظ أيضاً إلى وصف الحيوان بصفات الكرم، إلى غير ذلك من الصفات النفسية.

والغريب أنَّ الأسلوب نفسه اتَّبعه الشاعر الفرنسي الشهير (لافونتين) في القرن السابع عشر الميلادي / الحادي عشر الهجري، فكان لأسلوبه هذا قيمة أدبية كبيرة في عصر مادتي الأدب والتربية.

وعندما تحدَّث لافونتين الذي أتى بعد الجاحظ بأكثر من ثمانية قرون عن الحيوانات، وأن لها رأياً وأنها أحياناً تغدر أو تكذب أو تصدق، صار العالم يتفنن بهذه الأفكار الجديدة، والتي ـ للحقيقة ـ استقاها لافونتين من إنتاج الجاحظ الذي يوجد معظمه في بلاد الغرب إن لم يكن كل إنتاجه العلمي والأدبي، وتعتز مكتبات أوروبا بالاحتفاظ به[1].

فيخبرنا الجاحظ عن نطق الدجاجة، ويقول في ذلك في معرض حديثه عن الدجاج: «ويوصف بالدعاء والمنطق، قال لبيد بن ربيعة:

وصَّدهم منطِقُ الدجاج عن القصـ ... د وضَـــربُ النـــاقوسِ فاجتنبـــا»[2]

---

(١) إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان: مُحَمَّد عبد الله الدفاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦م ، ص٧٧-٨١.

(٢) الحيوان: الجاحظ، ج٤، ص٣٥٧.

ويقول عن التكبُّر عند الحيوانات: «ومما يوصف بالكبر الثور في حال تشرقه، وفي حال مشيته الخيلاء في الرياض ... ومما يوصف بالكِبر الجمل الفحل»[(١)].

ويتكلَّم على صفة قساوة القلب عند الحمام الطائر، فيقول: «الحمام الطائر لئيم قاسي القلب، وإن برَّ بزعمكم ولدَ غيره، وصنع به كما صنع بفرخه، وذلك أنهما يحضنان كلَّ بيض ويزقان كل فرخ، وما ذاك منهما إلَّا في الفرط».

ثم ينبئنا عن لؤم الحمام، قائلاً: «فأمَّا لؤمه فمن طريق الغيرة، فإنَّه يرى بعينه الذَّكر الذي هو أضعف منه، وهو يطرُدُ أنثاه ويكسح بذنبه حولها، ويتطوس (يتزين) لها، ويستميلها، وهو يرى ذلك بعينه، ثم لم نر قط ذَكراً واثَبَ ذكراً عند مثل ذلك».

ويقول: «وباب آخر من لؤمه: القسوة، وهي الأم اللُّؤم، وذلك أنَّ الذكر ربما كان في البيت طائر ذَكر قد اشتدَّ ضعفه فينقر رأسه والآخر مستخذٍ له، قد أمكنه من رأسه خاضعاً له، شديد الاستسلام لأمره، فلا هو يرحمه لضعفه وعجزه عنه، ولا هو يرحمه لخضوعه، ولا هو يمل، وليس عنده وِتر، ثم ينقر يافوخه حتى ينقب عنه، ثم لا يزال ينقر ذلك المكان بعد النقب حتى يخرج دماغه فيموت بين يديه»[(٢)].

رابعاً _ قوانين الحركة هل هي لنيوتن أم لعلماء حضارتنا؟:

قوانين نيوتن للحركة هي ثلاثة قوانين فيزيائية تشكل علم حركة الأجسام، وتربط هذه القوانين القوى المؤثرة على الجسم بحركته، وقد استخدم هذه القوانين في تفسير العديد من الأنظمة والظواهر الفيزيائية.

ولنا أن نشك ونسأل: هل كان نيوتن بالفعل أول من تكلَّم على هذه القوانين؟

بالرجوع إلى علماء الحضارة العربية الإسلامية في الفيزياء نجد أنفسنا أمام عدد من العلماء تكلموا على هذه القوانين قبل نيوتن بقرون طويلة، وسأكتفي هنا بالحديث عن اثنين منهما لضيق المساحة هنا.

(١) الحيوان: الجاحظ، ج٦، ص٦٩.

(٢) الحيوان: الجاحظ، ج٣، ص٢٥٣ ـ ٢٥٥.

وأولهم الطبيب الشهير ابن سينا (الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي البخاري، توفي عام ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧م)(١).

تكلم ابن سينا في عدد من كتبه على الحركة وعناصرها، فعرض في كتابه «الشفاء» في المقالة الثانية من الفصل الأول أموراً ستة تتعلق بالحركة، ويوردها على أنها : المتحرك، والمحرك، وما فيه، وما منه، وما إليه، والزمان، فالمتحرك أي الجسم الذي يتخذ حال الحركة، ثم المحرك أي الدافع إلى الحركة، يلي ذلك ما فيه الجسم أي مكانه أو موضعه، أما العنصران الرابع والخامس «ما منه» و«ما إليه» فيقصد بهما الابتداء والانتهاء، ويقصد بالعنصر الأخير الزمان، أي الفترة الزمنية التي تتم فيها الحركة بقطع مسافة الانتقال، وقسمة المسافة المقطوعة على الزمان يعطي متوسط سرعة الحركة.

وهذا التمهيد غايته أن نصل إلى إبداع ابن سينا لما يُسمى «القانون الأول للحركة»، ويقول هذا القانون إنّ الجسم يبقى في حالة سكون، أو في حالة حركة منتظمة على خط مستقيم، ما لم تجبره قوى خارجية على تغيير هذه الحالة، أو بعبارة أخرى فإن للجسم خاصية «المدافعة» عن بقائه على حالة من السكون، أو من حركة منتظمة على استقامة، وهذه المدافعة هي الخاصّة التي نشير إليها في كتبنا المعاصرة بالقصور الذاتي أو بالعطالة.

ونسوق بعد هذا الشرح للقانون الأول للحركة قول ابن سينا فيه بلفظه في كتابه الإشارات والتنبيهات في الفصل السادس، يقول: «إنك لتعلم أن الجسم إذا خلى

---

(١) انظر في ترجمة ابن سينا: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص٤٣٧ - ٤٥٩ . تاريخ مختصر الدول: غريغوريوس الملطي، المعروف بابن العبري، ص٥٥، ٧٧، ١٧٦، ١٨٧، ١٨٩، ٢٤٠. وفيات الأعيان: ابن خلكان، ، ج٢، ص١٥٧ - ١٦٢. الوافي بالوفيات: خليل بن أيبك الصفدي، اعتناء هلموت ريتر، دار فرانز شتاينر، ط٢، ١٩٦٢م، ج١٢، ص٣٩١ - ٤١٢. دور العرب في تقدم علوم الطب: أمجد الهندي، دار سعاد الصباح، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ٧٣، ٧٤. أعلام العرب والمسلمين في الطب: علي عبد الله الدفاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ١٣٨ - ١٤٤. تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة: مُحَمَّد زهير البابا، جامعة دمشق،١٩٨٦م، ص١٥٢، ١٥٣.

وطباعه، ولم يعرض له من الخارج تأثير غريب، لم يكن له بد من موضع معين وشكل معين، فإذن في طباعه مبدأ استيجاب ذلك».

وفي هذا النص يبدو بوضوح أن ابن سينا يقول: إن الجسم إذا لم يتعرض لتأثير خارجي وتُرك لطبعه، فإن فيه خاصّة تدعو للمحافظة على حالته الطبيعية، وتدافع عن بقائه على ما هو عليه.

ويقول ابن سينا في موضع آخر من المقالة الرابعة في كتابه الشفاء: «وليست المعاوقة للجسم بما هو جسم، بل بمعنى فيه يطلب البقاء على حاله من المكان أو الوضع، وهذا هو المبدأ الذي نحن في بيانه».

وتأكيداً على الشرح يذكر ابن سينا شرحاً لطبيعة مدافعة الجسم عن استمرار حاله، حيث يقول بعد استعراضه للآراء المطروحة في سبب حركة الجسم المقذوف (المتحرك):« ولكننا إذا حققنا القول وجدنا أصح المذاهب مذهب من يرى أن المتحرك يستفيد ميلاً من المحرك، والميل هو ما يحس بالحس إذا ما حوول الطبيعي أن يسكن الطبيعي بالقسر، أو القسري بالقسر».

أي إن الجسم يكون له حال تحركه ميل للاستمرار في حركته، بحيث إنه إذا حوول إيقافه أحس الموقف بمدافعة يبديها الجسم للإبقاء على حاله من الحركة سواء كانت هذه الحركة طبيعية أو قسرية [1].

---

(١) انظر كتاب الشفاء (الطبيعيات): الحسين بن سينا، تح: محمود قاسم، دار الكاتب العربي، القاهرة، ص١ ـ ٥. مجلة الفيصل، العدد (١٥٠)، ص ٤٣، ٤٤. أعلام الفيزياء في الإسلام: علي الدفاع، جلال شوقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م، ص١٩٥ـ١٩٧. أعلام العرب والمسلمين في الطب: الدفاع، ص١٤٧، ١٤٨. ابن سينا: أرثور سعدييف، ترجمة توفيق سلوم، دار الفارابي، ١٩٨٧م، ص١٥٤ـ٢٠٠. وهذه النصوص وغيرها تؤكد سبق ابن سينا إلى القانون الأول للحركة قبل ليوناردو دافنشي بأكثر من أربعة قرون، وقبل جاليليو (ت ١٦٤٢م / ١٠٥٢هـ) بأكثر من خمسة قرون، وقبل إسحق نيوتن (ت ١٧٢٧م / ١١٤٠هـ) بأكثر من ستة قرون.

والعالم الثاني هو هبة الله بن علي بن ملكا البغدادي (٥٦٠ هـ / ١١٦٥م)[1]: إذ جاء في كتابه: «المعتبر في الحكمة» وهو مخطوط في تركيا في مكتبة أحمد الثالث (رقم ٣٢٢٢، مج٢، ف١٤، الورقتان: ٤٧، ٤٨) جاء فيه نصوص هامة تختص بحركة الأجسام، ومنها ذكر القانون الأول في الحركة والسكون، ومن أقوال ابن ملكا التي وردت في هذا السياق: «فإن الحركة إما طبيعية وإما قسرية، والقسرية تتقدمها الطبيعة، لأن المقسور إنما هو مقسور عن طبعه، إلى طبع قاسره، فإذا لم يكن حركة بالطبع لم يكن حركة بالقسر، والطبيعة إنما تكون عن مباين بالطبع إلى مناسب بالطبع، أو إلى مناسب أنسب من مناسب».

ومما قاله أيضاً: «فبهذا يعلم أن لكل جسم طبيعي حيزاً طبيعياً، فيه يكون بالطبع، وإليه تتحرك إذا أزيل عنه، وهذا الحيز ليس هو للجسم بجسميته التي لا يخالف بها غيره من الأجسام، بل بصفة خاصة به هي طبيعية، فقوة أو صورة خاصة بذلك الجسم، خصته بذلك الحيز، وحركته إليه، فتلك الطبيعة الخاصة في ذلك الجسم مبدأ حركة بالطبع وسكون بالطبع، والتحريك النقلي المكاني إنما يكون عنها بعد سبب طارئ يخرج الجسم عن حيزه الطبيعي فتحركه هي إليه».

ويعد ما قاله ابن ملكا عن القانون الثاني للحركة أقرب ما توصل إليه علماء العرب والمسلمين من معان، ومن أقواله عنه: «وكل حركة ففي زمان لا محالة، فالقوة الأشدية تحرك أسرع، وفي زمان أقصر، فكلما اشتدت القوة ازدادت السرعة، فقصر الزمان، فإذا لم تتناه الشدة لم تتناه السرعة، وفي ذلك أن تصير الحركة في غير زمان وأشد، لأن سلب الزمان في السرعة نهاية ما للشدة».

---

(١) انظر في ترجمة ابن ملكا: عيون الأنباء: ابن أبي أصيبعة، ص٣٧٤ ـ ٣٧٦. إخبار العلماء: القفطي، ص٢٢٤ ـ ٢٢٦. الوافي بالوفيات: الصفدي، ج٢٧، ص٣٠٠-٣٠٢. أعلام الفيزياء في الإسلام: الدفاع وشوقي، ص٢٥٤ ـ ٢٥٩. أعلام الحضارة العربية الإسلامية: زهير حميدان، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٦م، ج٤، ص٤٧٠، ٤٧١. تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، ترجمة عبد الحليم نجار وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ج٥، ص٧٢.

ويعني قول ابن ملكا هذا زيادة السرعة، حيث السرعة = المسافة مقسومة على الزمان، أو هي على الدقة معدل تغير السرعة بالنسبة للزمن، وكلامه قريب جداً من القول بتناسب القوة مع التسارع.

ويشير ابن ملكا إلى القانون الثالث للحركة في قوله: «إن الحلقة المتجاذبة بين المصارعين لكل واحد من المتجاذبين في جذبها قوة مقاومة لقوة الآخر، وليس إذا غلب أحدهما فجذبها نحوه تكون قد خلت من قوة جذب الآخر، بل تلك القوة موجودة مقهورة، ولولاها لما احتاج الآخر إلى كل ذلك الجذب ».

وهذا قول واضح في أن لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه، فالحلقة التي أشار إليها في المثال ما هي إلا جسم في حالة اتزان تحت تأثير قوتين متساويتين مقداراً متعاكستين اتجاهاً[(١)].

ولنا أن نسأل، أين كان نيوتن وغيره (ممن يعدون عمالقة علماء الغرب) لما تحدث علماء العرب المسلمين عن الفيزياء ... عن الجاذبية وعن قوانين الحركة ... طبعاً لم يكونوا قد وُلدوا بعد، ولنا أن نسأل؟ أين كان علماء العرب المسلمين في الفيزياء لما تكلم نيوتن عن (اكتشافاته وإبداعاته) !؟ طبعاً كانوا قد توفوا منذ مئات السنين ... ولنا أن نسأل؟ أين كنَّا نحن لما سرق الغرب إبداعات علماء حضارتنا ونسبوها إلى علمائهم ... طبعاً كنا أموات .... .

خامساً _ طب النساء عند علماء الحضارة العربية والإسلامية:

لم يترك أطباء الحضارة العربية والإسلامية مرضاً أو تخصصاً إلا تناولوه بالبحث والعلاج: من رأس الإنسان حتى أخمص قدميه، مروراً بأجزاء رأسه وبطنه.

ومن ذلك الأمراض المتعلقة بالنساء، وسنذكر هنا منها: علم الجنين، وولادة الحوض، وعسر الولادة، ومنع الحمل.

---

(١) أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، ج٤، ص٤٧٠، ٤٧١.

إذ أتم علماؤنا الكثير من الاكتشافات في العلوم الطبية، ووصلوا فيها مرحلة لم تصل إليها أية أمة من الأمم، بل إن الأمم الأخرى نقلت مؤلفاتهم الطبية، فانتشرت في جميع أصقاع العالم وفي أوروبا خاصة التي ما فتأت تعتمد على تلك المؤلفات في جميع دراساتها الطبية، بل إن كثيراً من تلك المؤلفات قد دُرِّست في جامعاتها لأكثر من ستة قرون.

وهذه أبرز الانجازات والاكتشافات الطبية لعلماء الحضارة العربية الإسلامية في طب النساء:

١ _ علم الأجنة:

يذكر أحد الباحثين: «ظلَّت فترة النمو التي يقضيها الجنين في بطن أمه ابتداء من حدوث الحمل وحتى الولادة مجهولة لا يعرف أحد شيئاً عن أسرارها لفترة طويلة من الزمن، فما الذي يحدث للجنين خلال تلك الفترة ؟ وكيف ينمو ويكبر؟ ومتى يتكون قلبه ومخه وتظهر أطرافه؟ لم يستطع أحد الإجابة عن هذه الأسئلة، وفي سنة ١٠١٣هـ / ١٦٠٤م كشف الطبيب الإيطالي (هيرونيموس فابريسيوس) جوانب هامة لنمو الجنين داخل الرحم من خلال دراساته وأبحاثه عن الحيوانات المختلفة، وأصدر أول كتاب في علم الأجنة، والذي عد بداية لظهور علم جديد على الوسط الطبي»[١].

إن المؤلم في هذا القول أن أطباء الحضارة العربية الإسلامية قد أشبعوا هذا الموضوع بحثاً، وكمثال عنهم: أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧م)[٢]، الذي بيَّن في القانون في الطب وتحت عنوان «فصل في تولد الجنين» روائع تفصيلية في كيفية تشكل أعضاء الجنين في بطن أمه، وهذه أمثلة عن ذلك.

(١) أعظم ١٠٠ اكتشاف طبي: أيمن الحسيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م، ص٤٣.

(٢) انظر في ترجمة ابن سينا: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص٤٣٧ ـ ٤٥٩ . وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج٢، ص١٥٧ – ١٦٢. الوافي بالوفيات: الصفدي، ج١٢، ص٣٩١ – ٤١٢ . تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة: البابا، ص١٥٢ ،١٥٣. مسيرة الطب في الحضارات القديمة: جوزيف كلاس، دار طلاس، ط١، ١٩٩٥م، ص٢٨٢ – ٢٨٦.

يقول: «إذا اشتملت الرحم على المني، فإن أول الأحوال أن تحدث هناك زبدية المني، وهو من فعل القوة المصورة، والحقيقة من حال تلك الزبدية، تحريك من القوة المصورة لما كان في المني من الروح النفساني، والطبيعي والحيواني إلى معدن كل واحد منها، ليستقر فيه، ويتخلق ذلك العضو منه على الوجه الذي أوضحناه وبيّناه في كتب الأصول، ولذلك يوجد النفخ كله يندفع إلى وسط الرطوبة إعداداً لمكان القلب، ثم يكون على جانبه الأيمن وجانبه الأعلى نفخان كالمتسعين منه يماسانه إلى حين، ثم يتنحيان عنه ويتميزان، ويصير الأول علقة للقلب، والأيمن علقة للكبد، ويمتلئ الآخر من دم إلى بياض، وينفذ إلى ظاهر الرطوبة المبثوثة نفذ نفخ ريحي يثقبه، لينال منه المدد من الرحم من الروح والدم، وتتخلق السرة، وأول ما تتخلق السرة تتبين، إلا أن نفخات القلب، والكبد، والدماغ، تتقدم خلق السرة، وإن كان استمام هذه الثلاثة يتأخر عن استمام جوهر السرة، وهذا شيء قد حققناه وبينا الخلاف فيه في كتب الأصول من العلم الطبيعي.

وكما يستقر المني ويزبد وينفذ الزبد على الغور نفخاً للقلب، يتولد غشاء من حركة مني الأنثى إلى مني الذكر، ويكون متبرئاً، ثم لا يتعلق من الرحم إلا بالنقر لجذب الغذاء، وإنما يغتذي الجنين بهذا الغشاء ما دام الغشاء رقيقاً فيها، فكانت الحاجة إلى قليل من الغذاء، وأما إذا صلب فيكون الاغتذاء بما تولد في مسامه من المنافذ الواضحة العرقية، ثم ينقسم بعد مدة أغشية.

والحق أن أول عضو يتكون هو القلب، وإن كان يحكى عن أبقراط أنه قال أول عضو يتكون هو الدماغ والعينان بسبب ما يشاهد عليه حال فراخ البيض، لكن القلب لا يكون في أول ما يتخلق في كل شيء ظاهراً جلياً، وقد نبغ فضولي من بعد يقول إن الصواب أن يكون أول ما يتخلق هو الكبد، لأن أول فعل البدن هو التغذي، كأن الأمر على شهوته واستصوابه.

وقوله هذا فاسد من طريق التجربة، فإن أصحاب العناية بهذا الشأن لم يشاهدوا الأمر على ما يزعم البتة، ومن القياس وهو أنه إن كان الأمر على ما يزعم من أنه يخلق

أولاً ما يحتاج إلى سبوق فعله أولاً، فليعلم أنه لا يغتذي عضو حيواني ليس فيه تمهيد الحياة بالحرارة الغريزية، وإذا كان كذلك كانت الحاجة على أن يخلق العضو الذي ينبعث منه الحار الغريزي والروح الحيواني قبل أن يخلق الغاذي، والقوة المصورة لا تحتاج في حال التصوير إلى تغذية ما، لم يقع تحلل محسوس يضر ضرراً محسوساً، فيحتاج إلى بدله، ويحتاج على الروح الحيواني، والحار الغريزي ليقوم به، فإن قال إنه حاصل للمصورة من الأب، فكذلك القوة الغاذية أيضاً مصاحبة للمصورة المولدة من جهة الأب، وكيف لا وتلك أسبق في الوجود.

هذا والحال الأخرى ظهور النقطة الدموية في الصفاق، وامتدادها في الصفاق امتداد ما، وفي هذه الحال تكون النفاخات قد استحال الرغوي منها إلى دموية ما، واستحالت السرة إلى هيئة السرة استحالة محسوسة، وثالث الأحوال استحالة المني إلى العلقة وبعدها استحالة إلى المضغة، وهناك تكون الأعضاء الرئيسة قد ظهر لها انفصال محسوس، وقدر محسوس، وبعدها استحالته إلى أن يتم تكون القلب، والأعضاء الأولى ويبتدئ تنحي الأعضاء بعضها عن بعض، وتليها الوشائج العلوية، وتكون الأطراف قد تخططت، ولم تنفصل تمام الانفصال وأوعيتها، ثم إلى أن تتكون الأطراف، ولكل استحالة أو استحالتين مدة موقوف عليها، وليس ذلك مما لا يختلف، ومع ذلك فإنها تختلف في الذكران والإناث من الأجنة، وهي في الإناث أبطأ...»(١).

وينقلنا ابن سينا إلى مواضيع طبية ولادية حساسة، فتحت عنوان: «فصل في سبب التوأم والحبل على الحبل» يذكر: «سببه كثرة المني، وانقسامه إلى اثنين فما بعده، ووقوعه في التجويفين، وسلامة ولدي المتئم غير كثيرة، وقلما يكون بين التوأمين أيام

(١) القانون في الطب: الحسين بن عبد الله بن سينا، تح سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م، ج٣، ص ٢٤٣ - ٢٤٥.

كثيرة، فإنهما في الكثير من جماع واحد، وفي القليل ما يعلق جماع على حبل، وإن أعلق في نساء خصبات الأبدان، كثيرات الشعور والدم لقوة حرارتهن، وهن اللاتي ربما رأين الدم في الحبل، فلم يبالين به لقوة منيهن، وقوة أرحامهن، ولم يسقطن مع الحيض، ومع انتفاخ ما من فم الرحم، وربما حضن على الحبل عدة حيض اثنتين فما فوقهما، فإن وقع حبل في غير القوية جداً، وفي التي إنما حبلت لانفتاح في رحمها، لا لقوة رحمها، خيف أن يكون المولود الأول قد ضعف فيفسد في الثاني.

وأيضاً في القويات قد يخاف جانب وقوع التعلق والتزاحم بين الولدين، وأكثر ما يتأدّى ذلك إلى حمّى، وتهيج في الوجه، وحدوث أمراض إلى أن يسقط أحدهما، ومن علامات التوأم وما فوقه على ما قالوا وجرب، أن يراعى سرّة المولود الأول المتصلة بالجنين، فإن لم يكن فيها تعجر (نتوءات) ولا عقد فليس غير المولود الأول ولد، فإذا كان فيها تعجر فالحمل بعدد التعجر».

ثم يفيد الطب بعلامات اقتراب الولادة، يقول: «إذا دخلت الحامل في مدة قريبة من أجل الولادة، وأحست بثقل في أسفل البطن تحت السرة، وفي الصلب، ووجع في الأربية، وحرارة في البطن، وانتفاخ في فم الرحم شديد محسوس، وترطب منه، فقد أقربت، فإذا استرخت عجيزتها وانتفخت أربيتها، واشتد انتفاخ الربية فما بينها وبين الطلق إلا قريب».

ومن ثم ينقلنا إلى علامات ضعف الجنين: ومما قاله عن ذلك: «يدل على ضعفه أمراض والدته، واستفراغات عرضت لها، وخصوصاً اتصال درور الحيض المجاوز لما يكون على سبيل الندرة والقلة، وعلى سبيل فضل من الغذاء، وكذلك ظهور اللبن في أول شهر حملت فيه، وتحلبه إذا عصر الثدي، ويدل عليه أن لا يتحرك الجنين تحركاً يعتد به، أو يتحرك في غير وقته».

ومن علامات ضعف المولود كما يشِّخص ذلك: «إن الجنين إذا ولد ولم تنتفخ سرته، ولم يعطس، ولم يتحرك، ولم يستهل إلى زمان، فإنه ضعيف ولا يعيش»[(١)].

والمثال الآخر الذي ندلل به على علم الأجنة عند العرب المسلمين: علي بن العباس المعروف بالأهوازي (ت ٣٨٤ هـ / ٩٩٤م)[(٢)]، إذ تكلم على تطور الجنين في رحم أمه بطريقة علمية مخبرية متطورة، أدت إلى استغراب كبير بين علماء العصر الحديث ومن ذلك نختار قوله في كتابه «الكامل في صناعة الطب»: «الجنين إنما يتم بامتزاج مني الذكر بمني الأنثى، ومن شأن الرحم أن تنضم من جميع نواحيها وتمسكه، ويمتزج المنيات ويصيران إلى تجويف الرحم، ويتكون منهما الغشاء الذي يحيط بالجنين إلى أن تتصل ما به من العروق والشرايين بأفواه العروق والشرايين التي تعبر إلى الرحم، ويقال لهذا الغشاء المشتبك فيه العروق والشرايين: المشيمة، أما تكوين الجنين نفسه، فيحدث نفاخات إذا خالط المنيان أحدهما الآخر من حرارة الدم، وتجتمع النفاخات إلى تجويف عظيم، وتجتمع في هذا التجويف مقدار من الروح، ثم يبدأ ظهور أعضاء الجنين، وأول شيء تبدأ به القوة المصورة الأعضاء التي هي الأصول لأكثر الأعضاء، وهي الدماغ والقلب والكبد وسائر الأعضاء اللحمية، وسائر الأعضاء الباقية التي في الجنين الكامل، وعند ذلك يبدأ الجنين يتحرك، ويتم خروج الجنين إما في الشهر السابع أو في الشهر التاسع»[(٣)].

---

(١) القانون في الطب: ابن سينا، ج٣، ص ٢٦٣.

(٢) انظر في ترجمة الأهوازي: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص٣١٩ ،٣٢٠. إخبار العلماء بأخبار الحكماء: القفطي، ص١٥٥ ،١٥٦. معجم المؤلفين: كحالة، ج٢، ص٤٥٤. دور العرب في تقدم علوم الطب: الهندي، ص٥٨.

(٣) دور العرب في تقدم علوم الطب: الهندي، ص٥٩، ٦٠. العلوم العملية في الحضارة الإسلامية: عمر كحالة، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٧٢م، ص٢٨، ٢٩. أعلام الحضارة العربية الإسلامية: حميدان، ج٢، ص١١٨. مسيرة الطب في الحضارات القديمة: كلاس، ص٢٥٩ - ٢٦١.

٢ _ ولادة الحوض:

إن الطبيب أبا القاسم خلف بن عباس الزهراوي (ت ٤٠٤ هـ / ١٠١٣م)(١)، هو أول من عالج ووصف ولادة الحوض التي تنسب إلى الطبيب (فالشر)، فقد سبقه الزهراوي إلى هذا العلاج بنحو تسعمئة سنة، وتشرح لنا زيغريد هونكه ذلك فتقول: «وأوجد لمسات جديدة للولادة في حالة سقوط يد أو ركبة الجنين أو وضعه المسمى بوضع الأرجل (تقدم الأرجل من باب الرحم على الرأس) أو الوضع المسمى (بالقرضي) أو الوضع الوجهي (تقدم الوجه من باب الرحم على غيره من الأعضاء)، وهو أول من عالج هذا الوضع الأخير، وأول من أوصى بولادة الحوض ... وهي الولادة المسماة حديثاً باسم الأستاذ الشتوتغرتي (نسبة لمدينة شتوتغرت الألمانية) في أمراض النساء فالشر ١٢٧٣ - ١٣٥٤هـ / ١٨٥٦ - ١٩٣٥م»(٢).

والجدير ذكره أن الزهراوي هو أول من أسس علم الجراحة في العالم، وهو أول من مارسه من بين الأطباء، وأجرى عمليات جراحية أحجم غيره عن إجرائها، وهو أول من نقل الجراحة من مجال الصنعة المهنية إلى مجال العلم التخصصي، لذا فهو يستحق بكل ثقة لقب «مؤسس علم الجراحة»، وقد نُسب هذا السبق ظلماً إلى العالم الفرنسي (أمبرواز باريه) الذي ادعى ذلك بعد أربعة قرون من عصر الزهراوي(٣).

٣ _ عسر الولادة (الجفت - Forceps):

الجفت عبارة عن أداة معدنية لها شريحتان تستخدمان في سند رأس الجنين وسحبه للخارج عندما يكون هناك صعوبة في خروج الرأس بطريقة طبيعية.

---

(١) انظر في ترجمة الزهراوي: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص٥٠١. الوافي بالوفيات: الصفدي، ج١٣، ص٣٧٠. معجم المؤلفين: كحالة، ج١، ص٦٧٤.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه، ترجمة فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ٢٧٨.

(٣) دور العرب في تقدم علوم الطب: الهندي، ص٦٧.

وذكر التاريخ الغربي أن هذا الابتكار اخترعته عائلة من المولدين الذكور (دايات) عام ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م، واشتهرت هذه العائلة بعائلة (شامبرلين)، ومن غريب ما قرأت عن هذه العائلة، ومما أثار حفيظتي أنهم لم يودوا أن يعرف أحد ابتكارهم هذا ليبقوا محتفظين بشهرتهم ومهارتهم من دون منافس، وظلوا محتفظين بهذا السر لفترة طويلة، واستطاعوا جمع مبالغ طائلة من إجراء عمليات التوليد، ومع الوقت توفي أفراد عائلة شامبرلن واحداً بعد الآخر، وقبل وفاة آخرهم بعدة سنوات كشف طريقة التوليد التي كانوا يقومون بها، وعدّها ابتكاراً مميزاً لعائلته(١).

وبالعودة إلى كتب تراثنا الطبية نقرأ عن تفاصيل كثيرة عن طرق للتوليد، وليس طريقة واحدة، فمثلاً يشير ابن سينا وتحت عنوان: «تدبير من تعسر ولادها بسبب موت الجنين، أو سوء شكله الذي لا يرجى معه حياته: تستعمل الأدوية المخرجة للجنين الميت مما قيل ويقال، فإن لم ينجح ذلك علق بصنابير وقطع إرباً إرباً، وأخرج واستعجل في ذلك قبل أن ينتفخ، فإن كان رأسه عظيماً وأمكن شدجه أو قطعه ليسيل ما فيه فعل ذلك»(٢).

ويفيدنا بطرائق للتوليد في الحالات الشاذة والصعبة، وذلك تحت عدة عناوين، أولها: «تدبير من خرج من جنينها الرجل قبل الرأس» يقول: «يجب أن تتلطف، وترد الرجل وتقلبه باللطف حتى يستوى قاعداً، وتشيل ساقيه قليلاً قليلاً حتى ينزل رأسه، فإن لم يمكن شيء من ذلك، شد الجنين بعصابات وأخرج، فإن لم يكن إلا القطع فعل ذلك على قياس ما قيل في الجنين الميت».

ويذكر تحت عنوان: «تدبير من يخرج جنينها على جنبه»: «هو قريب من ذلك، ويسوى بالرفع إلى فوق، وبالإجلاس والنكس بالرفق».

---

(١) أعظم ١٠٠ اكتشاف طبي: الحسيني، ص١٣٣، ١٣٤.

(٢) القانون في الطب: ابن سينا، ج٣، ص٢٨٦.

وتحت عنوان: «تدبير من تلد وفي رحمها ورم» يذكر: «يستعمل عليها القيروطيات، والأدهان، وتعمل بها ما رسم أن يعمل بالسمان من هيئة الولادة وغيرها».

وتحت عنوان: «تدبير من تعسر ولادها بسبب عظم الصبي» يقول: «يجب أن تجيد القابلة التمكن من مثل هذا الجنين، فتتلطف في جذبه قليلاً قليلاً، فإن أنجح في ذلك، وإلا ربطته بحاشية ثوب، وجذبته جذباً رفيقاً بعد جذب، فإن لم ينجح ذلك استعملت الكلاليب واستخرج بها، فإن لم ينجح ذلك أخرج بالقطع على ما يسهل ويدبر تدبير الجنين الميت»(١).

ويذكر العالم سبرينجل أن الزهراوي كان الطبيب الأول الذي وصف العملية المسماة «فغر الجمجمة»، وهذا عندما يكون الجنين ميتاً أو يكون مصاباً باستسقاء في الرأس، وذلك بأن اخترع أداة لخرق جمجمة الجنين وإفراغها من محتوياتها لتسهيل عملية نزوله من الرحم، وإنقاذ حياة المرأة، وهذه الآلة على شكل ملقط، وتشبه آلة (الجفت) التي تستخدم اليوم في توليد الجنين عندما تتأخر ولادته.

والزهراوي هو أول من استعمل طريقة إخراج المشيمة المحبوسة بعد ولادة الجنين بالضغط على الرحم من خلال جدار البطن(٢).

٤ _ منع الحمل:

ذُكر أن قصة حبوب منع الحمل بدأت في المكسيك في بداية أربعينات القرن العشرين، إذ أدرك الطبيب (روسل ماركر) ومن خلال دراسته لخلاصة نبات اليام (نوع من النبات شبيه بالبطاطا) أن به مواد فعّالة شبيهة بمفعول البروجستيرون (وهو هرمون أنثوي يتحكم في عملية التبويض، أي خروج البويضة من المبيض شهرياً للتلقيح).

---

(١) القانون في الطب: ابن سينا، ج٣، ص٢٨٥.

(٢) دور العرب في تقدم علوم الطب: الهندي، ص٦٥ ـ ٦٩. أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية: أحمد الملا، دار الفكر، ص١٣٧. الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب: محمد حسين وآخرون، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ص١٠٨ – ١٤٧.

ثم ذكر أن ماركر استطاع من خلال الاستعانة بطبيب أمريكي هو (جريجوري بنكس) تجهيز الإستروجين من خلاصة اليام في صورة حبوب، ووجد أن تناول هذه الحبوب يوقف التبويض، أي يمنع الحمل، ثم قامت طبيبة أمريكية تدعى (مارجريت سانجر) بمواصلة البحث واستكماله ودراسة تأثير هذه الحبوب على مجموعة كبيرة من السيدات، وأثبتت الدراسات والتجارب فعالية هذه الحبوب في منع الحمل، وكان ذلك سنة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م[١].

ونحن في بحثنا هذا لا نبخس أي عالم من العلماء حقه، ولا ندفع عنه الشهرة، ولكن الحق أحق أن يتبع، وصاحب السبق يجب أن يُعرف، وسأذكر لك أولاً ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة، إذ أشار إلى أن الطبيب الكيميائي: أبو بكر مُحَمَّد بن زكريا الرازي (ت ٣١٣هـ / ٩٢٥م)[٢] قد أفرد في أحد كتبه فصلاً لموانع الحمل، وذكر أربعة وعشرين من الموانع الآلية والكيماوية[٣].

وخصص ابن سينا فصلاً عن هذه القضية الطبية أسماه «فصل في منع الحمل»، ويبدأ بمبررات ذلك فيقول: «الطبيب قد يفتقر في منع الحبل في الصغيرة المخوف عليها من الولادة التي في رحمها علة، والتي في مثانتها ضعف»، ثم يذكر الطرق والأدوية التي تمنع الحمل[٤].

---

(١) أعظم ١٠٠ اكتشاف طبي: الحسيني، ص١٠٤، ١٠٥.

(٢) انظر في ترجمة الرازي: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة، ص٤١٤، ٤٢٧. الفهرست: مُحَمَّد بن النديم، ص٥٠٤. إخبار العلماء: القفطي، ص١٧٨ – ١٨٢. وفيات الأعيان: ابن خلكان، ج٥، ص١٥٧ – ١٦١. طبقات الأطباء والحكماء: ابن جلجل، ص٧١ – ٨١.

(٣) قصة الحضارة: ول ديورانت، تر علي أبو درة، بيروت، دار الجيل، ج١٣، ص١٤١.

(٤) القانون في الطب: ابن سينا، ج٣، ص٢٧٨، ٢٧٩.

سادساً _ من بنى مدينتي بكين ومدريد؟:

اكتشف المستشرقون — لما درسوا العمارة العربية الإسلامية – عالماً فنياً غنياً ورائعاً، اعترفوا أنه أوسع الفنون العالمية انتشاراً، وأطولها عمراً، وأكثرها تنوعاً وغزارة مع احتفاظه بوحدته المميزة[(١)].

وقد أقرَّ غوستاف لوبون «أنَّ الغرب اقتبس أصول فن عمارته من العرب»[(٢)].

ونبدأ بمدينة بكين عاصمة الصين، فكل من يذهب إلى بكين عاصمة الصين في الوقت الحاضر من الصينيين والضيوف الأجانب، لابد أن يزوروا القصور الملكية القديمة بالمدينة المحرمة والحدائق الملكية القديمة «حديقة بيهاي حالياً» على مقربة من القصور، ويتعجبوا من عظمة القصور والحدائق وفخامتها وروعة بنائها.

ويرجع تاريخ بناء هذه القصور والحدائق إلى ثمانية قرون، أي في عهد سلالة يوان عندما اتخذ قبلاي خان مدينة بكين عاصمة لمملكته سنة ١٢٧٩م، وكان «اختيار الدين» المهندس المعماري المسلم من بلاد العرب هو المصمم والمنفذ لهذه القصور والحدائق أيام حكم قبلاى خان ١٢١٥ - ١٢٩٤م ١٢٦٠ - ١٢٩٤م.

يقول الأستاذ الصيني الكبير تشين يوان (١٨٨٠ - ١٩٧١م) رئيس جامعة بكين الأسبق والمختص في تاريخ الصين الحديث في بحثه المعنون: «دراستا الصينيين من أصل بلاد الفرس والعرب»: إن أكبر إهمال نرتكبه هو عدم اهتمامنا وذكرنا من صمم ونفذ مشروع القصور والمدينة المحرمة حولها في العاصمة اليوم، وهو مهندس معماري مسلم من أصل بلاد العرب، والسبب في ذلك عدم اهتمامنا بعلوم الهندسة والتكنولوجيا عند تسجيل أحداث العصر في كتب التاريخ، ومصمم المشروع ومنفذه هو اختيار الدين المسلم من الأصل العربي.

---

(١) انظر الفن عند العرب والمسلمين: أنور الرفاعي، دار الفكر، ط٢، ١٩٧م، ص٣- ٥.

(٢) حضارة العرب: غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ص٥٧١ - ٥٧٤.

وورد في كتاب «المختارات» للمؤلف (أو يانغ شوان، ١٢٧٤ - ١٣٥٨م) - الذي كان يتولى مهمة تأليف ومراجعة كتب التاريخ في البلاط الصيني - الكلام نفسه، وقال (أو يانغ شوان) أيضاً في أحد مقالاته عن وثيقة نصب مقبرة السيد مُحَمَّد: إن السيد مُحَمَّد هو ابن السيد اختيار الدين من الأصل العربي منذ عهد تانغ، فعندما جلس قبلاي خان على عرش الصين عيّن اختيار الدين مديراً للهندسة والمعمار (البيوت والمخيمات في اللغة المغولية) سنة ١٢٦٧م، وكان اختيار الدين يعمل ليلاً ونهاراً في التفكير والتصميم ثم في التنفيذ مع وزير المالية ووزير العمل، وبعد انتهاء المشروع نال الإعجاب والتقدير العظيمين من الإمبراطور الذي منحه مزيداً من الهدايا والشرف، ولكن اختيار الدين تعب كثيراً وجاءته الشيخوخة قبل أوانها.

وقبل بناء القصور والمدينة المحرمة كان اختيار الدين قد قدم اقتراحاً لبناء الحدائق سنة ١٢٦٣م، ونفّذ هذا المشروع في سنة ١٢٦٤م، وما زالت بعض أجزاء الحدائق القديمة باقية حتى اليوم، خاصة الجزيرة وسط البحيرة والبرج الأبيض فوقها.

أخيراً، وتأكيداً على الأدلة المتقدمة، نشر العالم الباحث (ما مينغ داو، ١٩٠٨ - ١٩٩١م) مقالاً تحت عنوان: من بنى مدينة بكين، ضمن كتاب «تأثير الإسلام في الثقافة الصينية»، نشره قسم المطبوعات في جامعة الثقافة الصينية بتايوان سنة ١٩٨٢م، وقال فيه: إن مدينة بكين من تصميم المهندس العربي المسلم مقلداً لمدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية في القرون الوسطى. وقال: إن معبد السماء في بكين حالياً من تصميم المهندس العربي المسلم أيضاً. (١)

ونأتي إلى من بنى مدينة مدريد الإسبانية، فلقد كانت كثير من النباتات الجديدة في إسبانية تحتاج إلى وفرة في الماء، فعمد العرب إلى تنظيم أساليب للتصرّف بالمياه، ليس في المناطق المروية وحدها، بل كذلك في النُّجود، ونجد في مدريد أوّل تطبيق لها معروف في إسبانيا؛ هذه المدينة، التي تكوّنت نواتها من حصن بسيط كان قد أمر بإنشائه مُحَمَّد

(١) الإسلام والثقافة الصينية: لي تشين تشونغ، ص٢٧٠، ٢٧١.

الأول (٢٣٨-٢٧٣هـ / ٨٥٢-٨٨٦م)، وكان يُمَدُّ بالماء بوساطة مصارف جوفيّة تسمى: الفجّارة أو الخطّارة بحسب المناطق في العالم العربي، وكانت تُسمّى آنذاك: القناة أوالمجرى (باللاتينيّة matrice). وقد تولّدت عن إضافة اللاحقة اللفظيّة etu – التي تعني: الوفرة باللغة الرُّومنثية – إلى هذه الكلمة الأخيرة، تسميتان متوازيتان للمدينة الجديدة: «مجريط» بالعربية، «ومدريد» بالرُّومنثيّة، وتصدر كلتاهما عن الاشتقاق ذاته: المكان الذي تكثر فيه الأنفاق الجوفيّة لجلب المياه. وقد ظهرت، خلال حَفْر هذه الأنفاق، أولى بقايا الأحافير لـ إلفاس أنتيكيوس elephas antiguus، التي عُثر عليها في إسبانيا. أمّا التقنية المستعملة فنعرفها على نحو ما ينبغي، بفضل مؤلَف الكرخي: كتاب إنباط المياه الخفيّة، وفي توسُّع شبكة المياه مع اتساع المدينة في آن واحد، وظلت قيد الاستعمال، تحت اسم viajes أي (المياه المجلوبة بالأنابيب) حتى أيّامنا هذه تقريباً. وأمّا المشهد، الذي كان يتسم به، ولا بد، مجال مدينة مدريد، بما ينتظم فيه من صفوف الآبار المتعلّقة بهذه المجاري، ففي وُسع أي مسافر أن يتصوره بسهولة، إذا ما حلّق في زمننا هذا فوق أصفهان ومدن أخرى في الشرق الأدنى، حيث يستمر إنشاء هذه القنوات واستخدامها بمردود تام [(١)].

ونشير هنا أن نظام الري كان قائماً في إسبانيا منذ العهد الروماني، واستمر في زمن القوط، ولكن العرب قاموا بتوسيع نظام الري وتطويره على أساس الخبرة التي اكتسبوها في المشرق فيما يخص توزيع المياه وتوفيرها، وتشهد على ذلك وفرة المفردات العربية الأصل الشائعة في اللغة الاسبانية، والمتعلقة بهندسة الري، مثل:

Acequia, alberca, aljibe, noria, arcaduz, azuda, almat- riche, alcantarilla, atarhea, atanor, alcorque.

وبالإضافة إلى هذا البرهان «اللغوي»، ثمة تشابه واضح بين شكل دواليب المياه التي ما زالت تستعمل حتى اليوم في إسبانيا، وبين الدواليب المستعملة في المغرب

(١) فضل الأندلس على ثقافة الغرب: خوان فيرنيت، ترجمة نهاد رضا، دمشق، دار إشبيلية، ط١، ١٩٩٧، ص٤٣-٤٥.

والمشرق العربي، ومن المحتمل جداً أن اختراع هذه الدواليب قد تم في الشرق الأوسط بالذات[1].

_ **الخاتمة:**

«إنَّ العرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي، فكانوا ممدِّنين لنا وأئمَّة لنا ستَّة قرون»[2].

هذا القول للعالم والطبيب الفرنسي المستشرق الكبير غوستاف لوبون، وهو قول يجب أن يُشعرنا بالفخر والأمل، وأن يصنع فينا إرادة عظيمة، هذه الإرادة التي كانت من صفات علماء الحضارة العربية الإسلامية، فهذا ابن الهيثم البصري، كان يمتلك إرادة عظيمة، فعلى الرغم من ضيق عيشه كان يردِّد دائماً «وإنِّي ما مُدَّت لي الحياة باذل جهدي، ومستفرغ قوتي، متوخِّياً منه أموراً ثلاثة: أحدها إفادة من يطلب الحقَّ ويؤثره، في حياتي وبعد مماتي، والآخر أنِّي جعلت ذلك ارتياضاً لي بهذه الأمور في إثبات ما يتصوَّره ويتقنه فكري من تلك العلوم، والثالث أنِّي صيَّرته ذخيرة وعدَّة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم»[3].

ولولا هذه الإرادة الجبَّارة التي اتَّصف بها علماء حضارتنا، لما استطاعوا امتصاص ما خلَّفه الإغريق بسرعة فائقة، وكذلك ما خلَّفه الفرس وغيرهم، ولما استطاعوا تحرير علوم هذه الحضارات وتنقيتها من الشوائب، وصقلها وتطويرها وتنميتها، ولما استطاعوا الانطلاق بعد ذلك إلى نهضة خيالية مدة عشرة قرون وُصفت بالذهبية.

(١) انظر أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا: منتغمري واط، ترجمة عادل أبي جابر، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨١، ص٦٧، ٦٨.

(٢) حضارة العرب: غوستاف لوبون، ص٥٧٧ - ٥٧٩.

(٣) أبو علي الحسن بن الهيثم الممهد للصعود إلى القمر: عمار النهار، الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، ٢٠١٥م، ص٦، ٧.

وكل ما ذكرناه هو دروس غاية بالأهمية، لكي نفهم من خلالها كيف استطاعت الحضارة العربية والإسلامية أن تتفوق وأن تصبح اللغة العربية من خلالها هي اللغة العالمية وهي لغة العلم، فما علينا إلا أن نستخرج من تفاصيل حضارتنا أسباب النهضة والتفوق والعزيمة والإرادة ... لكي نستغل ذلك في حاضرنا وننطلق من خلالها انطلاقة قوية نحو مستقبل أرحب.

قائمة المصادر والمراجع

_ المصادر:

_ إخبار العلماء بأخبار الحكماء: علي بن يوسف القفطي، القاهرة، مكتبة المتنبي.

_ البخلاء: عمرو بن بحر الجاحظ، دار المدى، ط٢، ١٩٦٣م.

_ تاريخ بغداد: أحمد بن علي البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتب العلمية.

_ الحيوان: عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦م.

_ طبقات الأطباء والحكماء: سليمان بن جلجل، تح: فؤاد سيد، ط٢، ١٩٨٥م.

_ علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب (دراسة وتحقيق: لرسائل مخطوطة في التعمية): مُحَمَّد مراياتي، يحيى ميرعلم، مُحَمَّد حسان الطيان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، ط١، ١٩٩٧م.

_ عيون الأنباء في طبقات الأطباء: أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة، تح: نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة.

_ الفهرست: مُحَمَّد بن النديم، سوسة، تونس، دار المعارف.

_ القانون في الطب: الحسين بن عبد الله بن سينا، تح سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.

_ كتاب الشفاء (الطبيعيات): الحسين بن سينا، تح: محمود قاسم، دار الكاتب العربي، القاهرة.

_ مختار رسائل جابر بن حيان، تح: باول كراوس، مكتبة المثنى، بغداد.

_ مختصر الدول: غريغوريوس الملطي، المعروف بابن العبري.

_ معجم الأدباء: ياقوت الحموي، تح: عمر الطباع، بيروت، مؤسسة المعارف، ط١، ١٩٩٩م.

ـ الوافي بالوفيات: خليل بن أيبك الصفدي، اعتناء هلموت ريتر، دار فرانز شتاينر، ط٢، ١٩٦٢م.

ـ وفيات الأعيان: أحمد بن مُحَمَّد بن خلكان، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ط٢، ١٩٦٦م.

ـ **المراجع:**

ـ ابن سينا: أرثور سعديييف، ترجمة توفيق سلوم، دار الفارابي، ١٩٨٧م.

ـ أبو علي الحسن بن الهيثم الممهد للصعود إلى القمر: عمار النهار، الهيئة العامة السورية للكتاب، ط١، ٢٠١٥م.

ـ أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا: منتغمري واط، ترجمة عادل أبي جابر، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٨١.

ـ أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية: أحمد الملا، دار الفكر.

ـ إسهام علماء العرب والمسلمين في علم الحيوان: مُحَمَّد عبد الله الدفاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

ـ أعظم ١٠٠ اكتشاف طبي: أيمن الحسيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥م.

ـ أعلام الحضارة العربية الإسلامية: زهير حميدان، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٦م.

ـ أعلام العرب والمسلمين في الطب: علي عبد الله الدفاع، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

ـ أعلام الفيزياء في الإسلام: علي الدفاع، جلال شوقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.

ـ الإسلام والثقافة الصينية: لي تشين تشونغ.

ـ تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان، ترجمة عبد الحليم نجار وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

_ تاريخ وتشريع وآداب الصيدلة: محمد زهير البابا، جامعة دمشق،١٩٨٦م.

_ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك: قدري طوقان، جامعة الدول العربية، القاهرة.

_ تطور المفتاح في منظومة التعمية عند العرب: نضال يعقوب، أطروحة دكتوراه، جامعة حلب، ١٩٩٧م. _ الجاحظ: فوزي عطوي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٨٩م.

_ جابر بن حيان: رحاب عكاوي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

_ جابر بن حيان: زكي نجيب محمود، مؤسسة البلاغ، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.

_ حضارة العرب: غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

_ دائرة المعارف الإسلامية، دار المعرفة، بيروت.

_ دور العرب في تقدم علوم الطب: أمجد الهندي، دار سعاد الصباح، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

_ شمس العرب تسطع على الغرب: زيغريد هونكه، ترجمة فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٠م.

_ العلوم العملية في الحضارة الإسلامية: عمر كحالة، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٧٢م.

_ فضل الأندلس على ثقافة الغرب: خوان فيرنيت، ترجمة نهاد رضا، دمشق، دار إشبيلية، ط١، ١٩٩٧.

_ الفن عند العرب والمسلمين: أنور الرفاعي، دار الفكر، ط٢.

_ قصة الحضارة: ول ديورانت، تر علي أبو درة، بيروت، دار الجيل.

_ مجلة الفيصل، العدد (١٥٠).

_ مجلة علم وعالم: العدد (١٨) تاريخ ١-١٢-٢٠٠٤م.

ـ مجموعة أبحاث عن العلوم الطبيعية في الحضارة العربية الإسلامية: أحمد شوكت الشطي، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٤م.

ـ المسلمون والعلم الحديث: عبد الرزاق نوفل، دار الكتاب العربي، بيروت.

ـ مسيرة الطب في الحضارات القديمة: جوزيف كلاس، دار طلاس، ط١، ١٩٩٥م.

ـ معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

ـ الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب: مُحَمَّد حسين وآخرين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.

ـ الموسوعة العربية العالمية، الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، موضوع: الاستنساخ، الهندسة الوراثية.

التراث العربي
العدد المزدوج (١٥٩-١٦٠)/ خريف - شتاء/٢٠٢٠- ٢٠٢١

علوم البحار والملاحة البحرية في التراث العربي

محمد علي حبش*

الملخّص:

حقق العلماء العرب ريادة في معرفة علوم البحار والملاحة البحرية، فابن ماجد وسليمان المهري وضعا في القرن الخامس عشر الميلادي (المرشدات الملاحية) التي كانت الأصل الذي بنى عليه آخرون كتبهم في علم الأبحر، إذ يشير العلماء العرب في كتب التراث العربي إلى الملاحة العربية من وصف للبحار وطرق التجارة وذكر الظواهر الطبيعية البحرية، وصناعة المراكب وأوصافها وشحنتها ومخاطر ركوب البحر والأساطيل العربية وأسماء السفن الحربية وفنون القتال البحري العربي، والقياسات الفلكية للنجوم الملاحية المختلفة ومواعيد فتح البحر وغلقه.

يسلّط البحث الضوء على صفحة من تاريخ الحضارة العربية، إذ يتلمّس الشواهد التراثية على الملاحة البحرية العربية وبعض تفاصيلها في خمسة مصادر رئيسة تتمثل بالمعاجم اللغوية عند العرب، وأدب الرحلات البحرية، والشعر العربي، والمخطوطات وبعض كتب التراث والقرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية:

علوم البحار - الملاحة البحريّة

* مدير تحرير مجلتي "دوائر الإبداع" و"الأدب العلمي" - جامعة دمشق.

مقدمة:

لا شكّ أن التصدّي للكتابة عن تاريخ العلوم عند العرب يواجه صعوبة في تحصيل المادّة العلمية، لأنّ معظمها كُتب على شكل أراجيز يحتاج فهمها إلى كثير من الأناة والصبر والتمعّن، وإلى ضرورة البحث في كتب التراث والمخطوطات القديمة، ومنها البحث في "علم الملاحة" وتاريخ الملاحة العربية.

يؤكّد المفكّر المصري المؤرّخ د.حسين مؤنس الحاجة الملحّة إلى الاهتمام بنشر التراث العلمي من المخطوطات العربية بقوله: "إن حوالي ٩٥% من المخطوطات العربية في العلوم نشرها المستشرقون، ومعظم مؤرّخي العلوم عند العرب غربيون"[١].

والشائع في علم الملاحة البحرية أن فضل السبق في معرفة علوم البحار والملاحة ترجع إلى العلماء الأوربيين وما وضعوه في ذلك من كتب ومؤلّفات وإرشادات بحرية متنوّعة تتناول التيّارات البحرية والرياح وقوّتها وشدّتها وحساب المدّ والجزر، إذ يرى الإيطاليون أن مؤسّس علم البحر هو "لويجي فرناندو مرسيلي" (١٦٥٨ – ١٧٣٠م) الذي وضع رسالة سمّاها "التاريخ الطبيعي للبحر"، والإنكليز يرون أن مؤسّس علم البحر هو السير "جون مري" الذي كان على رأس البعثة العلمية الإنكليزية "المتحدية" (١٨٧٢ – ١٨٧٥م)، بينما يقول العلماء الأمريكيون إن مؤسس علم البحار هو "ماتيوس فونتين ماوري" (١٨٠٦ – ١٨٧٣م) الذي كان ضابطاً بالبحرية الأمريكية؛ فجمع معلومات من قباطنة السفن عن الرياح والتيّارات ومواعيد السفر بحكم وظيفته كمشرف على المرصد البحري والمكتب الهيدروغرافي في واشنطن وكتب كتاباً بعنوان (الجغرافية الطبيعية للبحر) وكتاب (مرشدات ملاحية).

وتجدر الإشارة إلى أنه أُكتشفت في العشرينيات من القرن العشرين (المرشدات الملاحية) لابن ماجد وسليمان المهري، وكانت هي الأصل الذي بنى عليه الأميرال التركي علي حسين المعروف بـ "سيدي علي" كتابه (المحيط في علم الأفلاك والأبحر) عام ١٥٥٧ ولم يكن قبل هذا التاريخ ثمّة مرجع واحد عن الملاحة في بحار آسيا والهند سوى مؤلفات ابن ماجد، ويشير العديد من العلماء العرب في كتب التراث العربي إلى

موضوع الملاحة العربية سواء من قريب أو بعيد كوصف البحار وطرق التجارة في كتب البلدان وذكر الظواهر الطبيعية البحرية في كتب العجائب، ومنها ما ذكره الرحّالة العرب من أمثال ابن جبير وابن بطوطة عن صناعة المراكب وأوصافها وشحنتها ومخاطر ركوب البحر وما ذكره المؤرخون العرب في القرون الوسطى عن الأساطيل العربية وأسماء السفن الحربية وفنون القتال البحري العربي.

ما يهمّنا في هذا البحث هو أننا نريد تسليط الضوء على صفحة من تاريخ الحضارة العربية وهي صفحة الملاحة البحرية العربية، ومعرفة بعض تفاصيلها في التراث العربي: المعاجم، وأدب الرحلات البحرية، والشعر العربي، والمخطوطات وكتب التراث.

تؤكّد الحقيقة العلمية أن قصب السبق في الكتابة عن "علوم البحار" يعود للعرب، على الرغم من ضعف الاهتمام والرعاية بالملّاحين العرب آنذاك، فقد أشار المؤرّخ المصري الدكتور **حسين مؤنس** إلى أن الملاّحين العرب العباقرة من أمثال ابن ماجد وسليمان المهري لم تكن وراءهم دولة تؤيدهم وتمكّنهم من توسيع مجال نشاطهم وخدمة الحضارة الإنسانية، وكل ما وصلوا إليه كان بفضل سعيهم وعلمهم وجهدهم، "فبينما كان ملوك البرتغال يؤيدون "فاسكو دي جاما" وهنري الملاّح وغيرهم في الكشف والبحث والتقدّم ويقدمون لهم المال والعون –كان ملاّحونا وهم ليوث البحار – يعملون دون حماية رسمية من الدولة وكل ما أمكنهم الوصول إليه إنما كان بفضل علمهم وجهودهم وبسالتهم كأفراد"(٢). فالفضل في تسمية (علم البحر) يعود للملاّح العربي أحمد بن ماجد النجدي (١٤١٨م) الذي عاش في ظفّار جنوب الجزيرة العربية في القرن الخامس عشر الميلادي وشهد مطلع القرن السادس عشر كذلك، وهو الذي سمّاه البرتغاليون بـ (almirante) ومعناها أمير البحر ويلقب بـ "معلم بحر الهند". فقد ظهر هذا الاسم لأوّل مرّة في العصور الوسطى المتأخّرة في القرن التاسع الهجري أو الخامس عشر الميلادي في مؤلّفات ابن ماجد أبرزها "كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد"، وكتاب "حاوية الاختصار في أصول علم البحار"، وقد ضمّنهما ابن ماجد كلّ ما عرف عن البحر في أيامه من الناحية التقنيّة التي تفيد الملاّح وتيسّر له سبل

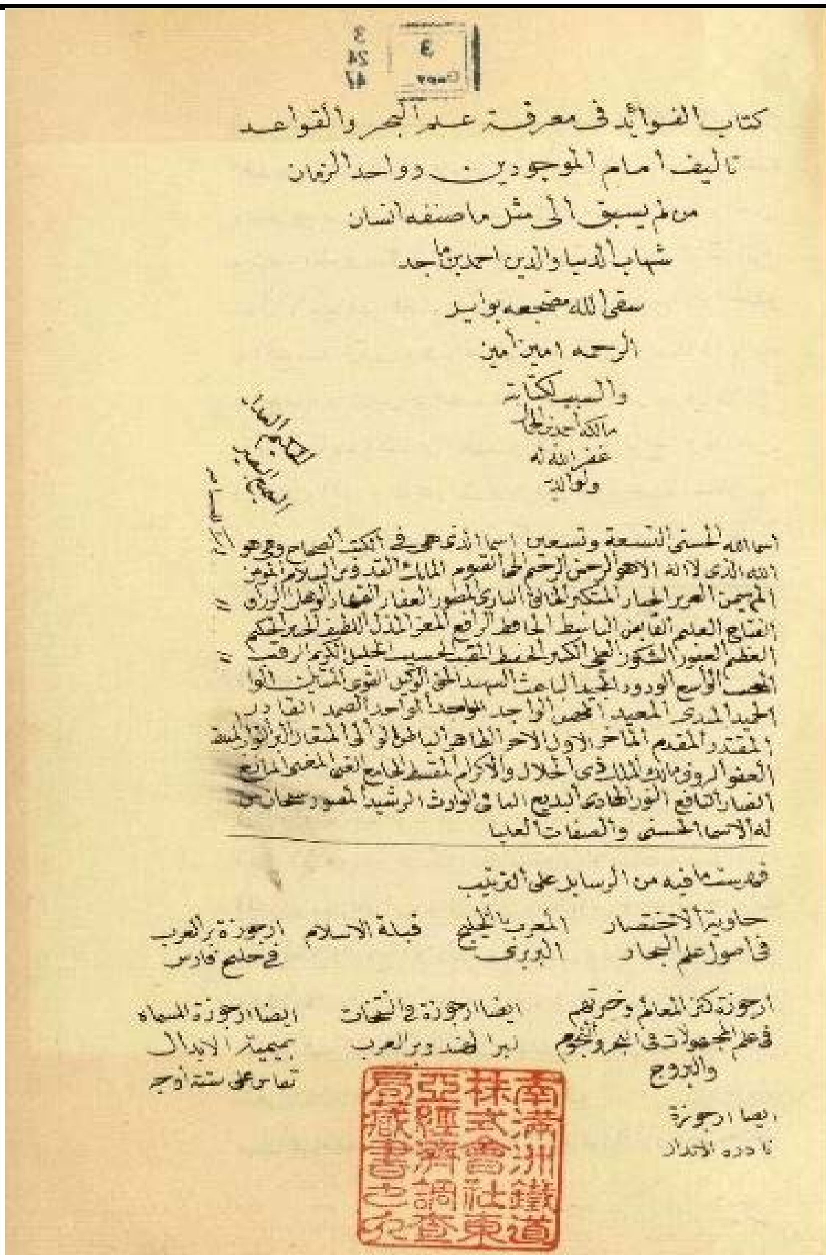
السير في "أودية البحر" ودخول الموانئ إلى جانب القياسات الفلكية للنجوم الملاحية المختلفة ومواعيد فتح البحر وغلقه(٣).

كان الدكتور أنور عبد العليم من السبّاقين لبيان ريادة العرب في علم البحر، عندما تقدّم ببحثين جديدين في مؤتمر موناكو الدولي الأول لتاريخ علوم البحار الذي عقد في كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٦، البحث الأول عن الملاح العربي أحمد بن ماجد وآثاره في علوم البحر والملاحة الحديثة، والبحث الثاني حول بعض الظواهر البيولوجية الغريبة التي سجّلها العلماء العرب في القرون الوسطى من خلال سفرهم بالبحر وسبقوا بها روّاد هذه العلوم في أوروبا بقرون. ولقي هذان البحثان اهتماماً كبيراً من رجال المؤتمر، إذ لم يكن يدور بخلد أحد أن للعرب فضلاً كذلك على الملاحة الحديثة إلى جانب أفضالهم على علوم الرياضيات والكيمياء والطب.

كما اهتمّ رئيس تحرير مجلة "بحوث أعماق المحيطات" التي تصدر في باريس ولندن ونيويورك بالبحث الذي نشره فيها الدكتور أنور عبد العليم تحت عنوان (مفهوم التيارات البحرية والمدّ والجزر والرياح عند الجغرافيين العرب في القرون الوسطى)، وعلّق عليه بقوله: "إنه ليسعدني مواصلة الدكتور أنور الكتابة في هذا المجال نظراً لأن معلومات الغربيين عن الملاحة في المحيط الهندي حتى الآن أغلبها مستقاة من المصادر البرتغالية وحدها"(٤).

أولاً – الشواهد التراثية على الملاحة البحرية العربية:

يمكن تلمّس الشواهد التراثية على الملاحة البحرية العربية من خمسة مصادر رئيسة تتمثل بالمخطوطات وكتب التراث العلمي، والمعاجم اللغوية عند العرب، وأدب الرحلات البحرية، والشعر العربي، والقرآن الكريم.



كتاب الفوائد في معرفة علم البحر والقواعد
تاليف امام الموجودين وواحد الزمان
من لم يسبق الى مثل ما صنفه انسان
شهاب الدنيا والدين احمد بن ماجد
سقى الله مضجعه بوابل
الرحمة امين امين
والسبب لكتابته
مالكه احمد ...
غفر الله له
ولوالديه

اسما الله الحسنى التسعة وتسعين اسما الذي هي في الكتب الصحاح وهو الله الذي لا اله الا هو الرحمن الرحيم الحي القيوم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل اللطيف الخبير الحكم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الاول الاخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والاكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور تعالى الذي له الاسما الحسنى والصفات العليا

فهرست ما فيه من الرسايل على الترتيب

حاوية الاختصار في اصول علم البحار — المعرب الخليج البربري — قبلة الاسلام — ارجوزة بر العرب في خليج فارس

ارجوزة كنز المعالم وحرمتهم في علم المجهولات في البحر والنجوم والبروج — ايضا ارجوزة في النخلات بر الهند وبر العرب — ايضا ارجوزة المسماه بميمية الابدال تحاسب على ستة اوجه

ايضا ارجوزة
نادرة الابدال

南満洲鐵道株式會社東亞經濟調查局藏書之印

١ - الملاحة البحرية العربية في كتب التراث العلمي والمخطوطات:

يعد شهاب الدين أحمد بن ماجد بن مُحَمَّد بن عمر السعدي، علماً من أعلام علم الملاحة العربية، عاش ما بين سنتي (٨٢٥هـ - ٩٠٦هـ/ ١٤٢١م - ١٥٠١م)، وترك آثاراً خالدة في علم الملاحة، المعتمدة في أسسها وأصولها على علم الملاحة الفلكية، ويعدّ مخطوطُهُ أهم وثيقة في الجغرافيا الفلكية والملاحية وصلتنا من العصور الوسطى على الإطلاق، وتنحصر أهميته في أنه أقدم الوثائق الجيدة التي وصلتنا عن الملاحة في البحار الجنوبية بلغة من اللغات، كما أنه يرد فيه لأول مرة ذكر اسم (علم البحر) بمعناه الواسع.

يحتوي المخطوط المذكور على كتاب (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد - النسخة الأولى المطولة ٨٨٠ هـ- ١٤٧٥م)، وعلى قصيدة طويلة هي (حاوية الاختصار في أصول علم البحار)، وذلك إلى جانب عدد من الأراجيز والقصائد التي تصف مسالك الملاحة في المحيط الهندي بين الجزيرة العربية وسواحل أفريقيا والهند والملايو وسيام وجزر أندونيسيا.

ويعدّ كتاب الفوائد لابن ماجد مثالاً لما يمكن أن تحتوي عليه "المرشدات الملاحية"، ففيه يصف المؤلف هذا العلم بأنه من العلوم المضبوطة العقلية التي تمكّن الربّان من الوصول إلى البلد المطلوب دون ميل أو انحراف، كما تعرف به خطوط الطول والعرض ومنها يمكن تحديد القبلة أو مواضع البلدان بالضبط. ويقتضي ذلك معرفة الربّان بالنجوم الملاحية وطرق رصدها بدقّة وتقسيم وردة الرياح ومعرفة الاتجاهات وكذلك مواسم السفر الملائمة وفقاً للرياح والتيارات من وإلى الموانئ المختلفة. ويضيف ابن ماجد إلى كل ذلك ما يسميه بـ "علم الإشارات" ويقصد بها معالم السواحل والجزر وخصائص المياه وطبيعة القاع وقدراً من المعلومات عن الأسماك والطيور وحشائش البحر التي تعين الربّان على التعرّف على السواحل المختلفة. كما يؤكّد ابن ماجد أهمية معرفة الربّان بالآلات والأدوات اللازمة لسير السفينة وكيفية صيانتها. وتستغرق الملاحة الفلكية بصفة خاصة جانباً كبيراً من اهتمام ابن ماجد في تلك المرشدات. ثم هو يطبّق

جميع المعلومات سابقة الذكر على وصف الطرق الملاحية المختلفة التي سلكها في المحيط الهندي بين موانئ الجزيرة العربية وسواحل إفريقيا وآسيا وجزر إندونيسيا والبحر الأحمر، وبذلك يرسى ابن ماجد قواعد الملاحة مما لا يخرج عن المفهوم الحديث.

تلا ابن ماجد العالم سليمان المهري، الذي عاصر ابن ماجد في المحيط الهندي، وواصل عطاءه في علم الملاحة البحرية، وله خمسة مصنفات في الملاحة، أولها (العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية) الذي يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٩١٧هـ (١٥١١م)، وينقسم هذا الكتاب إلى سبعة أبواب منها: ما يبحث في أصول الملاحة الفلكية والنجوم، ومنها ما يتحدّث عن الطرق البحرية والرياح الموسمية بالمحيط الهندي ووصف البحر الأحمر (بحر القلزم).

وله مصنّف كبير بعنوان (المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر)، وينقسم إلى سبعة أبواب منها: في علم دير البحور المعمورة المشهورة، وفي صفة الجزر والقياس عليها، وفي معرفة الأرياح والمحذورات.

بدأت الملاحة البحرية قديماً شاطئية، في بحر الهند والخليج العربي، ثم تطوّرت وأصبحت فلكية تعتمد على هدي النجوم في وقت مبكر، وقد أثبت العرب مهارة في الملاحة وعلم الملاحة البحرية، حيث وصل الملاّحون العرب إلى الصين والهند في عصر ما قبل الإسلام واستمر نبوغهم وتفوّقهم في العصور الإسلامية، وتحكّموا في تجارة التوابل والبهارات الهندية المتّجهة إلى أوروبا.

ففي كتابه (الملاحة عند العرب) يؤكّد الكاتب والعالم الهندي سيد سليمان الندوي (١٨٨٤ – ١٩٥٣) أن العرب هم الذين سعوا إلى أقاصي الشرق، وليس العكس، وإن عبارة "سفن صينية" التي كان يستخدمها المؤرّخون والجغرافيون العرب كانوا يقصدون بها أحياناً السفن العربية التي كانت تُبحر إلى الصين، إذْ لم تعرفْ المياه العربية سفناً غير عربية أبحرت فيها غير سفن القراصنة الهنود[٥].

لا شك أن للعرب باعاً طويلاً في الملاحة البحرية، وأسهموا في تقدّم الملاحة الفلكية الحديثة التي تعتمد بالدرجة الأولى على أرصاد النجوم الملاحية التي لا تزال

تُعرف بأسمائها العربية إسهاماً كبيراً وذلك لاعتمادها على علم حساب المثلثات المستوية والمثلثات الكروية، وقد وضع أصولها علماء عرب واستخدموها في قياساتهم الفلكية وفي ضبط المراحل الملاحية.

هذا أمر سُجل للعرب منذ قديم الزمان، أي قبل ظهور الإسلام بكثير، حيث اشتهرت مصر في ذلك الوقت ببناء السفن المتينة التي كانت تمخر عباب البحرين الأبيض المتوسط والأحمر، على الرغم من أن الأخشاب اللازمة لصناعة السفن البحرية لم تكن متوافرة في مصر، إلا أنها كانت تُستورد من سورية ومن جزر البحر الأبيض المتوسط، وفي القرن السادس قبل الميلاد خرجت من مصر بعثة قام بها أسطول الفرعون "نخاو" من ملوك الأسرة السادسة والعشرين لتدور حول إفريقيا من الشرق إلى الغرب، وتدخل البحر الأبيض المتوسط عن طريق مضيق جبل طارق الذي كان يسمى آنذاك "أعمدة هرقل"، وهي الرحلة التي قال عنها المؤرخ اليوناني القديم "هيرودوت" (٤٥٠ ق.م) إنها استغرقت ثلاث سنوات، وكيف أن الشمس كانت تشرق عن يمينهم بعد ما داروا حول إفريقيا.

ووصف المؤرخ اليوناني "أجاثاركيدس" عرب سبأ بأنهم ملاّحون مهرة ومحاربون أشدّاء وبأنهم (يبحرون في سفن كبيرة للبلاد التي تنتج العطور وكانت لهم فيها مستعمرات يستوردون منها نوعاً من العطر لا يوجد في جهة أخرى)[٦]، وفي هذا القول ردّ على المستشرق "هارتمان" الذي كان يقول إن العرب لم يكن لهم دراية بالبحر وأنهم يرهبون ركوبه.

لقد كان العرب سبّاقين إلى معرفة سرِّ الرياح الموسمية، وعنهم أخذ اليونان؛ بل إن المراكب العربية هي التي كشفت مجاهل المحيط الهندي إلى الصين، الأمر الذي دفع "فاهيان" الذي زار سيلان عام ٤١٤ م إلى أن يقول (إن ديار تجار عرب سبأ هناك في سيلان مزيّنة بأبهج الزينات).

واهتم العديد من الباحثين الغربيين في التحقّق من صحة ومصداقية علاقة العرب الجنوبيين بالبحر، وتواصلهم مع الشرق الأدنى، فكان منهم الباحث الفرنسي

(Guillain) الذي أشار إلى سبق العرب في السيادة البحرية، على طرق "الشرق الأدنى" البحرية، فيقول: قبض العرب منذ أقدم العصور على زمام المبادرة في التجارة البحرية، وخاصة مع الشرق، فكانت سفنهم تجري في المحيط الهندي، لا سيما فيما بين بلادهم والهند، والتي كان لهم على سواحلها جالية كبيرة، قرب مصبّ نهر السند، وهي التي كان الهنود يسمّونها (ARABTTA).

كانت السفن العربية قديماً (قبل الإسلام) تصل إلى بحر السند وشواطئ مالبار وتعود محمّلة بالأقمشة والحرير والتوابل والسيوف الهندية وبعد الإسلام بدأ الملاحون العرب يتوافدون على سواحل الهند.

واستعان العرب بالنواخذة (جمع ناخُذا: القبطان) والبانانية (الملاّحين) ممّن عرفوا مسالك البحر وخبروا أنواءه وأجواءه، وقد عرف العرب الأيام التي تهبّ فيها الرياح الموسمية وحدّدوا الأوقات الملائمة لسير السفن في المحيط الهندي، حيث يذكر المسعودي: "أن الملاّحين العرب كانوا يستعينون في أسفارهم بدليل سمّوه راهنامه".

ويقول جورج فضلو حوراني في كتابه: (العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى): "الحقيقة التي يجب أن تنتشر بين الناس أن زمام البحر كان في يد العرب حتى القرن الخامس عشر الميلادي، وأن الغرب حين بدأ يتطلّع إلى ما وراء البحار لم يستطع أن يجوب البحر إلا بمعونة من مرشد عربي هو شهاب الدين أحمد بن ماجد الذي ساعد "فاسكو دو غاما" على أول رحلة له في المحيط الهندي"[٧].

وتشير الوثائق الصينية إلى مراكب سكان غرب المحيط الهندي، والمراد بهم العرب، والتي كانت تُشاهد في ميناء (كانتون) الصيني، منذ عام ٥١ هـ (٦٧١ م)، ومن الموانئ العربية التي ارتبطت تجارياً في شرق إفريقيا والشرق الأدنى ميناء (صحار) في عُمان، والمكلاّ في حضرموت، وميناء (مخا) في اليمن، والذي كانت مكانته عاليةً جداً عبر التاريخ.

كما برع العلماء العرب المسلمون في علم البحار والملاحة براعة قلّ نظيرها ووضعوا فيها المخطوطات النادرة كعماد الدين إسماعيل أبو الندا (١٢٧٣ – ١٣٣١م) في مخطوطه "تقويم البلدان" يورد فيه معلومات حديثة عن البحار والمدّ والجزر ويصف لنا فيه بلاداً نائية زارها مثل بريطانيا وإيرلندا.

والشريف الإدريسي في مخطوطه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" الذي انتهى من تأليفه عام ١١٥٤م والكثير من المخطوطات التي تؤكّد ريادة العرب في علم الملاحة.

ما كان لعلم الملاحة البحرية أن يقوم لولا علم الملاحة الفلكية، وقد أبدع العرب في كلا العلمين، فكانوا من أصحاب السبق على غيرهم من الأمم في هذه العلوم، وأثروا بهذه العلوم المكتبات العالمية، بما خلّفوه من آثار وتراث عظيم فيها، ومن العلماء الذين برعوا في هذا الفن: أبو الفداء ملك حماة، والبيروني. والمتتبّع للمتون التي صاغها ابن ماجد والمهري في علوم الملاحة الفلكية يستطيع أن يتعرّف على هذه المكانة العلمية التي ارتقى فيها هؤلاء وغيرهم من العلماء، فهم الذين صنعوا واكتشفوا الإبرة المغناطيسية، وهم الذين صنعوا الاسطرلاب، قبل أن يعرف البحّارة الأوروبيون مثل هذه الوسائل[٨].

٢ ـ الملاحة البحرية في معاجم اللغة العربية:

تحتوي معاجم اللغة العربية الكثير من الكلمات والمفردات عن الملاحة والسفن والبواخر والأشرعة والأسفار البحرية، وقد ورد في معجم المعاني الجامع أن البَحْر: ضِد البَرّ، يَمّ، وهو مُتَّسع من الأرض أصغر من المحيط مغمور بالماء المِلْح أو العَذب، وتشغل البحار والمحيطات والأنهار أكثر من ثلثي مساحة الكرة الأرضية، وأعالي البحار: المياه المفتوحة البعيدة عن المياه الإقليميّة لبلدٍ ما، ودوَّامة البحر: وسطه الذي تدوم عليه الأمواج، ركِب البحر: أَبْحَر، عُباب البحر: موجُه، والبحر: كلّ نهر عظيم بحر النيل.

وفي معجم لسان العرب، البَحْرُ: الماءُ الكثيرُ، مِلْحاً كان أَو عَذْباً، وهو خلاف البَرِّ، سُمّي بذلك لعُمقِهِ واتّساعه، قد غلب على المِلْح حتى قَلّ في العَذْبِ، وجمْعُه أَبْحُرٌ وبُحُورٌ وبِحارٌ، وماءٌ بَحْرٌ: مِلْحٌ، قَلَّ أَو كثر؛ قال نصيب:

وقد عادَ ماءُ الأَرضِ بَحْراً فَزادَني إِلى مَرضي، أَنْ أَبْحَرَ الـمَشْرَبُ العَذْب

وفي المعجم المدرسي؛ البحر: جمع أَبْحُرٌ وبِحَارٌ وبُحُورٌ اليم، متّسع الماء، الكريم، والبحري أو البحّار: الملاّح أو البحّار – النوتيّ[٩]، وفي مختار الصحاح: البَحْرُ ضد البر قيل سمّي به لعمقه واتّساعه، وكل نهر عظيم بحر ويسمّى الفرس الواسع الجري بَحْراً، وماء بحر أي ملح، وأَبْحَرَ ملح، وأبحر الرجل ركب البحر، وبَحْرَيْن بلد والنسبة إليه بحراني.

الـمِلاَحَةُ: اسم يُستدلّ على حرفة الـمَلاَّح، والـمِلاَحَةُ البَحْرِيَّةُ: فَنُّ السَّفَرِ فِي البِحَارِ أَو الأَنْهُرِ الكُبْرَى، مَلاَّحُ السَّفِينَةِ: النُّوتِيُّ، أَيْ مَنْ يَعْمَلُ فِي السَّفِينَةِ، رُبَّانُهَا، أما الـمِلاَحَةُ الجَوِّيَّةُ فهي: فَنُّ السَّفَرِ فِي الجَوِّ، وملاّحو الطّائرة: طاقمها الذين يؤمّنون قيادتها، ومَلاَّحُو الجَوِّ: العَامِلُونَ فِي مَجَالِ الطَّيَرَانِ، رَبَابِنَةُ الطَّائِرَةِ.

اشتُقّت كلمة ملاّح من ماء البحر أولاً، ثم بدأ العرب يطلقون كلمة ملاّح على العاملين في البحر، وأطلقوا كلمة مِلاحة على من يحترف العمل في البحر، والملاحة هي علم وتقنية توجيه السفن أو الطائرات من مكان لآخر وتحديد موقعها، وهي تمثّل عملية التخطيط والتسجيل والتحكّم بحركة المراكب أثناء الانتقال.

السفينة والباخرة: في معاجم اللغة العربية كلمة "سفينة" جمعها: سُفُنٌ، وسَفَائِنُ، وسفِينٌ، فهي فُلْك، أي مركب لنقل النَّاس أو البضائع في البحر أو النهر أو الفضاء الخارجي، ففي لسان العرب: السَّفِينة: الفُلْك لأَنها تَسْفِن وجه الماء أَي تقشره. وسفينة الفضاء: مركبة تُرسل إلى الفضاء الخارجيّ لأغراض علميّة، وسفينة نوح عليه السَّلام: مركب كبير بناه نوح عليه السلام بأمر من الله لينجو هو ومن آمن معه من الطُّوفان، وسفينة هوائيَّة: مركبة هوائيّة كالمنطاد أو البالون، أخفّ من الهواء، تدفعها قوَّة مُحرِّكة، وتُستخدم غالبًا في رصد حالات الطقس.

وكلمة "باخرة" هي اسم جمعه باخِرات وبَواخِرُ، ومعناها: سَفينةٌ كبيرةٌ تُسيَّرُ بقُوّة البُخار تَحْمِلُ أعداداً كبيرةً من المسافرين، بينما "القارب" فهو مركب صغير يرافق الباخرة الكبيرة لحمل أثقال الأمتعة الزائدة وقت الخطر. وكلمة "زورق" جمعها: زوارق، تعني:

القَاربُ يُدفع بالمجاديف، أو بالآلة، وَهُوَ أَنْوَاعٌ: زَوْرَقُ صَيْدٍ، زَوْرَقٌ بُخارِيٌّ، زَوْرَقٌ هَوائِيٌّ، ورياضة الزَّوارق الشِّراعيَّة هي: رياضة الإبحار بالوقوف على زَوْرق، وزورق هوائيّ: زورق عريض القَعْر يَعْمل بِمِرْوَحَة هوائيّة يُستخدم في المياه الضحلة والمستنقعات (ملاحة).

ومن تسميات أجزاء السفينة:

(الصواري: مجموعة من الأخشاب مختلفة الأحجام تمتد من مقدمة السفينة إلى مؤخرها لرفع ألواح السطحة، المشايات: عبارة عن فتحات يثبت فيها صاري السفينة، العوبيدار: هي بكرة خشبية ثابتة تستعمل لرفع الشراع، ألواح السطحة: هي ألواح خشبية تشكّل فيما بينها سطح السفينة، الفح: حزام السفينة الداخلي ويقع في وسطها، حجاب: عبارة عن لوح أمامي من الخشب يقع فوق كشتيل صدر لمنع تسرّب المياه، جالي: غطاء يستخدم في تغطية فوهة عنبر السفينة "الجامرة، شلمان: والجمع شلامين وهي عبارة عن أضلاع خشبية تستند عليها الألواح الخارجية للسفينة، عطفة: عبارة عن أضلاع خشبية مقوّسة تأخذ شكل هيكل السفينة وتسند أضلاعها الخشبية، كروة: أضلاع خشبية على شكل زوايا تثبت في صدر السفينة.. إلخ والقائمة تطول..).

كما ظهرت كلمة سُنبوك، وهي اسم جمعه: سَنابِيكُ، والسُّنْبُوكُ: السُّنْبُوقُ، في معاجم اللغة يعني: زَوْرَق صغير، وهو من أنواع المراكب التي كانت شائعة على سواحل الخليج والبحر الأحمر وبلاد الشام لاحقاً، وهناك نوعان من السنابيك، سنبوك الأسفار والتنقّل بالسنبوك اليماني، والنوع الآخر يستعمل في رحلات الغوص والأسفار القريبة، وذكره الفيروز ابادي بالقاف: السنبوق كعصفور زورق صغير، وهناك من ذهب إلى أن المفردة ذات أصل يوناني أو لاتيني، وهو نوع من العود كانت تُصنع منه السفن على هيئته فسمّيت به.

وفي أقدم إشارة إليه (الجاحظ) نخرج بصورة عن مركب كبير يتّسع لألف رجل محارب بعدّهم وعتادهم: (إن ملك الزنج إذا غضب على أهل مملكته ولم يتّقوه بالخراج، بعث ألف سنبوقة في كلّ سنبوقة ألف رجل)، وهي إشارة تعزّزها بعض روايات ابن

بطوطة من أن السنبوق كان يستعمل في السفر والتنقّل في البحر الأحمر وسواحل اليمن، إضافة إلى السنبوك، هناك أسماء لبقية سفن الغوص مثل: (البتيل، بقارة، بوم، جالبوت، شوعي).

عندما طوّر العرب الملاحة بعد عصر الإسلام، ظهرت كلمات جديدة منها: "خطف" أي أبحرت السفينة بعد فك الخطّاف، يقول سليمان التاجر سنة ٢٢٥ هجرية ٨٣٩ ميلادية في رحلته: "هذه كلمة يستعملها أهل البحر يعني يقلعون إلى موضع، والمعنى القديم لهذه الكلمة هو "خطف" أو "اختلس"، كذلك "إقلاع" وكانت بمعنى فتح الشراع، وبدؤوا يتداولونها بمعنى إقلاع السفينة وإبحارها.

ومن مفردات الملاحة: كلمات قديمة عربية خالصة: إقلاع، إنشاء، إشراع، إرفاء وإرساء، جدف، جذف، مجداف، مجذاف، مردى، مقذف، مقذاف، (وسكات) مجداف، (كوثد) مجداف، (قلع) شراع، جل (قلع)، دقل[١١]، صاري، قلس (حبل)، (جؤجؤ) الجزء الأمامي للسفينة، دسار، ومسمار، تسمر، خزر، قلف، لوح، ملاح (رياح صديقة)، شحن، زيار (حبل)، مخر، سابور، صابور وصبر (ما يثقل به السفينة).

صاري: ورد في المعجم الوسيط أن معنى كلمة صاري: اسم جمعه: صَوَارٍ، وصُرَّاءٌ، والصَّارِي: عمود يقام في السفينة يُشدُّ عليه الشِّراع، والصَّارِي: الـمَلاَّحُ والجمع: صُرَّاءٌ، ووردت كلمة صاري في إحدى قصائد الأعشى ميمون.

رُبّان (قبطان): اسم جمعه: رَبابِنُ ورَبابِنة، والرُّبّانُ: رئيس الملاّحين، وهي كلمة عربية قديمة مشتقة من رب، أي سيد أو مالك، كما كان الملاّحون في العصر العباسي يطلقون تسمية الرؤساء على كبار البحّارة، مفردها رئيس، ومن هنا جاءت كلمة "ريّس" التي تُطلق على قبطان السفينة.

المرفأ: تعد من أقدم الكلمات في اللغة العربية التي تشير إلى الميناء، وهي مشتقة من "رفأ"، ومعناها وقوف السفينة، جمعها: مَرافِئُ، والـمَرْفَأُ: مَرْسَى السُّفُن، دنت السفينة من المرفأ فاستعدّ الرّكّاب للنزول، وفي الصحاح: أَرْفَأْتُها إِرْفاءً: قَرَّبْتها من الشط، وهو الـمَرْفَأُ، والـمِيناء: جمعه موانئ، أي مَرْفأ السُّفُن أو مرسى السفن.

ساحِل: اسم جمعه سَواحِلُ، والسّاحلُ: هو المنطقة من اليابس التي تُجاورُ بحْراً، أو مُسَطَّحاً مائياً كبيراً، وتتأثّر بأَمواجه، وفق ما ورد في معجم الوسيط.

شاطِئ: هي اسم جمعه: شَواطِئُ، شُطآنٌ، ومعناها: يابس على طول حافّة محيط أو بحر أو بحيرة أو نهر. بينما كلمة ضِفّة فهي اسم جمعه: ضِفَافٌ، ضِفَفٌ وَتُجْمَعُ ضَفَّةٌ عَلَى ضَفَّاتٍ، ضِفَّةٌ، ضَفَّة النَّهْرِ: شَطُّهُ، جَانِبُهُ، وضِفَّةُ البَحْرِ: سَاحِلُهُ.

كما عدّد العرب أنواعاً كثيرة من سفن الأساطيل ورد ذكرها في أشعارهم أو في كتب الأدب والتاريخ مثل موسوعات الطبري وابن الأثير. وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد في الشعر العربي ذكر سفن الخلية (وهي السفينة الكبيرة) والعدولية والبوصى (الزورق) والغراب (وهي سفينة تختلف في الحجم وعدد الرجال وكثيراً ما تُطلى بالسواد) وغيرها وغيرها[١٠].

ومن المصطلحات العربية الملاحية نجد في الأشعار القديمة وقواميس اللغة كلمات مثل: جؤجؤ السفينة (مقدمتها) وكوثلها (مؤخرتها)، وخشب (بمعنى سفن) وتجمع على خَشبات (بفتح الخاء) وخُشب (بضم الخاء) وأخشاب، وكلمات: ندخ، نتخ ومنها الندخة والنتخة (وهي في الأصل بمعنى صدم وتستعمل هنا لدخول المراكب إلى الموانئ ويقال ندخ البر)، وأقلع بمعنى فتح القلع أو الشراع استعداداً للرحيل، والخب ضرب من المشي يستعمل للخيل ويطلق مجازاً على السير في البحر المائج.

وهناك كلمات عربية ملاحية قلما نسمع بها اليوم ومنها دمَّ السفينة أي طلاها بالقار ومنها قلفظ أو قلفط السفينة أي سد خروقها والاسم منها قلفطة ويشير ابن جبير في رحلته المشهورة إلى سد خروق مراكب البحر الأحمر بالدسر المصنوعة من عيدان النخيل[١٢]. وهناك الحُقّة وهي بيت الإبرة أو (البوصلة الملاحية) والقلس وهو حبل ضخم من الليف.

وبعودة الدكتور أنور عبد العليم إلى عدد من كتب التراث العربي وجد ذخيرة لا بأس بها من المصطلحات العربية المرادفة لمصطلحات حديثة في علوم البحار. ويؤدّي بعضها المعنى المطلوب خيراً من المرادف الأجنبي. وساق من ذلك أمثلة: كلمة "أقاصير"

التي وردت في كتاب الإدريسي وهي الحواجز الرملية في مداخل الموانئ أو مصاب الأنهار التي تتعذّر الملاحة فوقها لقصر الماء[13].

وبطبيعة الحال دخل اللغةَ العربية نفسها ألفاظٌ ملاحية ترجع أصولها إلى اللغات الفارسية أو الهندية أو اللاتينية وحتى بعض كلمات من اللغة الصينية، كما دخلت ألفاظ عربية ملاحية على تلك اللغات.

كثيرة هي الكلمات ذات الأصل العربي التي دخلت اللغات الأجنبية وتكاد لا تحصى، منها: (أرسينال: دار الصناعة "صناعة السفن"، أميرال: أمير البحر، رايس: رئيس البحارة "الريس بالعامية"، مونسون: الرياح الموسمية، تاريف: من تعريف ويقال "التعريفة الجمركية"، مجازين: من مخزن، شيك: من صك، كابل: من حبل، فلوكية: من كلمة "فلك" العربية، دوجانة: من ديوان العربية وهو الجمرك اليوم، مدراتا: من سفينة الحرب العربية "المدرعة").

وقد شاع استخدام بعض المصطلحات الملاحية وبخاصة من الفارسية والهندية والعربية بين ربابنة المحيط الهندي سواء أكانوا من العرب أو العجم أو الزنج أو الهنود فكلمة "معلم" و"ناخذه"، و"ربّان"، و"رهمانج" و"زام" (وحدة قياس المسافة) و"إصبع" (وحدة قياس ارتفاع النجوم) و"أنجر" كانت معروفة للجميع.

٣ – الملاحة البحرية في الشعر العربي:

تؤكد كثير من الدلائل والإشارات قِدَم علاقة العرب بالبحر، حيث تناشد العرب في شعرهم بذكر أنواع من السفن التي لم يكن للغرب سماع بها أصلاً عن معرفتها وركوبها، فعلى سبيل المثال نجد في الشعر العربي ذكر سفن الخلية وهي السفن الكبيرة والعدولية والبوصي والغراب، إذ يقول طرفة بن العبد يصف المراكب الكبيرة وتمايلها ذات اليمين وذات الشمال في إحدى المعلقات السبع:

كأنّ حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد

عدولية أو من سفين ابن يامنٍ يجور بها الملاّح طوراً ويهتدي

والحدوج: جمع حدج، وهو من مراكب النساء، والمالكية: نسبة إلى مالك بن سعد بن ضبيعة، والنواصف: جمع ناصفة، وهي الرحبة الواسعة، وابن يامن: كان ملاّحاً عربياً من سكّان البحرين، مهر في صناعة السفن وذاع صيته قبل الإسلام.

ويقول عمرو بن كلثوم:

ملأنا البرَّ حتى ضاق عنّا   وموج البحر نملؤه سفينا

ويقول ابن أبي حجلة المغربي من شعراء المغرب:

غربانها سود وبيض قلاعها   يصفرّ منهن العدو الأزرق

٤- الملاحة في أدب الرحلات البحرية:

يعدُّ القصص البحري مصدراً مهماً من مصادر تاريخ الملاحة العربية وخاصة في القرنين التاسع والعاشر للميلاد. وقد نشأ هذا اللون من الأدب أول ما نشأ في سيراف على الخليج العربي حين كان هذا الثغر مركزاً لتلاقي البحارة والتجار من مختلف الأجناس. وراجت في ذلك الوقت أخبار الملاحة والقصص التي تداولها البحّارة وربابنة السفن (أو النواخيذ) وأصحابها (الاشتيام) وتعكس مثل هذه القصص مغامرات الملاّحين في البحار النائية كما تصف أهوال الملاحة فيها والأخطار التي يتعرّض لها البحّارة بحكم عملهم. كما تضمّنت هذه القصص الكثير من الأساطير أو الأعمال البطولية التي يلذُّ للعامة والخاصة سماعها على الدوام، ومن ثم فقد راجت رواجاً كبيراً.

وأقدم هذه القصص في مخطوط قديم بعنوان رحلة التاجر سليمان يرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٢٣٧هـ ٨٥١م وفيه وصف ممتع للطريق الملاحي بين سيراف وكانتون ومقارنة طريفة بين أحوال أهل الهند وأهل الصين، وقد عنى بدراسة هذا المخطوط الذي توجد نسخته في مكتبة باريس كل من المستشرقين الفرنسيين "رينو" و"فران" ثم "سوفاجيه" من بعدهما.

تصف رحلة التاجر سليمان المراحل البحرية بين (سيراف) و(مسقط) ومن هناك إلى (كليم) على ساحل (الملبار) ثم عبر جزيرة (سيلان) و(خليج البنغال) حتى جزيرة

(لنجبالوس) إحدى جزر (نيكوبار) ومن هناك إلى (كله بار) على ساحل (الملايو) الغربي ومن ثم إلى جزيرة (تيومن) الواقعة إلى الجنوب الغربي من (ملقا) ومنها إلى قرب (سايجون) ثم إلى جزيرة (هاينان) فعبر المضيق الذي يوصلها إلى أرض الصين ليصل إلى ميناء (خانفو) أو (كانتون) بالصين. كما يصف سليمان التاجر مراحل هذا الطريق والمدّة التي تستغرقها المراكب في قطع كل مرحلة وغرائب الحياة على الجزر ويذكر قصصاً أسطورية تنوقلت كثيراً فيما بعد وصارت جزءاً من الأدب الشعبي العربي في عواصم الأقطار العربية كلها(١٤).

ثم ظهرت بعد هذا المخطوط بنحو نصف قرن مجموعة من القصص البحري المعروفة باسم "عجائب الهند"، وقد جمعها ربّان يدعى بزرك بن شهريار الرام هرمزي بين سنوات ٩٠٠ – ٩٠٥ م، ولا ريب أنه سمعها هو الآخر من أفواه الربابنة ورجال البحر، إذ ينسب كل حكاية من هذه الحكايات إلى ربّان أو شخص بعينه.

وتحتوي هذه القصص على كثير من الأساطير البحرية كما تضم بين دفتيها رصيداً من التجارب الصادقة والملاحظات الملاحية الطريفة وتتميز بأسلوب رائع وخيال مشوق(١٥).

وفي كتاب زكريا بن محمّد القزويني المعروف باسم (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) أوصاف ممتعة عن أحوال البحار وعجائبها وعن حيوانات بحرية غريبة ممزوجة بالأساطير، ويرجع تاريخ تدوين هذا الكتاب إلى عام ١٢٨٠م ويعتبره بعض العلماء "قمة الكزموجرافيا العربية"، وهو من الكتب العربية القليلة التي زينت برسوم دقيقة(١٦).

ومن بلاد الأندلس يوافينا الغرناطي في مؤلفه (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب) الذي أتمّه في عام ١١٦٢م ويعدّ فريداً بين كتب العجائب، ويتضمن أحد أبوابه: صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار وما في جزائرها من أنواع النفط والنار(١٧).

وهناك كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي الذي توفي عام ١٢٢٩م ويحصي فيه المدن والقواعد البحرية، إضافة إلى معلومات هامة عن الأساطيل البحرية الإسلامية يجدها القارئ في كتب التاريخ وخاصة من القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، من أمثال كتب البلاذري والكندي والطبري.

تروي القصص والحكايات البحرية وكتب الجغرافيا الوصفية والرحلات، وكتب العجائب عمق التجربة الملاحية للعرب منذ القرن التاسع الميلادي على الأقل وبخاصة في المحيط الهندي وجزره وخلجانه أو في أرخبيل الملايو وبحر الصين وعلى سواحل إفريقيا الشرقية حتى سفالة إلى الجنوب.

إلا أن القصص البحرية والحكايات التي تداولها الملاّحون والتجّار عن البحار واتّساعها وغرائبها وأهوالها لم تكن في جملتها ذات طابع علمي يوصلنا إلى الاستدلال على الخبرة الملاحية للملاحين العرب في ذلك الوقت والتي كانت ولا ريب على درجة كبيرة من التقدّم.

٥- البحر في القرآن الكريم:

ورد في القرآن الكريم ثمانية وعشرون آية في سور مختلفة تتصل بالبحر والفلك والملاحة منها ما يتعلق بالصيد واستخراج اللؤلؤ والمرجان أو نقل التجارة والركاب كما في قوله تعالى (وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) "سورة النحل آية ١٤".

أو قوله تعالى: (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون)، "سورة الأنعام آية ٩٧".

وللمرحوم الدكتور عبد الفتاح مُحَّد أستاذ علوم البحار الطبيعية بجامعة الإسكندرية سابقاً رأي جدير بالنظر في تفسير آيتي (مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان)، "سورة الرحمن، الآيتان: ١٩ و٢٠"، وكان قد درس نظام التيارات والكتل المائية بين

المحيط الهندي والبحر الأحمر على سفينة البحث العلمي "مباحث" في عام ١٩٣٤ ويتلخص هذا الرأي في أن الكتلة المائية من مياه البحر الأحمر التي تنحدر من الطبقات تحت السطحية من فوق السد المغمور مضيق باب المندب تشقّ لها مساراً معيناً في مياه المحيط الهندي العميقة بينما الكتلة المائية التي تدخل البحر الأحمر من هذا المحيط إنما تفعل ذلك على السطح ولا تختلط الكتلتان أبداً عند برزخ باب المندب فإنما التقى البحران بحق: البحر الأحمر والمحيط الهندي دون أن تختلط مياههما عند البرزخ، وهو برزخ باب المندب.

٦- آلات الرصد والقياس في علم الملاحة البحرية العربية:

استخدم العرب آلات لقياس ارتفاع الشمس أو النجوم والكواكب فوق الأفق سواء على البر أم في البحر، ومن هذه الآلات ما تمّ تطويرها ومنها ما تم اختراعها، ونجمل هذه الآلات في الآتي:

أ - الاسطرلاب:

هو آلة يونانية يعزى ابتكارها لمدرسة الإسكندرية في العصر الهلّيني (القرن الثاني بعد الميلاد). تمّ تطويرها على أيدي العرب في القرون الوسطى وإليهم يعزى ابتكار الاسطرلاب المكمل. وعن العرب نقلها الأوربيون في العصور الوسطى واستخدموها في الملاحة لقياس ارتفاع الأجرام السماوية.

ورد في بعض المصادر العربية: أنه عبارة عن قرص معدني مقسم إلى ٣٦٠° درجة ويُعرف بميزان الشمس[(١٨)].

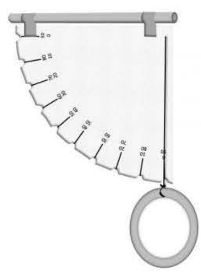
تؤدّي مثل هذه الآلة الصغيرة عمليات فلكية على جانب كبير من الأهمية. وهي وإن كانت ليست في دقّة الآلات الفلكية الحديثة إلا أن استعمالاتها المختلفة تجعل لها وزناً خاصاً عند علماء الفلك.

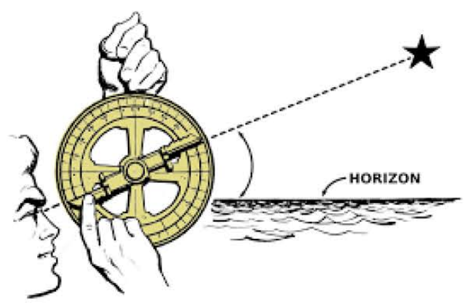
وقد يحتوي قرص الإسطرلاب على "مربع بطليموس" الذي بنى عليه أبو موسى الخوارزمي الربع المجيب، ومن هذا الربع المجيب ابتكر الخوارزمي المقياس باسم "عصا

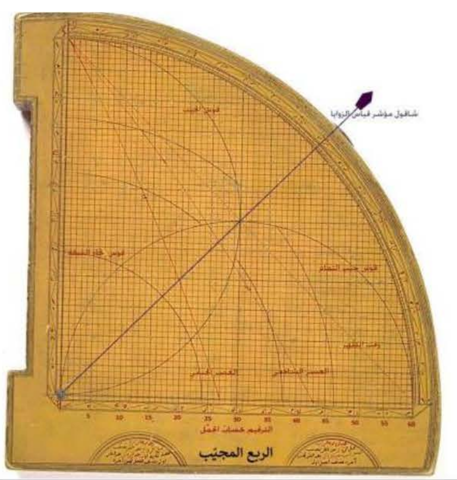
الخوارزمي"، كما بنيت على أساس هذه الفكرة كثير من الآلات الملاحية العربية البسيطة التي تحدّد ارتفاع النجم ليلاً بالأصابع مثل خشبات ابن ماجد والمهري وغيرها(١٩).

ب- ربع الدائرة أو "المربع":

هو قوس قدره ٩٠ درجة من دائرة الاسطرلاب مثبّت عليه خيط يتصل بثقل من الرصاص ويكون هذا الخيط ضلع الزاوية التي تحدّد ارتفاع النجم فوق الأفق وفكرته مأخوذة من الربع المجيب للخوارزمي.



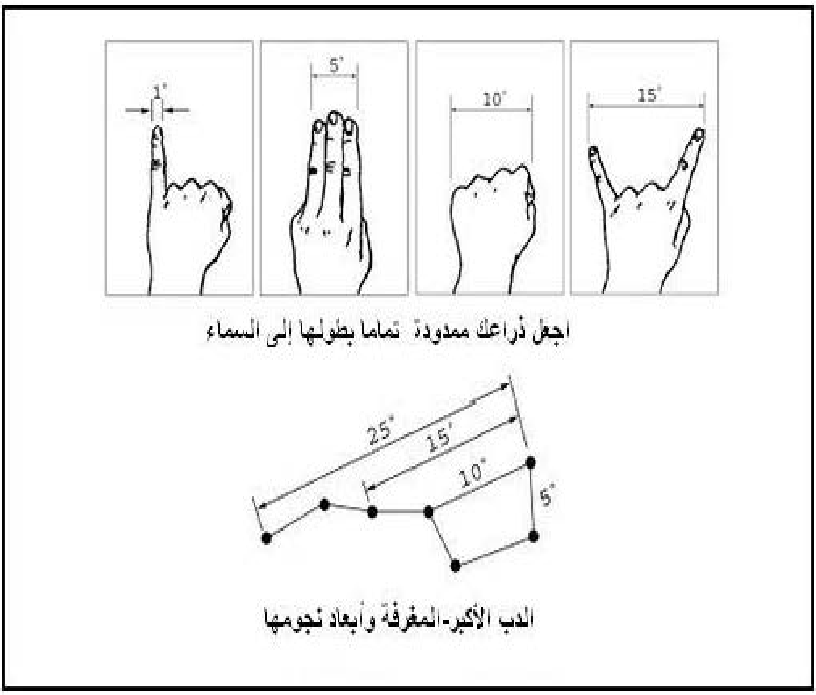




الربع المجيب

وأقدم وصف لربع الدائرة في المصادر الأوربية يرجع لعام ١٢٧٦م أي للقرن الثالث عشر الميلادي لمؤلف يدعى "روبرت انجليس" من مونبليه لا شك أنه مقتبس من وصف الآلات العربية المماثلة التي كانت سائدة بين الملاحين العرب في البحر المتوسط في ذلك الوقت(٢٠).

ج- القياس بالأصابع:



أوجد ابن ماجد صلة بين تقسيم دائرة الأفق إلى ٣٢ جزءاً تماثل أخنان البوصلة وبين استخدام قبضة اليد والذراع مبسوطة في اتجاه البصر أمام الراصد. فقبضة اليد من الخنصر إلى الإبهام والذراع ممدودة إلى الأمام تمثل ٣٢/١ جزءاً من محيط دائرة مركزها نقطة اتصال الذراع بالكتف.. وربما كان هذا هو الأساس الذي بموجبه قسمت الحُقة العربية (البوصلة) إلى ٣٢ خناً(٢١).

د – البوصلة (الحُقة):

بذل الدكتور أنور عبد العليم جهداً كبيراً في الاطلاع على كثير من مصادر البحث وكتب التراث القديمة بغية الوصول إلى حقيقة صنع البوصلة، وأوضح بعض النتائج والملاحظات التي توصّل إليها في دراسته تتعلق بأخطاء وقعت فيها دوائر المعارف (الإنسيكلوبيديا) التي درج الناس على اعتبار ما يرد فيها قضايا مسلّمة ومنها:

* إن أغلب دوائر المعارف الأوربية لا ترجع إلى المصادر العربية الأصلية في بحثها عن تاريخ البوصلة الملاحية بل لا تشير إليها، حتى ولا إلى المراجع الأوربية المتخصّصة التي كتبها المنصفون من المستشرقين عن هذه المصادر العربية. فدائرة المعارف البريطانية مثلاً لا تذكر شيئاً عن مؤلفات ابن ماجد ولا عن مرجع جبريل فران المهم الذي صدر في عام ١٩٢٨ تحت اسم "مقدمة في الملاحة الفلكية العربية".

وتضيف دائرة المعارف المذكورة أن تقسيم دائرة الأفق إلى ٣٢ قسماً أو خنّاً المعروفة في وردة الرياح ترجع إلى اصل أوربي وهذا خطأ كبير، إذ إن هذا التقسيم ليلي يعتمد على مطالع ومغارب النجوم الملاحية ويرجع إلى زمن قديم وقد استخدمه الملاّحون العرب والفرس وغيرهم في المحيط الهندي من قبل أن تعرفه أوروبا بقرون[٢٢].

ومن أقوال ابن ماجد في (حاوية الاختصار في أصول علم البحار) سنة ٨٦٦هـ-١٤٦٢م:

وجـــوّدِ الآلـــة قبـــل الســـفر　　　كحقـــة أو كقيـــاس أو حجـــر

والبلـــدِ والفـــانوسِ والرهمـــانج　　　وإن تكـــن ســـافرت كمـــن حـــج

في هذين البيتين يختم ابن ماجد الفصل الاول من أرجوزته الشاملة لمعارفه الأساسية في الملاحة بذكر احتياطات السفر في عرض البحر، ويعطي الأولوية لما يسميها في كل أراجيزه وقصائده بـ (الحقة) ويقصد بها البوصلة التقليدية في ذلك العهد، كما ينصح بتوفير البحّارة عدّة إبحارهم قبل السفر، بما فيها الفوانيس، والخرائط، ودفاتر الإرشادات البحرية، التي كانوا يُطلقون عليها آنذاك (الرهمانج) وفقاً للتسمية الفارسية المتداولة[٢٣]. ومعنى هذين البيتين أن الربّان العربي يوصى بفحص وتجهيز الآلات الملاحية قبل السفر

مثل (بيت الإبرة)، أو (الحقة – وهي البوصلة)، آلة القياس (وهي الخشبات) وآلة سبر الأعماق (البلد) والمصباح (الفانوس) والمرشد الملاحي (الرهمانج).

ومن ذلك نجد أن اللفظ الإيطالي وهو (بوصلة) ليس سوى ترجمة حرفية لكلمة (حُق) أو حُقة العربية.

يتضح يقيناً مما سبق أن موضوع ابتكار البوصلة الملاحية ينحصر بين العرب والفرس المسلمين من جهة وبين الصينيين من جهة أخرى بعد استبعاد الأوربيين الذين نقلوها عن العرب بالتأكيد كما ورد.

٧- نتائج البحث:

* ابن ماجد، ترك آثاراً خالدة في علم الملاحة، المعتمدة في أسسها وأصولها على علم الملاحة الفلكية، ويعدّ مخطوطُهُ (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) أهم وثيقة في الجغرافيا الفلكية والملاحية وصلتنا من العصور الوسطى على الإطلاق، وتنحصر أهميته في أنه أقدم الوثائق الجيدة التي وصلت عن الملاحة في البحار الجنوبية بلغة من اللغات، حيث ورد فيه لأول مرة مصطلح (علم البحر) بمعناه الواسع.. واحتوى على قصيدة طويلة هي (حاوية الاختصار في أصول علم البحار)، إلى جانب عدد من الأراجيز والقصائد التي تصف مسالك الملاحة في المحيط الهندي بين الجزيرة العربية وسواحل إفريقيا والهند والملايو وسيام وجزر إندونيسيا، وبذلك يرسى ابن ماجد قواعد الملاحة مما لا يخرج عن المفهوم الحديث.

* سليمان المهري، عالم عربي عاصر ابن ماجد، وواصل عطاءه في علم الملاحة البحرية، له خمسة مصنفات في الملاحة، أولها (العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية) ويرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٩١٧هـ (١٥١١م)، يبحث في أصول الملاحة الفلكية والنجوم، والطرق البحرية والرياح الموسمية بالمحيط الهندي ووصف البحر الأحمر (بحر القلزم)، وله مصنف مهم أيضاً هو: (المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر) يبحث في علم دير البحور المعمورة المشهورة، وفي صفة الجزر والقياس عليها، وفي معرفة الأرياح والمحذورات.

* بدأت الملاحة البحرية قديماً شاطئية، في بحر الهند والخليج العربي، ثم تطوّرت وأصبحت فلكية تعتمد على هدي النجوم في وقت مبكر، وقد أثبت العرب مهارة في الملاحة وعلم الملاحة البحرية، حيث وصل الملاّحون العرب إلى الصين والهند في عصر ما قبل الإسلام واستمر نبوغهم وتفوّقهم في العصور الإسلامية، وتحكّموا في تجارة التوابل والبهارات الهندية المتّجهة إلى أوروبا، والعرب هم الذين سعوا إلى أقاصي الشرق، وليس العكس، وإن عبارة "سفن صينية" التي كان يستخدمها المؤرّخون والجغرافيون العرب كانوا يقصدون بها أحياناً السفن العربية التي كانت تُبحر إلى الصين.. كما كان العرب سبّاقين إلى معرفة سرِّ الرياح الموسمية، وعنهم أخذ اليونان؛ والمراكب العربية هي التي كشفت مجاهل المحيط الهندي إلى الصين.

* عرب سبأ، ملاّحون مهرة ومحاربون أشدّاء كانوا يبحرون في سفن كبيرة للبلاد التي تنتج العطور، وكانت لهم فيها مستعمرات يستوردون منها نوعاً من العطر لا يوجد في جهة أخرى.

* زمام البحر كان في يد العرب حتى القرن الخامس عشر الميلادي، وحين بدأ الغرب يتطلّع إلى ما وراء البحار لم يستطع أن يجوب البحر إلا بمعونة من مرشد عربي هو ابن ماجد الذي ساعد "فاسكو دو غاما" على أول رحلة له في المحيط الهندي.

* هناك مصطلحات عربية مرادفة لمصطلحات حديثة في علوم البحار، يؤدّي بعضها المعنى المطلوب خيراً من المرادف الأجنبي. مثل: كلمة "أقاصير" التي وردت في كتاب الإدريسي وهي الحواجز الرملية في مداخل الموانئ أو مصاب الأنهار التي تتعذّر الملاحة فوقها لقصر الماء. وكثيرة هي الكلمات ذات الأصل العربي التي دخلت اللغات الأجنبية وتكاد لا تحصى، منها: (أرسينال: دار الصناعة "صناعة السفن"، أميرال: أمير البحر، رايس: رئيس البحارة "الريس بالعامية"، مونسون: الرياح الموسمية، تاريف: من تعريف ويقال "التعريفة الجمركية"، مجازين: من مخزن، شيك: من صك، كابل: من حبل، فلوكية: من كلمة "فلك" العربية، دوجانة: من ديوان العربية وهو الجمرك اليوم، مدراتا: من سفينة الحرب العربية "المدرعة").

* كثيرة هي الدلائل والإشارات التي تدلُّ على قِدَم علاقة العرب بالبحر، حيث تناشد العرب في شعرهم بذكر أنواع من السفن لم يكن للغرب سماع بها أصلاً عن معرفتها وركوبها.

* أما في أدب الرحلات، فيعد القصص البحري مصدراً مهمّاً من مصادر تاريخ الملاحة العربية وخاصة في القرنين التاسع والعاشر للميلاد، وأول ما نشأ في سيراف على الخليج العربي. تعكس مثل هذه القصص مغامرات الملاّحين في البحار النائية كما تصف أهوال الملاحة فيها والأخطار التي يتعرّض لها البحّارة بحكم عملهم. كما تضمّنت هذه القصص الكثير من الأعمال البطولية ومن أقدمها تلك التي وردت في مخطوط قديم بعنوان "رحلة التاجر سليمان"، ويرجع تاريخ تأليفه إلى عام ٢٣٧هـ – ٨٥١م وفيه وصف ممتع للطريق الملاحي بين سيراف وكانتون ومقارنة طريفة بين أحوال أهل الهند وأهل الصين.

* من كتب التراث التي أوردت شواهد تراثية على علوم الملاحة البحرية عند العرب كتاب القزويني (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) الذي يرجع تاريخه إلى ١٢٨٠م، وفيه أوصاف ممتعة عن العواصف الحلزونية وعن حيوانات بحرية غريبة ممزوجة بالأساطير. وكذلك كتاب الغرناطي (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب) الذي أتمّه في عام ١١٦٢م، وفيه صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار وما في جزائرها من أنواع النفط والنار، أما كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي فيورد إحصاء للمدن والقواعد البحرية، ومعلومات مهمّة عن الأساطيل البحرية الإسلامية.. وهناك الكثير من المخطوطات العربية التي أشارت إلى براعة العلماء العرب المسلمين في علم البحار والملاحة مثل: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي، و"تقويم البلدان" لعماد الدين إسماعيل أبو الندا.. وعدّد العرب أنواعاً كثيرة من سفن الأساطيل ورد ذكرها في أشعارهم أو في كتب الأدب والتاريخ مثل موسوعات الطبري وابن الأثير.

* استخدم العرب آلات لقياس ارتفاع الشمس أو النجوم والكواكب فوق الأفق سواء على البر أم في البحر، ومن هذه الآلات ما تمّ تطويرها ومنها ما تم اختراعها، مثل: الاسطرلاب، الحقة (البوصلة)، ربع الدائرة، والقياس بالأصابع.. إلخ.

الهوامش

١ - حسين مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد ١٣ لعام ١٩٦٥ – ١٩٦٦.

٢ - د.أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، العدد/١٣/ كانون الثاني ١٩٧٩، (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت)، ص٧.

٣ – المرجع السابق، ص٨.

٤ - محمّد رحماني: ريادة العرب المسلمين في علم البحر والملاحة، مجلة المحجّة، العدد /٤١١/ تاريخ ٣ كانون الثاني ٢٠١٤.

٥ - سيد سليمان الندوي: الملاحة عند العرب، ترجمة جلال السعيد الحفناوي، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المركز القومي للترجمة، ط١ عام ٢٠١٣).

٦ - د.أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، مرجع سابق، ص١٨.

٧ - جورج فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر، ص ١٣، (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٨).

٨ - عبدالكريم السمك: علم الملاحة عند العرب والمسلمين، شبكة ألوكة، ٢٠١٣/١٢/١٩.

٩ - د.جرجس جرجس – انطوان حويس: المعجم المدرسي للطلاّب، (دار صبح، بيروت، ط٣ عام ٢٠٠٦)، ص ١٣٨ - ١٣٩.

١٠ - د.أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، مرجع سابق، ص٢٤.

١١ - يقول المسعودي في مروج الذهب (جزء أول ص٢٤٤) أن الدقل في المحيط الهندي هو الصاري في البحر المتوسط.

١٢ – ابن جبير (أبو الحسن محمّد بن أحمد البلنسي) ٥٤٠ هـ – ٦١٤ هـ: رحلة ابن جبير، تحقيق وليم رايت، ليدن ١٩٠٧م، ص٧٠.

١٣ - أنور عبد العليم: أضواء على قاع البحر ١٩٦١، أنور عبد العليم: أضواء على قاع البحر، دار القلم، القاهرة ١٩٦١، ص٣٧.

١٤ - أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، مرجع سابق، ص٣٥.

١٥ - كراتشكوفسكي (أغناطيوس يليانوفتشي) ١٩٥٧ - تاريخ الأدب الجغرافي العربي باللغة الروسية، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم وقام بمراجعته إيجور بيلايف - نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر الجامعة العربية ج٢ - القاهرة.

١٦ - زكريا بن مُحَمَّد بن محمود الكوفي القزويني (٦٠٠ - ٦٨٢ هـ): عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - طبعة أولى ٢٠٠٠م، الصفحات: (٩٩-١٠٠-١٠٤-١٠٥).

١٧ - أبو حامد عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي الغرناطي (٤٧٣ - ٥٦٥هـ): تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق د.إسماعيل العربي - منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، طبعة أولى ١٩٩٣، الصفحات: (١١٥-١٣٩).

١٨- من أجزاء الاسطرلاب "العلاّقة": وهي حلقة يُعلّق بها الجهاز - "العروة": وهي الجزء الذي تشبك فيه الحلقة، ثم "الكرسي": وهو الجزء البارز عن المحيط، ثم "العضادة" وهي المسطرة التي تدور على ظهر المحيط منطبقة عليه ومثبتة في المركز، ثم "الهدفتان": وهما الصنجتان الصغيرتان القائمتان على العضادة على زوايا قائمة في كل واحدة منها ثقب يقابل ثقب الأخرى، ثم "قوس الارتفاع": وهو المرسوم على ظهره المجزأة، ثم "منطقة البروج": وهي الدائرة المقسومة باثني عشر قسماً غير متساوية مكتوب فيما بينها أسماء البروج.

١٩- من أهم المصنفات العربية في علم الاسطرلاب وفق ما أورد خير الدين الزركلي في كتابه الأعلام: (كتاب العمل بالاسطرلاب للبابلي عطارد بن مُحَمَّد البابلي البغدادي، ت: ٢٠٦هـ - عمل الاسطرلاب للخوارزمي محمَّد بن موسى الخوارزمي، أبو عبدالله، ت: ٢٣٢هـ - رسالة في الاسطرلاب لإبراهيم بن سنان بن ثابت بن قُرَّة بن مرْوان بن ثابت، أبي إسحاق الحرَّاني، ت: ٣٣٥هـ - كتاب العمل بالاسطرلاب لأبي الحسين الصوفي عبد الرحمن بن عمر بن سهل الصوفي الرَّازي، ت: ٣٧٦هـ - رسالة في الاسطرلاب لابن الصفَّار أحمد بن عبد الله بن

عمر الغافقي، أبو القاسم، ت: ٤٢٦هـ - الاسطرلاب لأصبغ بن محمَّد بن السمح المهري، أبو القاسم، ت: ٤٢٦هـ - الاستيعاب في صنعة الاسطرلاب للبيروني محمَّد بن أحمد، أبو الرَّيحان البيروني الخوارزمي، ت:٤٤٠هـ - معرفة الاسطرلاب المسطَّح والعمل به، والاسطرلاب الخطِّي؛ كلاهما للطوسي المظفَّر بن مُحَمَّد، شرف الدين، ت: ٦٠٦هـ - معرفة الاسطرلاب للطبري مُحَمَّد بن أيوب، ت: ٦٣٢هـ - رسالة في الاسطرلاب الخطِّي والعمل به؛ لابن رضوان محمَّد بن رضوان بن مُحَمَّد بن أحمد، أبي يحيَ النميري الوادي آشي، ت: ٦٥٧هـ - رسالة في الاسطرلاب لأثير الدين الأبهري المفضَّل بن عمر بن المفضَّل الأبهري السمرقندي، ت: ٦٦٣هـ - تسطيح الاسطرلاب لابن أبي الشُّكر يحيي بن مُحَمَّد بن أبي الشكر، محيي الدين، أبي الفتح، ويُعرَف بالحكيم المغربي ت: ٦٨٠هـ - الاسطرلاب للأشرف الرَّسولي عمر بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول، أبي حفص، ممهِّد الدِّين، الملك الأشرف: ثالِث ملوك الدولة الرسوليَّة في اليمن ت: ٦٩٦هـ - رسالة في الاسطرلاب للمِزِّي شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد بن عبد الرحيم المزي ت: ٧٥٠هـ - رِسالة في الاسطرلاب، ومختصر في العمل بالاسطرلاب لابن الشاطِر عليّ بن إبراهيم بن محمَّد الأنصاري الموقت، أبي الحسن علاء الدين، ت: ٧٧٧هـ - بغية الطلاب في علم الاسطرلاب - خ، أرجوزة، وشرحها؛ ونظم الرسالة الصفَّار في الاسطرلاب للحباك مُحَمَّد بن أحمد بن أبي يحيى، ت، ٨٦٧هـ - اللباب في الاسطرلاب للشهرستاني مُحَمَّد حسين بن مُحَمَّد علي المرعشي الشهرستاني الحائري، ت: ١٣١٥هـ.. وغيرهم).

٢٠- د.أنور عبد العليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، مرجع سابق، ص١٤٣.

٢١- المرجع السابق، ص١٤٦.

٢٢- المرجع السابق، ص١٥٥.

٢٣- سالم حميد: أحمد بن ماجد ملّاح من جلفار.. الأبعاد المعرفية في شعره — قراءة نقدية، مركز المزماة للدراسات والبحوث، دبي ٢٠١٨، ص١٢٩.